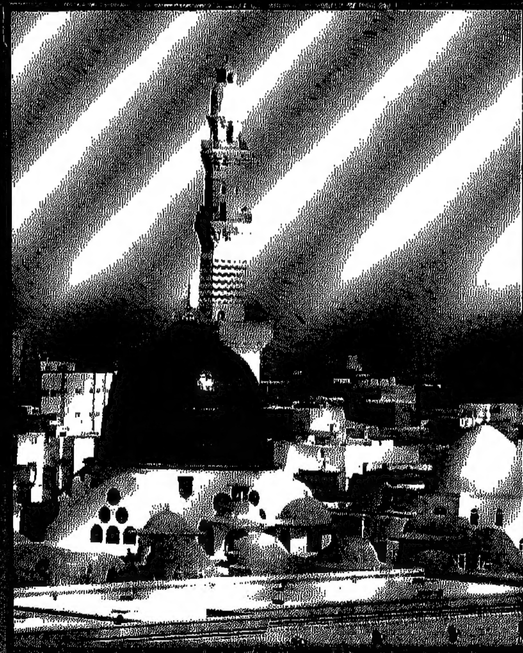
من تجليات السيرة النبوية الشريفة

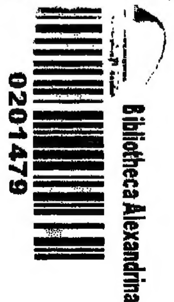
وقبلي بخشية أعتابهم

رسائل مرفوعة إلى الجناب الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم



محمود عمارة

فكر للدراسات والترجمة والنشر



وَقَبِّلِي بِخَشْيَةٍ أَعْتَابَهُمْ

وقبلي خشبة أعتابه

رسائل مرفوعة إلى جناب الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم

الدكتور

محمود عكام

فصلت

للدراسات والترجمة والنشر

الكتاب رقم: ٢٣/٠.

العنوان: وقَبِّلي بخشيةٍ اعتابهم. رسائل مرفوعة إلى جناب الحبيب المصطفى ﷺ.

المؤلف: الدكتور محمود علي عكّام.

التنضيد والإخراج: فُصّلت للدراسات والترجمة والنشر.

الخطوط: نديم صائم الدهر.

الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

التوزيع:

فُصِّلَتْ للدِّراسَات والتَّرْجمَة والنَّشْر

حلب، شارع القوتلي. هاتف: ٢٢٤٢١١٧. فاكس: ٢٢٢٦٥٢٨. ص.ب: ٨٢٦٠

e. mail: intertra@net.sy

قال جل شأنه :

﴿ فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ﴾

والصدقة منكم وأنا الفقير إليكم

محمود

اِہْدَاءٌ

اِلیٰ مُحَمَّدٍ الذَّاتِ

اِلیٰ رَسُولِ اللّٰہِ الصِّفَاتِ

اِلیٰ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللّٰہِ عَظِیمِ الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ

مِنْ عَاشِقٍ ہَمُّہٗ لَثْمُ الْعَتَبَاتِ

محمود

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمدُ للهِ والصَّلاةُ والسَّلامُ على رسولِ اللهِ وآلهِ ومَنَ والاهُ:

أقـولُ للــرَّوحِ إذا سـارتْ لَهُمْ ... الا فَرُوحي وعلَى البَابِ امْرَحي

وقَبِّــلي بَخشْــيَةٍ أعتَابَهُمْ ... وهِـمَّةَ الـعَزْمِ لَدَيْهِمْ صَحِّحي

هذان بيتان مِنْ قصيدة روَّاسيَّة [1]، سمعتُها لأولِّ مرَّةٍ، وأنا ابنُ عَشْر سنوات، مِن أفواهِ بعضِ المنشدين الكرامِ، فسكَنَتْ أذُني، وأحسستُ بصدرِ البيتِ الثاني قد تجاوزَ الأذُنَ ليكون مستقِرّاً في صدري، ورحتُ بعدَها أردِّده بيني وبين نفسي نشيداً أرتاحُ له، إذ أتخيَّلُ معه الأعتابَ في المدينةِ

(١) نسبة إلى الرّواس، محمد مهدي بن علي الرفاعي الحسيني الصيادي، بهاء الدين. ولد في البصرة عام ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م، وتوفي في بغداد في ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م. كان متصوفاً كبيراً،عبّر عن مواجيده وأشواقه بشعر جميل رائق.

المنوَّرة، يومَ كانت مرابعَ الحبيبِ الأمينِ مُحَمَّد ﷺ، وكذلك اليومَ، ورسولُ اللهِ ثاوٍ فيها، ينشرُ روضُه الشريفُ عبَقَ الأُنس على الجنَبات القَلْبيَّة الواعية، ليس فقط في فلَك المدينةِ العظيمة، ولكن في كلِّ القلوبِ الإنسانيةِ المتطلِّعة إلى أمْنِ السَّماء، وأمانِ الإيمانِ، وراحةِ الأرواحِ.

لستُ شاعراً حتَّى أُكملَ خَطَّاً مَن مدحَ الحبيبَ، وحينَها لي أعظمُ الشَّرف؛ ولكنِّي ناثرٌ لي مع العبارةِ عبيرُ غرامٍ، ومُحبٌّ للكَلِم، يُنعشني منه ماطابَ، ويَخنُقني الذي لم يَطِبْ، وما عليَّ ملامٌ.

لذلك قررتُ رفعَ رسالات منثورة إلى جنابِ الحبيب الأعظمِ مُحَمَّد ﷺ، ومع كلِّ رسالةٍ شميمٌ مِنْ «وقبِّلي بخشيةٍ أعتابَهم»، ولميمٌ مِنْ بَهار خدٍّ كلِّ قصيدةِ مدحٍ قيلتْ وأُنشدت.

ولما وصلَ عددُ الرسائلِ إلى الثلاثين، توجَّهتُ إلى «فُصِّلت» طالباً نشرَها في كتاب، وألاَّ يخلوَ عنوانُها مِن ذكرِ الأعتاب، فعسَاها وهي تُقرأ مِنْ قِبَلِ المحبِّين تحثُّهم على رفْعِ الأكفِّ أمامَ العليِّ القديرِ، فيدعون لي بالثَّباتِ على محبَّةِ اللهِ جلَّ شأنُه، ومحبَّةِ رسولِه ﷺ، وآلِ بيتِه الأطهارِ عليهمُ السَّلامُ، والصَّحبِ المختارين، وكلِّ الأولياءِ والصالحين، فذاكَ الحبُّ زادي الذي أدَّخرُ ليوم اللقاء، ورحمَ اللهُ السيِّدَ الروَّاس القائلَ في هذا المجال:

إنِّي على العَهْدِ القديمِ وحبُّهم ... ديني وكعبةُ مُهجتي ومَناري
وإذا حُشرتُ بُعيْدَ موتي في غدٍ ... حُبِّي لهاتيكَ الوجوهِ شِعاري
أنِّي أُجانبُ حبَّهم وهو الذي ... أعددتُّه زادي لعُقبَى الدَّار

فياسَيِّدي، يا موضوعَ رسالاتي ورسائلي:

جزاكَ ربِّي عن قلبي وقلبِ كلِّ محبٍّ خيرَ مايجزي محبوباً أميناً صادقاً عن مُحبِّيه.

أنتَ أبَرُّ النَّاسِ.

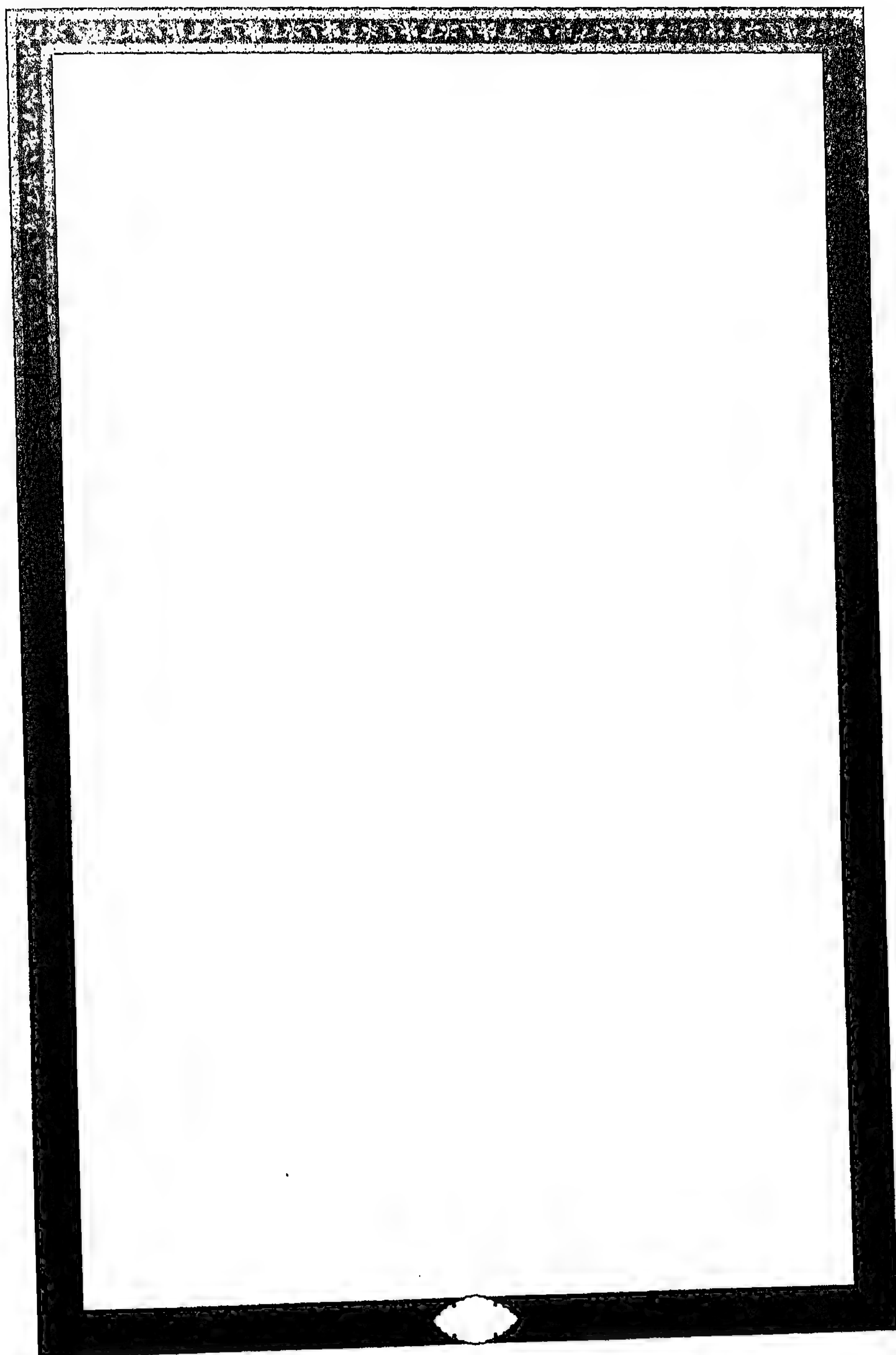
أنتَ أكرمُ النَّاسِ.

وإنِّي لمطأطئٌ رأسيَ استحياءً ...

الصَّلاةُ والسَّلامُ عليك يومَ وُلدتَ، ويومَ بُعثتَ، ويومَ بَلَّغتَ، ويومَ أدَّيتَ، ويومَ انتقلتَ، ويومَ تشفعُ لأمَّتك، وأنا منهم، يومَ الدين.

حلب الشهباء /ربيع النور/١٤٢٠

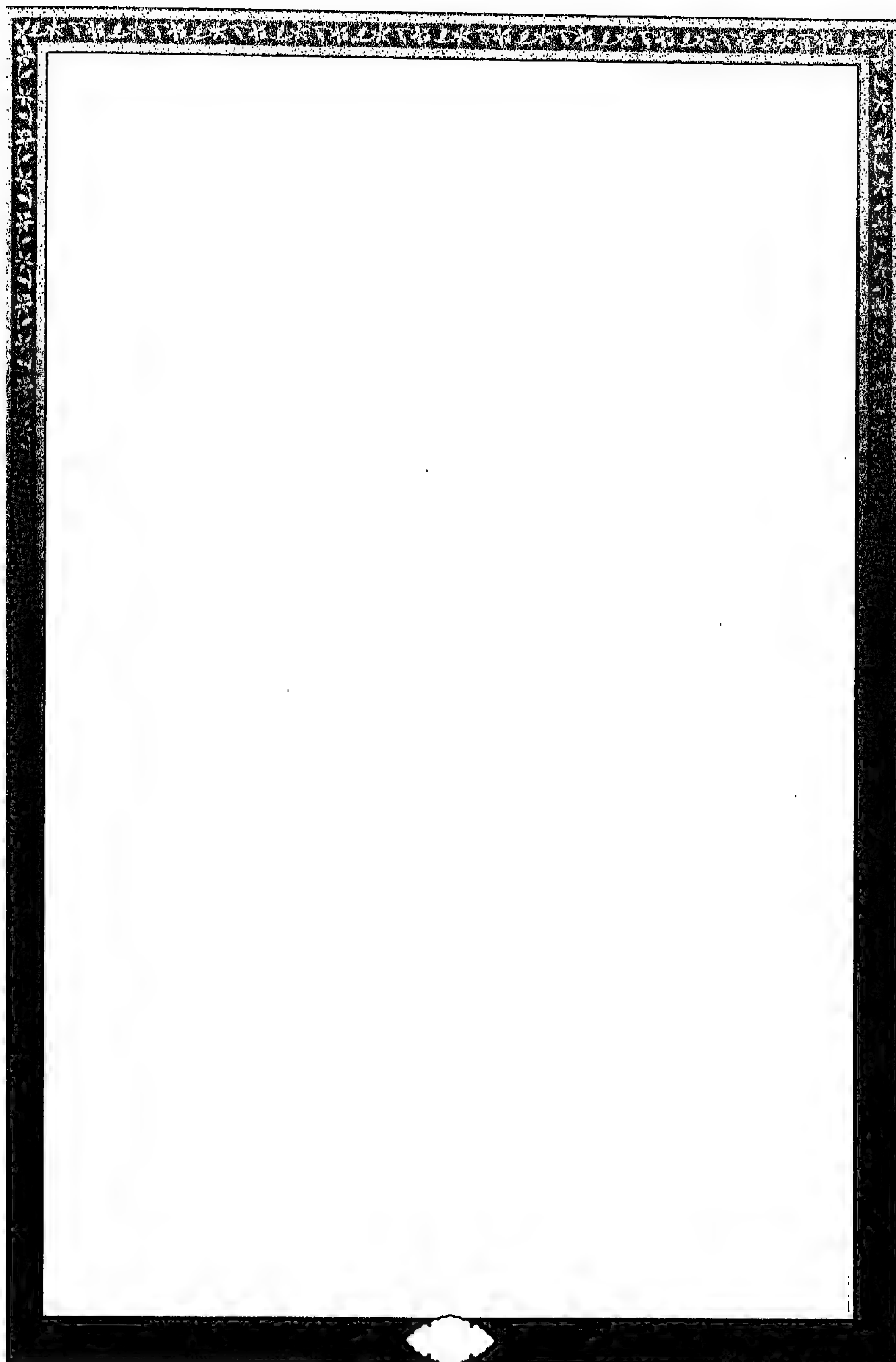
محمود



الرسالة الأولى

سيدي :

وهل يستطيع القلب أن لا يحب



ويسألني النَّاسُ عن منطقيَّة التَّكليف بمحبَّة النَّبيِّ ﷺ الوارد في قول الله: ﴿قُلْ إنْ كانَ آباؤُكُمْ وأبناؤكُمْ وإخوانُكم وأزواجُكمْ وعَشيرَتُكمْ وأموالٌ اقْترفتُمُوهَا وتجارةٌ تخْشَوْنَ كسَادَها ومساكنُ ترضَوْنَها أحبَّ إليكمْ مِنَ الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربَّصوا﴾ التوبة/٢٤.

وقوله ﷺ: (لا يُؤمنُ أحدُكمْ حتَّى أكونَ أحَبَّ إليه مِنْ والده، وولده، والنَّاس أجمعين)(١).

والحبُّ لا يخضع لذلك !!

أقولُ: ما دام المكلِّفُ اللهُ الخالق فلا إشكالَ، فقد كلَّفَ بعد إذْ فطرَ القلوبَ على ذلك، فقال مختاراً: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حيثُ يجعلُ رسالتَه﴾ الأنعام/١٢٤. وعلَّقَ الاختيارَ بالحبيب مُحبِّباً: ﴿وإنَّك لَعَلَى خُلُقٍ عَظيْم﴾ القلم/٤.

فاتجهتِ القلوبُ صدقاً وعدلاً إلى صاحبِ الخُلقِ العظيم؛ فمِنَ النَّاس

مَن أظهر وصدَّق، ومنهم مَن سترَ وكفر: ﴿ ومَـنْ ضَلَّ فإنَّمَا يَضِلُّ عليـها ﴾ الزمر/ ٤١، ﴿ ومَنْ يكـتُـمْـها فإنّه آثـمٌ قلبُه ﴾ البقرة/ ٢٨٣.

عجباً للناس؛ يقولون: إنَّ حبَّ المال فطريٌّ. وما وردَ في ذلك، عقلاً ونقلاً، لا يعادل ما ورد في فطريَّةِ حبِّ الرَّسول ﷺ، فعبَّر العقلاءُ وقصَّر غيرهم. التَّوراةُ بشَّرت به، والإنجيلُ حكَى عنه، والقرآنُ نزلَ عليه، وغدا اسمُهُ يُذكَر مع اسم الله جلَّت قدرته.

وصفُه يجذبُ، وخُلُقه يقربُ، وصدقُه يَشدُّ، وأمانتُه تحبِّبُ، وعقلُه أرجحُ مِنْ أنْ تُقارنَ به عقولُ العقلاء، مجتمعين أومتفرقين.

فأمَّا الوصفُ:

فقد جاءَ على لسان مَنْ رأوْهُ صادقاً محقِّقاً موثِّقاً مؤكِّداً، لأنَّهم كُثُرٌ متفاوتونَ عقلاً وتفكيراً ورأياً، فقال قائلهم، وهو أبو هريرة: «ما رأيتُ شيئاً أحسنَ منْ رسولِ اللهِ ﷺ، كأنَّ الشمسَ تجري في وجهه» [٢]، وقال آخر، وهو حسَّان بن ثابت الشاعر:

متَى يَبْدُ في الليلِ البهيم جبينُهُ ... يَلُحْ مثلَ مصبَاحِ الدُّجَى المتَوقِّدِ

فمَنْ كانَ أومَنْ قد يكونُ كأحمدٍ ... نظـامٌ لحقٍ أو نَـكالٌ لملحدِ

وعلى هذه الشَّاكلة توالَوا.

وأمَّا الخُلُقُ:

فأَعْظِمْ بتعظيمِ اللهِ لخُلُقه، إذ قالَ عنه:

﴿ وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظيمٍ ﴾ القلم/ ٤.

وأنْعِمْ بمَنْ توشَّى بكلام اللهِ، فتخلَّقَ به؛ ولقد قالت زوجُهُ السَّيِّدةُ عائشة: «كان خُلُقُهُ القرآنُ؛ يغضبُ لغضبه، ويرضَى لرضاه»[٣].

وها هو يعلنُ عن مُهمَّته فيقول: (بُعثتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ)[٤]، وفي رواية: (بُعثتُ لأتمِّمَ صالحَ الأخلاق)[٥].

وقد ورد عن عطاء بن يسار قال: «لَقيتُ عبدَ الله بنَ عمروٍ بنِ العاص؛ فقلتُ أخبرني عن صفةِ رسولِ اللهِ ﷺ في التَّوراة. فقال: أجلْ. إنَّه لموصوفٌ في التَّوراة ببعض صفتِه في القرآن:

(يا أيُّها النَّبيُّ إنَّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحِرزاً للأمِّيينَ، أنتَ عبدي ورسولي، سميَّتُكَ المتوكلَ، ليس بفظٍ ولاغليظٍ ولاصخَّاب بالأسواق، ولايدفعُ بالسيئةِ السيئةَ، ولكن يعفو ويغفر، ولنْ يقبضَهُ اللهُ حتَّى يُقيمَ به الملَّة العوجاء؛ بأنْ يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتحَ به أعيناً عُمياً، وآذاناً صُمَّاً، وقلوباً غُلفاً)[٦].

وأمَّا الصِّدق:

لم يكنْ لدَى بشر سواه، تسمَّى به تحقُّقاً، ولُقِّب به تعاملاً، وأيْمُ اللهِ ما تجسَّد الصِّدقُ في غيره تجسُّدَه فيه، فكأنَّه شخصُه الذي يُعايَرُ عليه، ونموذجُه الذي يُنسَبُ إليه. مانطقَ لسانُه إلا به، ولاخالفَ عملُه قولَه. ناداه أعداؤه «يا صادق»، ولمسَ أصحابُه بقلوبهم، قبلَ آذانهم، منه أصدقَ الحقائقِ. دخلَ عليه عبدُ اللهِ بنُ سلام في المدينةِ فقالَ:

«انجفلَ النَّاسُ إليه - أي إلى رسولِ اللهِ ﷺ - فكنتُ فيمن جاءَهُ، فلما تأمَّلتُ وجهَهُ، واستبَنْتُهُ، عَرفتُ أنَّ وجهَهُ ليسَ بوجهِ كذابٍ»[٧].

وأمّا الأمانةُ:

التي تُحبِّبُ، فسجيَّتُه التي انطوتْ عليها سريرتُهُ؛ اؤتمنَ فأدَّى وأمَّنَ ليُبلِّغَ عنه. عن الأمانةِ العظيمةِ صدَرَ، وإلى الأمانةِ الإنسانيةِ هدى.

نظر إليه أبو بكر رضي الله عنه فقال:

أمينٌ مُصطفَى للخيرِ يدعو كضَوءِ البدرِ زايَلَهُ الظَّلامُ

وخاطبَ في حَجةِ الوداعِ مَنْ أمامه، وأشْهَدهمْ على أدائه الأمانةَ، فشهدوا: (ألا هَلْ بلَّغت. اللَّهمَّ فاشْهدْ)[٨].

وبالرغمِ مِن عداوةِ أعدائهِ له، إلا أن نعتَهُ بالأمينِ لمْ يَختفِ مِنْ كلامهم وعبَائرهم، واستئمَانَه على أموالهم وودائعهم لم يرتفعْ مِن تصرفاتهم، حتَّى إنهم ليأتمرون على قتله، وهم مؤتمنونَه على ما يحبونَ ويتعلقون مِنْ أموالٍ، وأشياءَ ثمينةٍ، وودائعَ لها قيمةٌ عندهم.

وعقلُه، وما أدراكَ ما عقلُه:

فقد بلغَ الكمالَ لأنَّه حملَ رسالةَ التمام والكمال.

قال التابعي الثقةُ وهب بن منبه: «قرأتُ في واحد وسبعين كتاباً، فوجدتُ في جميعها أن اللهَ تعالى لم يُعطِ جميعَ النَّاس، مِنْ بدء الدُّنيا إلى انقضائها، مِنَ العقل، في جَنْب عقل مُحَمَّد ﷺ، إلا كحبَّة رمل مِنْ جميع رمال

الدُّنيا، وأنَّ مُحَمَّداً ﷺ أرجحُ النَّاس عقلاً، وأفضلُهم رأياً».

ويدخل عليه أعرابيٌّ فطري، ويستمع إليه، فيخرج مسلماً، فيقول له قومُه: كيف عرفتَ أنَّه رسول اللهِ؟ فقال: «ما أمر مُحَمَّدٌ بأمر قال العقلُ: ليته نهى عنه؛ ولا نهى عن شيء قال العقل: ليته أمر به»[٩].

بعد هذا كله فليس غريباً، بل هو عينُ الصواب والحق، اتجاهُ القلوب إليه وتعلُّقها وارتباطها به، وتعبيرُها عبر اللسان تعبيراً فريداً ليس له نظير في عالم المحبين لسواه مِنَ النَّاس.

يأتيه ثوبان فيقول: «يارسول الله. إنّك لأحبُّ إليَّ مِنْ نفسي، وإنَّك لأحبُّ إليَّ مِنْ ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك، فما أصبر حتَّى آتي فأنظر إليك، وإذا ذكرتُ موتي وموتَك عرفتُ أنّك في الجنَّة مع النَّبيِّين، وأني لستُ كذلك، فبكيت خشيةَ أن لا أراك»[١٠].

فلم يردَّ عليه النَّبيُّ ﷺ شيئاً، حتَّى نزل جبريل بهذه الآية:

﴿ومَنْ يُطع اللهَ والرَّسولَ فأولئك مع الذين أنعمَ اللهُ عليهم مِنَ النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقاً﴾ النساء/ ٦٩.

وارتسمتْ فرحةُ الأمل باللقاء على مُحيًّا ثوبان، وعاد قريرَ العين.

فيا سَيِّدي يارسول الله. الحبُّ لك، والصَّلاةُ والسَّلام عليك، والشَّفاعة لنا منك. سلامٌ عليك في الأولين، وسلامٌ عليك في الآخرين، وسلامٌ عليك إلى يوم الدين.

محمود

الهوامش

(١) متفق عليه. البخاري: ك/الإيمان، ح/١٥. ومسلم: ك/الإيمان، ح/٤٤.

(٢) أخرجه أحمد: ح/٨٩٢٣، ج ٩/٥٣.

(٣) أخرجه أحمد: ح/٢٤٤٨٢، ج ١٧/٣٧٩.

(٤)(٥) أخرجه أحمد: ح/٨٩٣٢، ج ٩/٥٦.

(٦) أخرجه البخاري: ك/البيوع، ح/٢٠١٨.

(٧) أخرجه الترمذي: ك/صفة القيامة، ح/٢٤٨٥. وابن ماجه: ك/إقامة الصلاة، ح/١٣٣٤.

(٨) أخرجه البخاري: ك/الحج، ح/١٦٥٤.

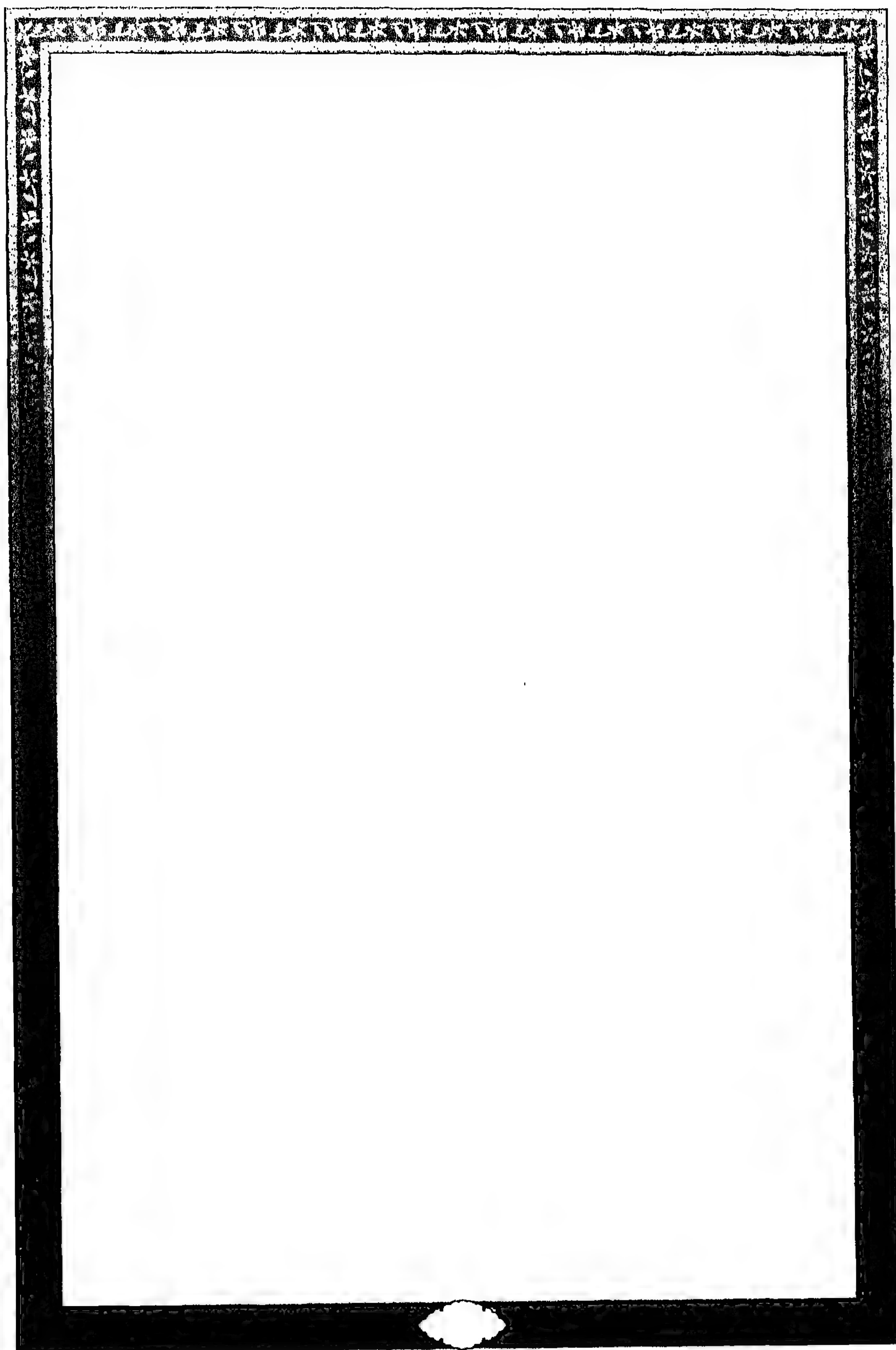
(٩) أخرجه الحاكم.

(١٠) الشفا: ج ٢/١٧، طبعة دار التراث الإسلامي بحلب.

الرسالة الثانية

سيدي :

وإنك لعلى خلق عظيم



أُمِرْتَ يامُحَمَّد فاستجبتَ ونفَّذتَ، وكُلِّفْتَ فأجَدْتَ وأحسنتَ.

دُعيتَ إلى الخُلُق فتحلَّيتَ بعظيمه، ونُوديتَ بالرَّحمة فتمثَّلتَها بأرحبِ ساحاتها وأنْوَرِ إشعاعاتها.

قال لك ربُّك: ﴿ واخفضْ جناحَكَ للمؤمنين ﴾ الحجر/٨٨، فخفضتَ وحقَّقْتَ. وحثَّكَ على الرَّحمة بالمؤمنين: ﴿ فبمَا رحمةٍ منَ اللهِ لِنْتَ لهم ﴾ آل عمران/١٥٩، فكنتَ، بشهادته، الرؤوفَ بهم والرحيمَ، وطلبَ منك العفو والصَّفح: ﴿ فاعفُ عنهم واصفحْ إنَّ اللهَ يحبُّ المحسنين ﴾ المائدة/١٣، فسَبقتَ وسارعتَ؛ وكدتَ أن تُذهب نفسَكَ حسراتٍ عليهم وحرصاً على نهايتهم الخيِّرة.

فلنعشْ في رحاب خُلُقك وأنتَ تدعو، وأنتَ تُطبِّقُ، وأنتَ محلُّ الإعجاب ممَّن حولك إذ يشهدون لك. ونحن عن الاستقصاء، واللهِ عاجزون، وحسبُنا المثَلُ والمثَلان، والقصةُ والقصتان، والواقعةُ والواقعتان، فذاك نورٌ يُظهر الفضلَ، ويشيرُ إلى البحر، ويُغني أربابَ العقل وطلابَ النَّقل:

فإنْ تكلَّمتُ لم أنطقْ بغيركمُ   وإنْ سكَتُّ فشُغْلي عنكُمُ بكمُ

دعوتَ إلى الخُلُق فقلتَ: (أكملُ المؤمنين إيماناً أحسنُهم خُلقاً وألطفهم بأهله)[1].

وناديتَ: (اتَّقِ اللهَ حيثما كنتَ، وأتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تمْحُها وخالقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حسنٍ)[2].

وأخبرتَ: (إنَّ اللهَ تعالى أوحى إليَّ أنْ تواضعوا، حتَّى لايفخرَ أحدٌ على أحدٍ، ولايبغي أحدٌ على أحدٍ)[3].

وطبّقتَ فكنتَ النموذجَ والمثالَ؛ يدخل عليك عمّارُ بنُ ياسر فتستقبلُه عن بُعد وقد عرفْتَهُ منْ صوتِه، وتقولُ لهُ: (مرحباً بالطيِّب المطيَّب)[4].

وتقبلُ فاطمةُ الزَّهراءُ ابنتُك عليكَ، تمشي كأنَّ مِشْيَتَها مِشيتُك، فتقوم لها، وتُجلسها على يمينك، وتقولُ لها: (مرحباً بابنتي)[5]، في وقت كانت البنتُ، في أحسنِ أحوالِها، منْ سقْطِ المتاعِ.

ولن ننسى زاهراً؛ ذلك الفتى الذي آمنَ بكَ وأحبَّك، فبادلتَهُ أكبرَ وأكثرَ، يأتي المدينة، وهو يقطنُ باديتَها، ببضاعة ليبيعَها، فتزوِّدُه بهدايا آخرَ النَّهارِ، وتكرمُهُ بكلمتكَ الرَّائعةِ: (زاهرٌ باديتُنا، ونحنُ حاضروهُ)[6]، فيروحُ وقد مُلِىءَ حُبّاً وعطفاً ولطفاً.

وإنَّها للحظاتٌ غامرةٌ ساعةَ أتيتَهُ منْ خلفه فوضعتَ كفَّيك الحانيتين على عينيه تمازحُهُ وتلاطفُهُ، فقالَ لكَ: «أرسلْني»، ولمْ يعرفْكَ، ثمَّ لمّا تبيَّنَ لهُ أنَّكَ أنتَ، راحَ يلصقُ ظهرَهُ بصدرِكَ متباركاً، يسمعُ منكَ دعابتَكَ: (مَنْ

يشتري هذا العبدَ مني ؟) فيجيبُك وقد غمرَهُ التَّواضعُ الساري منكَ إليه: «إذاً تجدُني كاسداً يارسولَ اللهِ»، وهنا تنفجرُ ينابيعُ الحبِّ والحنانِ والعطاءِ مِنْ صدرِكَ، لتقولَ الكلمةَ التي رافقتْكَ مدى الحياةِ، وانسابتْ في أذنِ الزَّمانِ: (لكنكَ عندَ اللهِ غالٍ)[٧].

وحينَ وَفَدَ وَفْدُ النجاشي خَدَمْتَهُ بنفسِكَ أيُّها العظيم، فقالَ الأصحابُ: «نحنُ نكفيكَ يارسول الله». فقلتَ: (لا. إنَّهم كانوا لأصحابِنا مكرمين، وأحبُّ أنْ أكافئَهم بنفسي)[٨].

وما أعظمَك وأنت تقول: (إني لأدخلُ في الصَّلاةِ أريدُ إطالتَها فأسمعُ بكاءَ الصَّبي، فأتجوَّزُ في صلاتي مما أعلمُ مِنْ شدَّةِ وجدِ أمِّه)[٩].

حقاً:

وإذا رحمتَ فأنتَ أمٌّ أو أبٌ   هذانِ في الدُّنيا هما الرُّحماءُ

وهل يغيبُ عن بالِ الأيَّامِ يوم استشهد عثمانُ بنُ مظعونٍ رضي الله عنه فوضعتَ رأسَهُ في حجرِكَ، ورحتَ تقبِّلُهُ ودموعُكَ تسيلُ على خدِّ عثمان[١٠] فكأنَّكَ - بل أنت - اليدُ الشافيةُ المعجزةُ التي يرجو النَّاسُ مرورَها عليهم.

ويحدِّثُنا الشَّابُّ عبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ رضي الله عنه قال: أردفني رسولُ اللهِ ﷺ خلفَهُ ذاتَ يومٍ، فإذا جملٌ، فلما رأى النَّبيَّ ﷺ حنَّ وذرفتْ عيناهُ، فأتاهُ رسولُ اللهِ ﷺ فمسحَ ذفراهُ فسكتَ الجملُ)[١١].

خُلقٌ مالَهُ في الكونِ نظيرٌ، عمَّ الإنسانَ والحيوانَ والنباتَ والشَّجرَ والحجرَ.

كيف ترقى رُقيَّك الأنبياءُ ياسماءً ما طاولتْها سماءُ

لم يُجاروكَ في عُلاك وقد حا لَ شيءٌ منك دونهم وسناءُ

إنما مثَّلوا صفاتك للنا س كما مثَّل النجومَ الماءُ

أنتَ مصباحُ كلِّ فضل فما تصدر إلا عن ضوئك الأضواء

وبعدها فقد توالت الشهادات أوسمةً مِنَ الله إليك، لتشعّ ريادةً وقيادة للناس إلى أن يرث الله الأرض وماعليها.

فمن: ﴿ وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عظيْم ﴾ القلم/٤.

إلى: ﴿ بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيمٌ ﴾ التوبة/١٢٨.

إلى: ﴿ مُحَمَّدٌ رسولُ الله ﴾ الفتح/٢٩.

و: ﴿ سبحانَ الذي أسرَى بعبده ﴾ الإسراء/١.

و: ﴿ واللهُ يعْلمُ إنَّكَ لَرَسُولُه ﴾ المنافقون/١.

وشهادات مَن حولك وهم يخالطونك شباباً وشيباً ونساءً، ولو أن لي مما في الأرض مِنْ شجرٍ أقلاماً ما استطعتُ بها حصرَ شهادات قُدّمتْ لجنابك، أهدتها القلوبُ والعقول، وحسبي أن أذكر هنا شهادةَ عليٍّ ﷺ إذ قال: «كان رسولُ الله ﷺ أوسعَ النَّاس صدراً، وأصدقَهم لهجةً، وأليَنهم عريكةً، وأكرمَهم عشرة» [١٢].

وإقرارَ أنس ﷺ: «كان رسولُ الله ﷺ أشدَّ النَّاس لطفاً، وما رأيت أحداً أرحمَ بالعيال مِنْ رسول الله ﷺ» [١٣].

واعترافَ عائشة رضي الله عنها: «كان رسولُ الله ﷺ أبرَّ النَّاس،

وأكرم النَّاس، بسّاماً ضحّاكاً»[١٤].

وإعجابَ جرير بن عبد الله البجلي: «ما حجبني رسولُ الله منذ أسلمت ولا رآني إلا تبسّم»[١٥].

فلتهنأ ياسَيِّد الخُلق الحَسَن، ولَنِعْمَ الأسوةُ أنت، وعسانا نهنأ بنظراتك لنا، فقد أطمعتنا رحمتُك، وقرَّبنا لطفُك، ونحن القساة، والأملُ يبرق في قلوبنا مِنْ أجل أن نحظى بشفاعتك ونحن العصاة، فصلاةُ الله عليك ياسَيِّد النَّاس، ويا أرحم النَّاس، ويا أفضل النَّاس.

محمود

الهوامش

(١) أخرجه الترمذي: ك/الإيمان، ح/٢٦١٢. وأحمد: ح/١٠٠٦٢، ج ٩/٣٩٣.

(٢) أخرجه الترمذي: ك/البر والصلة، ح/١٩٨٧. وأحمد: ح/٢١٢٥١، ج ١٥/٥٠١.

(٣) أخرجه مسلم: ك/الجنة، ح/٢٨٦٥. وأبو داود: ك/الأدب، ح/٤٨٩٥.

(٤) أخرجه الترمذي: ك/المناقب، ح/٣٧٩٨. وابن ماجه: المقدمة، ح/١٤٦.

(٥) متفق عليه. البخاري: ك/المناقب، ح/٣٤٢٦. مسلم: ك/فضائل الصحابة، ح/٢٤٥٠.

(٦) مجمع الزوائد: ح/١٥٩٧٩، ج ٩/٦١٥.

(٧) المصدر السابق.

(٨) السيرة النبوية.

(٩) متفق عليه. البخاري: ك/الجماعة، ح/٦٧٧. مسلم: ك/الصلاة، ح/٤٧٠.

(١٠) أخرجه في الإصابة: ج ٤/٤٦٢.

(١١) أخرجه أبو داود: ك/الجهاد، ح/٢٥٤٩. وأحمد: ح/١٧٥٤، ج ٢/٣٦٩.

(١٢) أخرجه الترمذي: ك/المناقب، ح/٣٦٣٨.

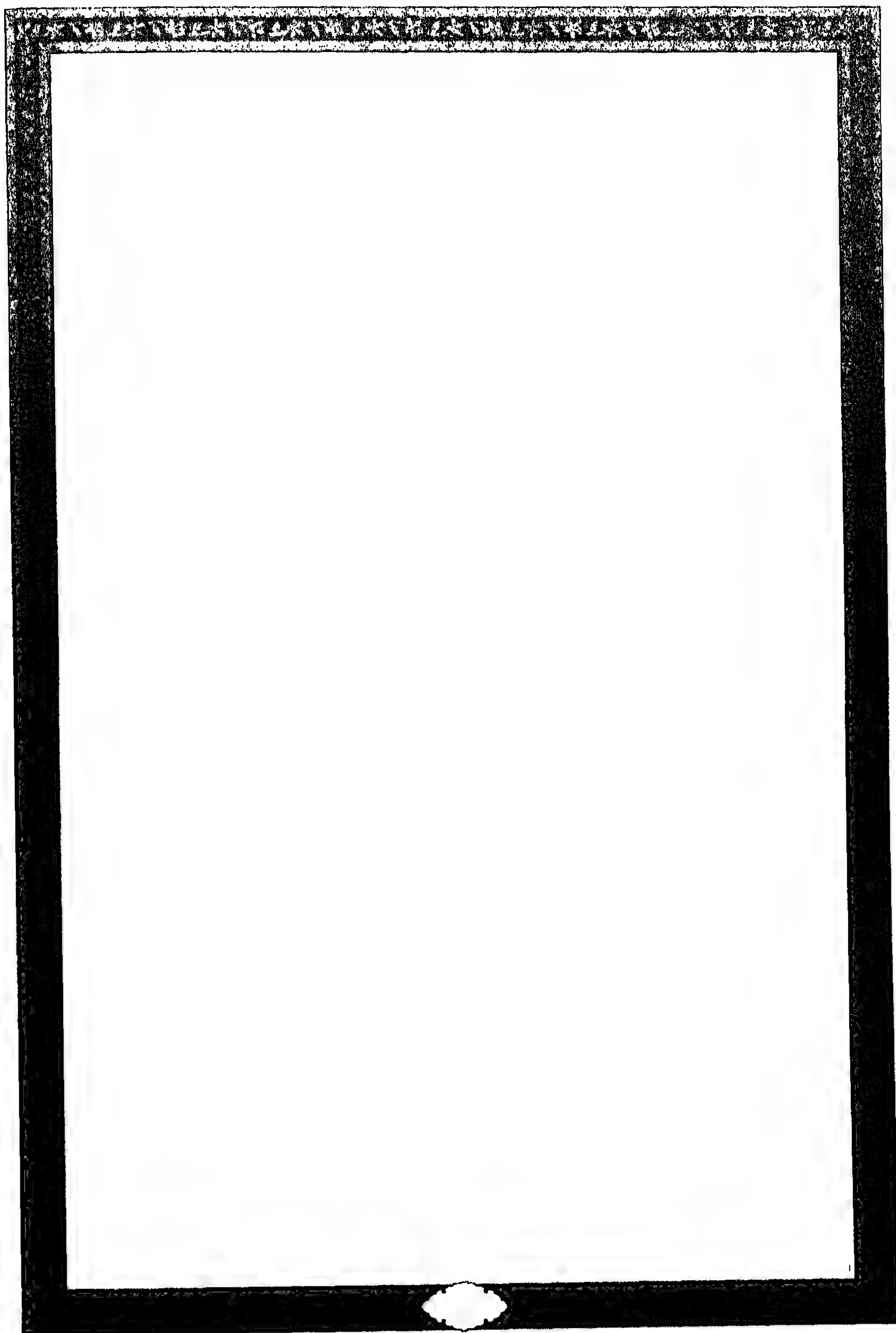
(١٣) أخرجه مسلم: ك/الفضائل، ح/٢٣١٦.

(١٤) أخرجه ابن سعد، ج ١/٣٦٥. وابن كثير في الشمائل.

(١٥) متفق عليه. البخاري: ك/الجهاد، ح/٢٨٧١. مسلم: ك/فضائل الصحابة، ح/٢٤٧٥.

الرسالة الثالثة

وكن من الساجدين



مَن رام العزَّ أسجدَ جبينَه لقيُّوم السَّموات والأرضين، ومَنْ طلبَ المُنى أعلن عبوديتَه قَالاً وحالاً لخالق الإنسان مِنْ طين، ومَنْ ابتغى السعادةَ في الدُّنيا والفلاحَ في الآخرة سبَّح اللّهَ في كل حين، هذا ما أمر به ربُّ العزة عبدَه سَيِّدَ المرسلين، إذ قال له:

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِين ، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ الحجر/ ٩٨-٩٩ .

فردد المصطفى ﷺ هذا الأمرَ مبتهجاً مسروراً، حين قال: (ما أوحيَ إليَّ أنْ أجمعَ المال وأكونَ مِنَ التَّاجرين، ولكن أوحيَ إليَّ أنْ سبِّحْ بحمد ربِّكَ وكُنْ مِنَ السَّاجدين) [1].

وقد تحقَّقَ بذلك، فجاء الأمرُ مِنَ اللّه مؤكِّداً مؤكَّداً أنْ نعِم ما فعلتَ يا مُحَمَّد، فاستمرَّ وتابعْ واصبرْ وسارعْ: ﴿ فاعبُدْهُ واصطبرْ لعبادته هلْ تعلمُ له سَمِيّاً ﴾ مريم/٦٥.

وحين نكشفُ الستارَ عن الواقع، نرى في تطبيقه ﷺ كلَّ رائع، ولئنْ كانت الزوجةُ أعرفَ مِن غيرها بحياة زوجها، فالسَيِّدةُ عائشة رضيَ اللهُ عنها تصفُ عبادتَه يوم سُئِلتْ عنها فتقول: «كان عملُه ديمةً، وأيُّكمْ يستطيعُ ما كانَ رسولُ الله ﷺ يستطيعُ؟» [٢].

ويستقبلُ رسولُ الله ﷺ أمراً منَ الله حولَ العبادة محدَّداً بصلاة الليل: ﴿ومنَ الليلِ فتَهجَّدْ به نافلةً لكَ عَسَى أنْ يبعثَكَ ربُّكَ مقاماً مَحْموداً﴾ الإسراء/٧٩، فيستجيبُ أيَّما استجابة، وينادي بلالاً مؤذنَه أن: (أرحْنا بها يابلال) [٣]، ويُجلّي سرورَه العميقَ بقوله: (وجُعلتْ قرَّةُ عَيني في الصَّلاة) [٤].

ويحمِّل لياليَه أروعَ التَّعبُّدِ وأصدقَه، ويمزجُ معه أجملَ المعاني، وأرقَّ النَّسائم المنعشة لقلب الإنسان وروحه: «فيقومُ مِنَ الليلِ ما يشاء اللهُ أن يقومَ، حتَّى تتورَّمَ قدماه. فتقول له زوجه: لقد غُفر لك ماتقدَّمَ مِن ذنبك وما تأخَّر. فيقول: (يا عائشة. أفلا أحبُّ أنْ أكونَ عبداً شكوراً) » [٥].

ويتهادى الليلُ كلَّ يوم ليلفَّ الكونَ، ومُحَمَّد ﷺ يستقبله بصلاة نافلة يوجِّهها لربِّ الليل والنهار، وينقلُ عنه صاحبُه عمّار بن ياسر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ تلك الحال، فيقول: «رأيتُ حبيبي مُحَمَّداً ﷺ يصلّي بعد المغرب ست ركعات» [٦]، ولا يختلفُ النهار، بالرغم مِنْ كلِّ أعبائِه، عن الليل في العبادة، إذ «كان يصلِّي الضُّحى أربعاً ويزيد ما شاء الله» [٧]، وقد حددتْ رواية أخرى هذه الزيادة: «كان يصلِّي الضُّحى اثنتي عشْرةَ ركعةً» [٨].

وحينَ ننظرُه قبلَ النوم نجدُ الشفتين الشريفتين تتحركان بآيٍ منَ

الذكر الحكيم، تعبيراً عما طُبعَ في قلبه منه، فقد وردَ عنه أنّه ﷺ: «كان لا ينامُ حتَّى يقرأَ الإسراءَ والزُّمرَ والسَّجدةَ وتبارك» (٩).

وبين هذا وذاك لا يفتأ يرددُ دعوات عبدٍ أحسنَ السجودَ والتّسبيحَ، يرفعُها للّه الرحمَن الرحيم، وكأنّي به يضعُ عملَه في ظرفٍ يريدُ إرسالَه مختوماً موقّعاً بجملة اعترافات عَبديَّة واحتياجات إنسانية، لتلّقى القَبولَ منَ الكريمِ الجوّاد المكرِّم الغفّار للذّنوب والهفَوات التَّقصيرية: (إنّي لأستغفرُ اللّهَ وأتوبُ إليه في اليوم أكثرَ مِنْ سبعين مرّة) (١٠)، ويؤكِّدُ لمَنْ حولَه أهمّيةَ الاستغفار وفوائدَه: (مَنْ لزمَ الاستغفارَ جعلَ الله لهُ مِنْ كلّ همٍّ فرجاً، ومِن كلّ ضيقٍ مَخرجاً، ورزَقَه مِن حيث لا يَحتسب) (١١).

ويجْأرُ إلى الله تعالى قائلاً: (اللهمَّ اغفرْ ذنبي كلَّه، دِقَّهُ وجِلَّه، أوَّلَه وآخرَه، سرَّه وعَلانيتَه) (١٢)، ويستعيذُ به منْ صفات لا تليق بالإنسان الخليفة حاملِ الأمانة: (اللهمَّ إنّي أعوذُ بكَ منَ الهمِّ والحزَن، والعجزِ والكسلِ، والبُخلِ والجُبنِ، وضَلَعِ الدَّين وغَلَبَةِ الرجال) (١٣)، وأيضاً: (اللهمَّ إنّي أعوذُ بك منَ الشّقاقِ والنِّفاقِ وسوءِ الأخلاق) (١٤).

ويتابعُ دعاءَهُ ربَّهُ، الدّالَّ على عبوديته، ليسألَه أجملَ الصِّفات وأحلاها: (اللهمَّ إنّي أسألكَ الهُدَى والتّقى والعفافَ والغنى) (١٥).

وفي خاتمة هذا المطاف:

سَيِّدي رسولَ الله. عبدتَ ربَّك حتَّى أتاكَ اليقينُ، وسبَّحتَه وكنتَ منَ السَّاجدين، وسألتَه فكنتَ أعبدَ السَّائلين، وأجابكَ فكانَ لك خيرَ الملبِّين.

فهلْ عسانا نُذكر على لسانك مَشفوعاً لنا أجمعين، يومَ تقفُ أمام أرحم الراحمين، وهو يقولُ لك: (سنُرضيكَ في أمَّتك ولا نسوؤك) (١٦).

فالصَّلاة عليك والسَّلام، إلى آخر الأوقات ونهايات الأيَّام.

يا سَيِّد الأنام.

محمود

الهوامش

---

(١) السيوطي في الدر المنثور: عند تفسير الآية، عن ابن مردويه والديلمي وغيرهما.

(٢) متفق عليه. البخاري: ك/الرقاق، ح/٦١٠١. مسلم: ك/صلاة المسافرين، ح/٧٨٣.

(٣) أخرجه أبو داود: ك/الأدب، ح/٤٩٨٥. وأحمد: ح/٢٢٩٨٢، ج ٥١٩/١٦.

(٤) أخرجه النسائي: ك/عشرة النساء، ح/٣٩٥٠. وأحمد: ح/١٢٢٩٥، ج ٢٥٦/٤.

(٥) أخرجه البخاري: ك/التفسير، ح/٤٥٥٧.

(٦) مجمع الزوائد: عن الطبراني في الثلاثة، ج ٤٨٣/٢.

(٧) أخرجه مسلم ك/صلاة المسافرين، ح/٧١٩. وابن ماجه: ك/إقامة الصلاة، ح/١٣٨١.

(٨) أخرجه الترمذي بلفظ (من صلى الضحى اثنتي عشرة ركعة بنى الله له قصراً في الجنة): ك/الصلاة، ح/٤٧٣.

(٩) مجموع حديثين أخرجهما الترمذي: ك/فضائل القرآن، ح/٢٩٢٠. وك/الدعوات، ح/٣٤٠٤.

(١٠) أخرجه البخاري: ك/الدعوات، ح/٥٩٤٨.

(١١) أخرجه أبو داود: ك/الصلاة، ح/١٥١٨. وابن ماجه: ك/الأدب، ح/٣٨١٩.

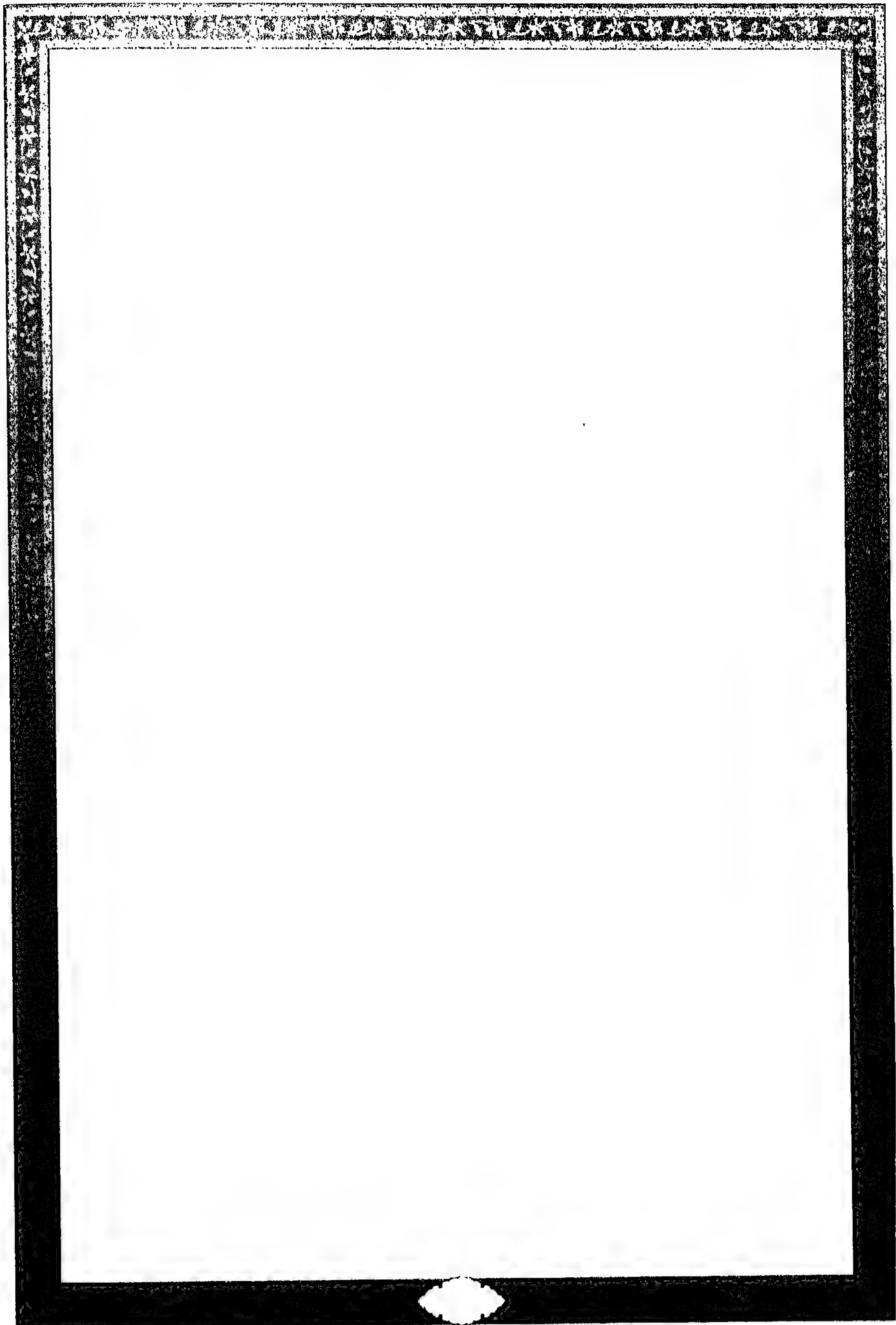
(١٢) أخرجه مسلم: ك/الصلاة، ح/٤٨٣.

(١٣) أخرجه أبو داود: ك/الصلاة، ح/١٥٥٥. والترمذي: ك/الدعوات، ح/٣٤٨٤.

(١٤) أخرجه أبو داود: ك/الصلاة، ح/١٥٤٦. والنسائي: ك/الاستعاذة، ح/٥٤٨٦.

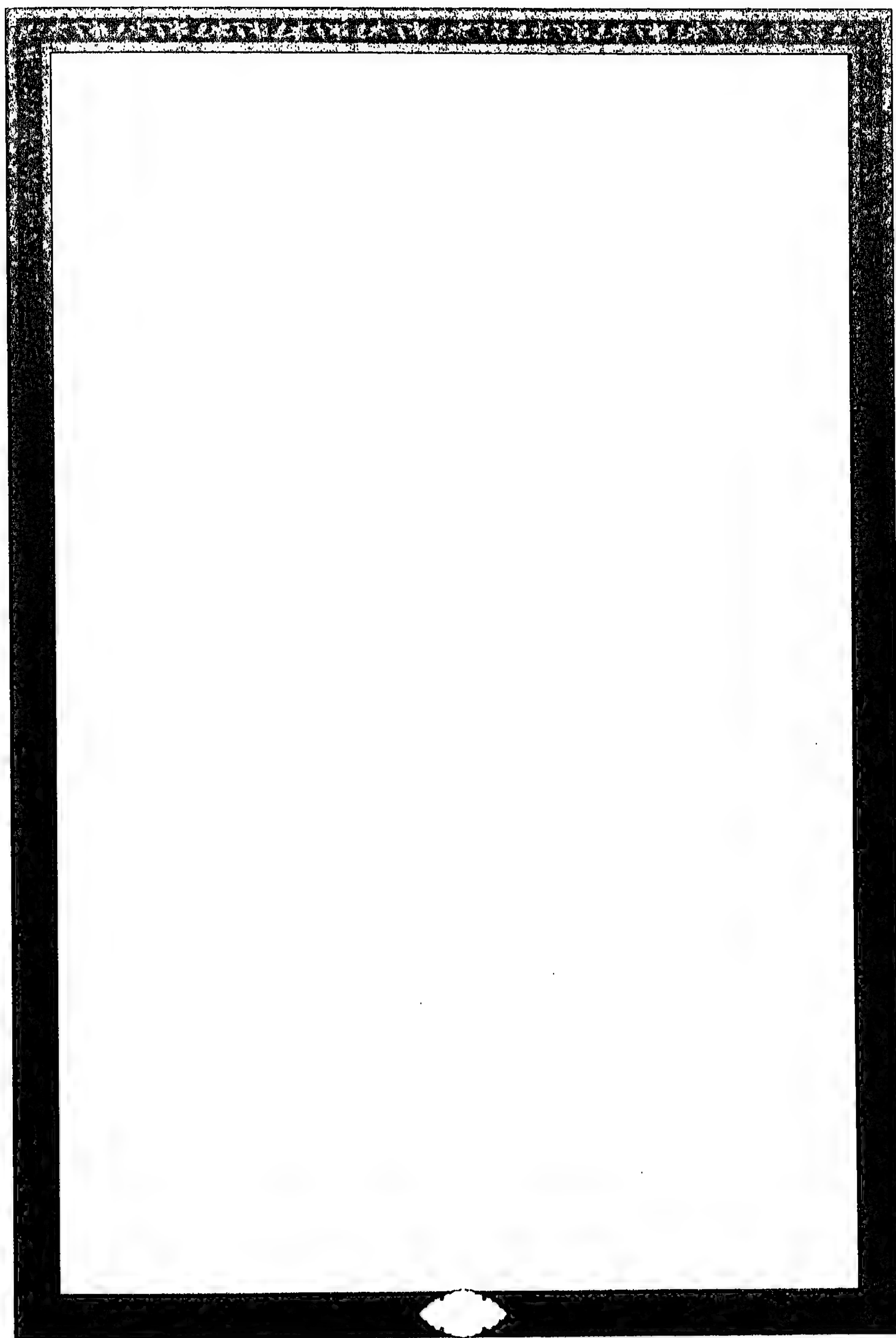
(١٥) أخرجه مسلم: ك/الذكر والدعاء، ح/٢٧٢١.

(١٦) أخرجه مسلم: ك/الإيمان، ح/٢٠٢.



الرسالة الرابعة

مُقَابَلَةٌ وَمُعَاهَدَةٌ



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأفْترشُ الجفونَ وأنا أتقدّم بين يدي سَيِّد أهل النُّهى وقرّة العيون، لأسألَه السؤالَ الشائعَ المشهور:

«مَنْ أنت» ؟ يا أيُّها البَلْسم الشافي لجراحاتِ الأيَّام، وإصابات السنين، فمنك الجوابُ يحلو، وينسابُ في عمْق القلوب والصدور، وعنكَ الحديثُ يجلو كلَّ آلام النفوس وتوجُّعات الحياة وآهات الشُّجون.

ونبدأ اللقاءَ عنك منك كلاماً، هو في كتاب الله آيٌ مِنَ الذِّكر المبين، ثمَّ نردفُه بما أفصحتَ عنه، فكان وحياً غير متلوٍّ، اسمه الحديثُ النبوي الشريف الثمين.

فها نحن سيّدي مُنصتون، وإلى جَنَابك مُصيخون، تتلو علينا مِنَ التَّنزيلِ الحكيم فـ «بسم الله الرحمن الرحيم»:

﴿قُلْ يا أيُّها النَّاسُ إنِّي رسولُ اللهِ إليْكُمْ جَميعاً﴾ الأعراف/١٥٨.

﴿قُلْ إنَّما أنَا مُنْذرٌ ومَا مِنْ إلهٍ إلا اللهُ الوَاحدُ القهَّارُ﴾ ص/٦٥.

﴿قُلْ يا أيُّها النَّاسُ إنَّما أنَا لكُم نذيرٌ مُبينٌ﴾ الحج/٤٩.

﴿قُلْ إنَّما أنا بشرٌ مثلُكم يُوحَى إليَّ أنَّما إلهكُم إلهٌ واحدٌ﴾ فصلت/٦.

﴿إنْ أتَّبعُ إلا ما يُوحَى إليَّ ومَا أنا إلا نذيرٌ مُبينٌ﴾ الأحقاف/٩.

﴿إنْ أنا إلا نذيرٌ وبشيرٌ لقومٍ يؤمنون﴾ الأعراف/١٨٨.

وبعدَها فلنستمعْ إلى حديثٍ نسجتْ حروفَه، فكان وشاحاً على صَدْرِ الزمن، يُطمئن أهلَه إلى مصداقية مضمونه، إذ اصطبغَ بثقةٍ تعتمدُ على المرسِلِ الفعَّال المطلَق، الخالق القهَّار، المعطي العليم الحكيم.

(أنا مُحَمَّدُ بنُ عبْدِ الله بنِ عبد المطّلب. إنَّ اللهَ خلقَ الخلقَ فجعلَني مِنْ خيْرَةِ خلْقه، وجعلَهم فرقتين فجعلَني في خير فرقة، وخلقَ القبائلَ فجعلَني في خير قبيلة، وجعلَهم بيوتاً فجعلَني في خيرهم بيتاً، فأنا خيرُكُم بيتاً وخيركم نفْساً) (١).

وإني لمطأطِئٌ رأسيَ استحياءً منك يا سَيِّدي أقول: طبتَ نسَباً.

وها أنتَ تقول أيضاً:

(أنا مُحَمَّدٌ، وأنا أحمَدُ، وأنا الماحي؛ يمحُو اللهُ بيَ الكفرَ، وأنا الحاشرُ؛ الذي يُحشَر النَّاسُ على قدَمي، وأنا العاقبُ؛ والعاقبُ الذي ليسَ بعدَه نبيٌّ) (٢).

وإني لممتلئٌ بك إيماناً أقول: صدقتَ قولاً.

وما أروعك إذ تُعبِّر فتنادي:

(أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدمَ يومَ القيامة، وأنا أولُ مَنْ ينشقُّ عنهُ القبرُ، وأنا أولُ شافعٍ وأولُ مُشفَّعٍ) (٣).

وإني لواثقٌ بك دائماً أقول: أقررتُ حبّاً، فامنحْني الشفاعةَ فضلاً.
ولله درٌّ عبارات صدرتْ عنك قلتَ فيها:
(أنا سَيِّد وَلَدِ آدمَ يومَ القيامة، وبيدي لواءُ الحمْدِ ولا فخْرَ، وما مِنْ نبيٍ يومئذٍ، آدمُ فمَنْ سواه، إلا تحتَ لوائي) (٤).
وإني لفخورٌ باتِّباعي وانقيادي لك أقول: عَلوتَ قدْراً.
وما أعظمَ مكانتَك إذ قلتَ:
(أنا أولُ مَنْ يُحرِّكُ حِلَقَ الجنَّة، فيُفَتح فأدخلَها، ويدخلها معي فقراءُ المؤمنين) (٥).
وإني لمشتاقٌ إلى مَعيَّتكَ، فضعْني مع الفقراء، ياسَيِّدَهم والأغنياءَ.
وما أعظمَ مكانتَك إذ ناديتَ:
(أنا أولُ النَّاس خروجاً إذا بُعثوا، وأنا خطيبُهم إذا وفَدوا، وأنا مبشِّرهم إذا يَئِسُوا، لواءُ الحمْد بيدي، وأنا أكرمُ وَلَدِ آدمَ علَى ربِّي ولا فخرَ. أنا إمام النَّبيّينَ وخطيبُهم وصاحبُ شفاعتهم) (٦).
وإني بلسان الشافعي أقول:

و ممَّا زادني شـرَفاً و عِزّاً ... و كِدْتُ بأخمصي أطأُ الثُّريَّا
دخولي تحتَ قولك يا عبَادي ... و أنْ صيَّرتَ أحمدَ لي نبيّاً

وها أنا أقفُ بين يديك أرجوكَ قبولَ عهدي ومعاهدتي، فأنتَ خيرُ إنسان يعَاهَد، بعد إذ كنت خيرَهم إذ عاهدتَ. فهلا تفضَّلتَ يا سَيِّدي

وقَبِلْتَ، فالعهدُ إليك، بعد ربِّك، أن نحملَ الإسلامَ عقيدةً في القلب، ودعوةً في اللسان، وسلوكاً في الجوارح والأفهام.

وعهداً إليك يارسول الله، أنْ نسعَى لحبِّ ما أحببتَ، وفعلِ ما أمرتَ، وهجْرِ ما نهيتَ.

عهْداً إليك يا حبيبَ الله، أنْ نتَّخذَ سيرَتك منهاجاً، وأنْ نقتبسَ مِنْ نورك ضياءً.

عهداً إليك ياأيُّها المختار، أن نكونَ الأوفياءَ لشريعتك، القائمينَ عليها، الباذلينَ مِنْ أجلها كلَّ غالٍ ونفيس.

عهداً إليك يا خيرَ النَّاسِ، ياأكرمَ النَّاس، ياأصدقَ النَّاس، أنْ نَجِدَّ ليكونَ هَوَانا تَبَعاً لما جئتَ به، وأنْ يكون حبُّك أغلى الحبِّ، وأرفعَه وأرقاه وأحسنَه، وسلامٌ عليك في الأولين، وسلامٌ عليك في الآخرين، وسلامٌ عليك إلى يوم الدين.

محمود

الهوامش

(١) أخرجه أحمد: ح/١٧٨٨، ج ٤٤٩/١.

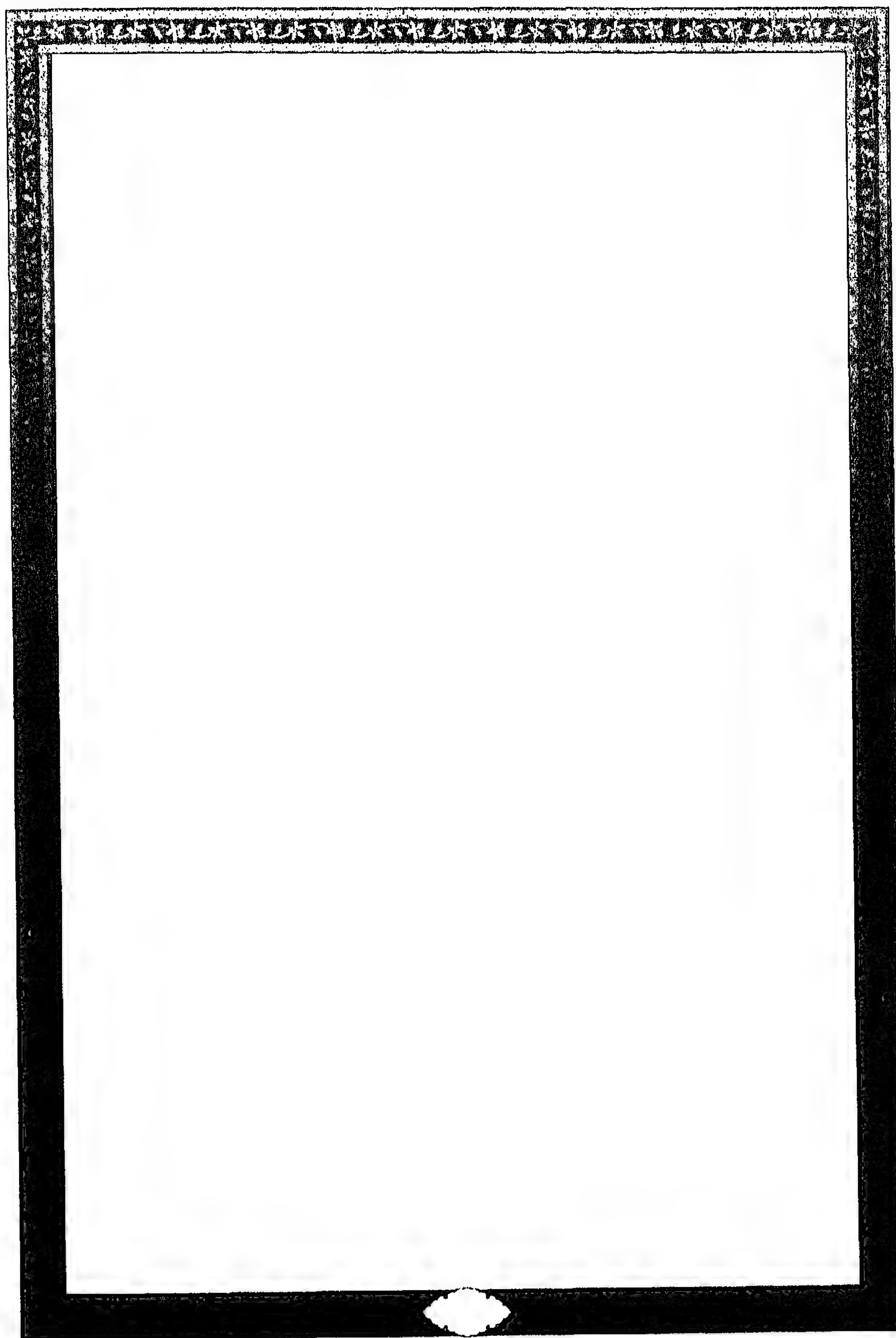
(٢) متفق عليه بألفاظ متقاربة. البخاري: ك/التفسير، ح/٤٦١٤. مسلم: ك/الفضائل، ح/٢٣٥٤.

(٣) أخرجه مسلم: ك/الفضائل، ح/٢٢٧٨.

(٤) أخرجه الترمذي: ك/المناقب، ح/٣٦١٥.

(٥) أخرجه الترمذي: ك/المناقب، ح/٣٦١٦.

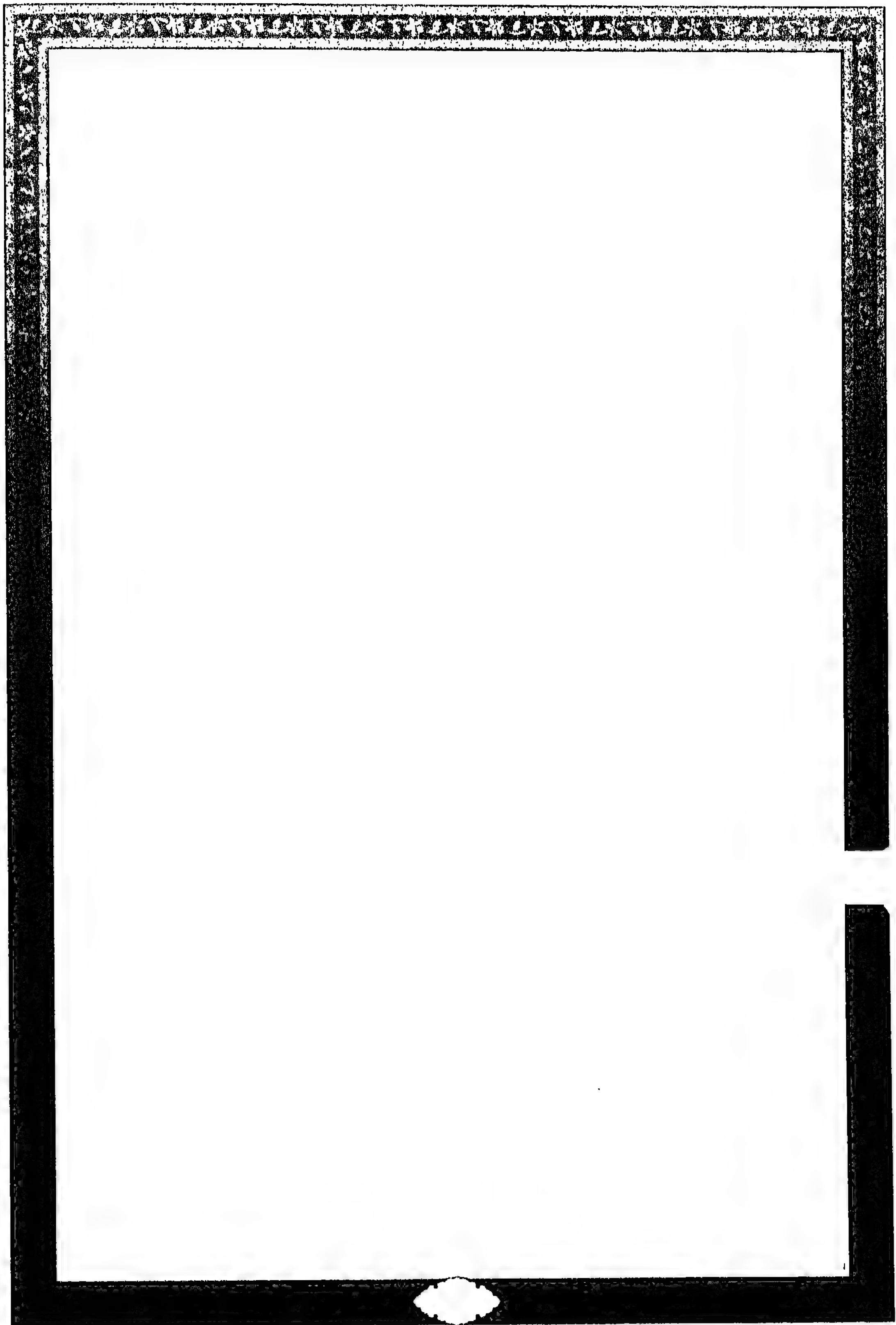
(٦) أخرجه الترمذي: ك/المناقب، ح/٣٦١٠.



الرسالة الخامسة

سيدي :

وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما



سَيِّدي رسولَ الله. على قَدْر التَّحمُّل يكون الأداءُ، وبحسْب الشهادة تكون المهمَّةُ، علَّمكَ ربُّك بفضلٍ عظيم، فكنتَ للبشرية رسولَها الكريم، وأيُّ النَّاس كانَ له هذا الاصطفاءُ، ومَن منهم تعلَّق به أزلاً هذا الاقتضاء.

فاقَ علمُكَ علمَ النَّاس، لأن المولى تولَّى تعليمَك، ورجحَ عقلُك عقولَهم، لأن الحكيمَ تدبَّر تكوينَك، وفي الحالين كانت لك خصوصيةُ المباشرة والملاحظة.

فُضْتَ بما لم يفض أحدٌ مِنَ النَّاس، وأيُّهم قادرٌ على أن يقولَ ما قلتَه؟ يوم روى عنك حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «لقد خطبَنا النَّبيُّ ﷺ خطبةً ما تركَ فيها شيئاً إلى قيام السَّاعة إلا ذكره، عَلِمَهُ مَن عَلِمَه وجَهِلَه مَن جَهِلَه. إنْ كنتُ لأرَى الشيءَ قد نسيتُه، فأراهُ فأذكرَه كما يذكرُ الرَّجلُ وجهَ الرَّجل إذا غابَ عنه ثمَّ إذا رآه عرَفَه» (1).

ويوم قال هو ذاتُه أيضاً: «واللهِ ما أدري أنسيَ أصحابُ رسول الله ﷺ

أم تناسَوا، واللهِ ما تركَ رسولُ الله ﷺ منْ قائدِ فتنةٍ إلى أنْ تنقضيَ الدُّنيا، يَبْلغُ مَن معه ثلاثمئةٍ فصاعداً، إلا سمَّاه لنا رسولُ الله باسمه واسم أبيه واسم قبيلته» (٢).

ولن ينسى التَّاريخُ، ذاكرةً ووعياً وسجلاتٍ وكتباً، أنك النَّبيُّ الخاتمُ، والمتلقِّي الأكملُ، والموحَى إليه الأكرمُ، شغلَ الأنبياءُ والمرسلون إخوانُك حلقاتِ البداية في سلسلة قيادة البشرية عَبْرَ الزمن، ووُكِلَ إليك أمرُ الحلقات الأخيرة فيها، ولئنْ كان لكلِّ نبي حلْقةٌ فإنَّ لك فيها أهمَّ الحلْقات.

ولقد توارثنا جيلاً بعد جيل ما حدَّثتَ به أصحابك، لتؤكد لهم قيادتَك لما بقي مِنْ حلْقات الزمن إلى يوم القيامة، واطِّلاعَك على مامضَى منها، فعن أبي زيد الأنصاري رضي الله عنه قال: «صلَّى بنا رسولُ الله ﷺ صلاةَ الصبح ثمَّ صَعِد المنبرَ، فخطبَنا حتَّى حَضَرت الظهرُ، ثمَّ نزلَ فصلَّى الظهرَ، ثمَّ صعِد المنبرَ فخطبَنا حتَّى حَضَرت العصرُ، ثمَّ نزل فصلَّى العصرَ، ثمَّ صعِد المنبرَ فخطبَنا حتَّى غابت الشمس، فحدَّثنا بما كان وبما هو كائنٌ، فأعلَمُنا أحفَظُنا» (٣).

وأكَّدتْ هذه روايةُ أبي سعيد الخدري رضي الله عنه حينما قال: «صلَّى بنا رسول الله ﷺ صلاةَ العصر، ثمَّ قام خطيباً بعد العصر إلى مغرب الشمس، حَفظَها مَن حفظها، ونسيَها مَن نسيها، وأخبرَ فيها بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة» (٤).

ويأتي التَّأكيد ثالثةً مِنَ المغيرة بن شعبة إذ يقول: «قامَ فينا رسولُ الله ﷺ مَقاماً، فأخبرَنا بما يكون في أمَّته إلى يوم القيامة، وَعَاهُ مَنْ وعاه،

ونسيَه مَن نسيه»[٥]، ورابعةٌ وخامسةٌ وسادسةٌ مِنْ أصحاب آخرين.

فيا سَيِّدي يا رسولَ الله. عُلِّمتَ كلَّ شيء، وحُفِّظتَ كلَّ أمر، ومُنحتَ ما لم يُمْنَحْهُ أحدٌ منَ البشر، أقنعتَ مَن حولك بذلك إذ حدَّثتَهم، ونبَّأتَ مَن بَعدك فسلَّموا إذ أُخبروا. فهل بعد هذا الفضل من فضل؟

لقد قالَ أبو ذرٍّ رضي الله عنه: «لقد تركَنا رسولُ الله ﷺ وما يحرِّكُ طائرٌ جناحيه في السَّماء إلا ذكرَ لنا منه علماً»[٦].

وفي الختام:

مَن أنكر إنَّما ينكرُ فهمَه، ومَن أثبتَ فإنَّما يُثبت عقلَه، وحسبُنا أن نرددَ: ﴿أمْ لَمْ يعْرِفُوا رسُولَهم فَهُمْ له منكرون﴾ المؤمنون/٦٩، ونؤكِّدَ: ﴿واللهُ يعلمُ إنَّك لَرسُولُه﴾ المنافقون/١، ونقفُ بإجلالٍ أمامَك يا حبيبَ الحقِّ وشاهدَ الخلقِ قائلين:

أنتَ أكبرُ مِنْ أنْ تضمَّ صفاتك صفحاتٌ، وتجمعَ مزاياكَ كتبٌ ومؤلفات، وأعظمُ مِن أنْ نضعكَ رأسَ صفحةِ القادة، وطُغَراءَ العظماء والسَّادة، ولئن كانت الأمةُ مساويةً لغيرك في معادلةٍ إنسانيةٍ فيها الخطأُ محتمَلٌ، فإنك، يا رسولَ الله، تفوقُ في التَّكوين والأسرار مجموعَ الأمم، عبر معادلة نقلية صحيحة: ﴿فكَيفَ إذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أمَّةٍ بشَهيدٍ وجِئنَا بكَ علَى هَؤلاءِ شَهيداً﴾ النساء/٤١.

وإنَّ فضلَ رَسُــولِ اللهِ ليسَ لهُ   حَدٌّ فَيُـعربَ عنهُ ناطــقٌ بفَمِ

زادكَ اللّهُ العلاَّم في كلِّ عوالمِ الحَال والمآل، وعلَّمكَ في كلِّ الأحوال، لأنَّك المتَرقِّي في سُلَّم الكمال، إلى أنْ يقال لكَ في مقام الثَّناء، حيث لا أحدَ إلا أنت:

﴿ولسوفَ يُعطيكَ ربُّكَ فتَرْضَى﴾ الضحى/٥ .

سلامٌ عليك، وسلامٌ على كل ذرَّة فيك، وسلام على نورك السَّاري، وجمالك الباهي، وجنابك السَّامي، إلى يوم الحساب والثواب، يا خيرَ القاصي والداني.

محمود

الهوامش

(١) أخرجه البخاري: ك/القدر، ح/٦٢٣٠.

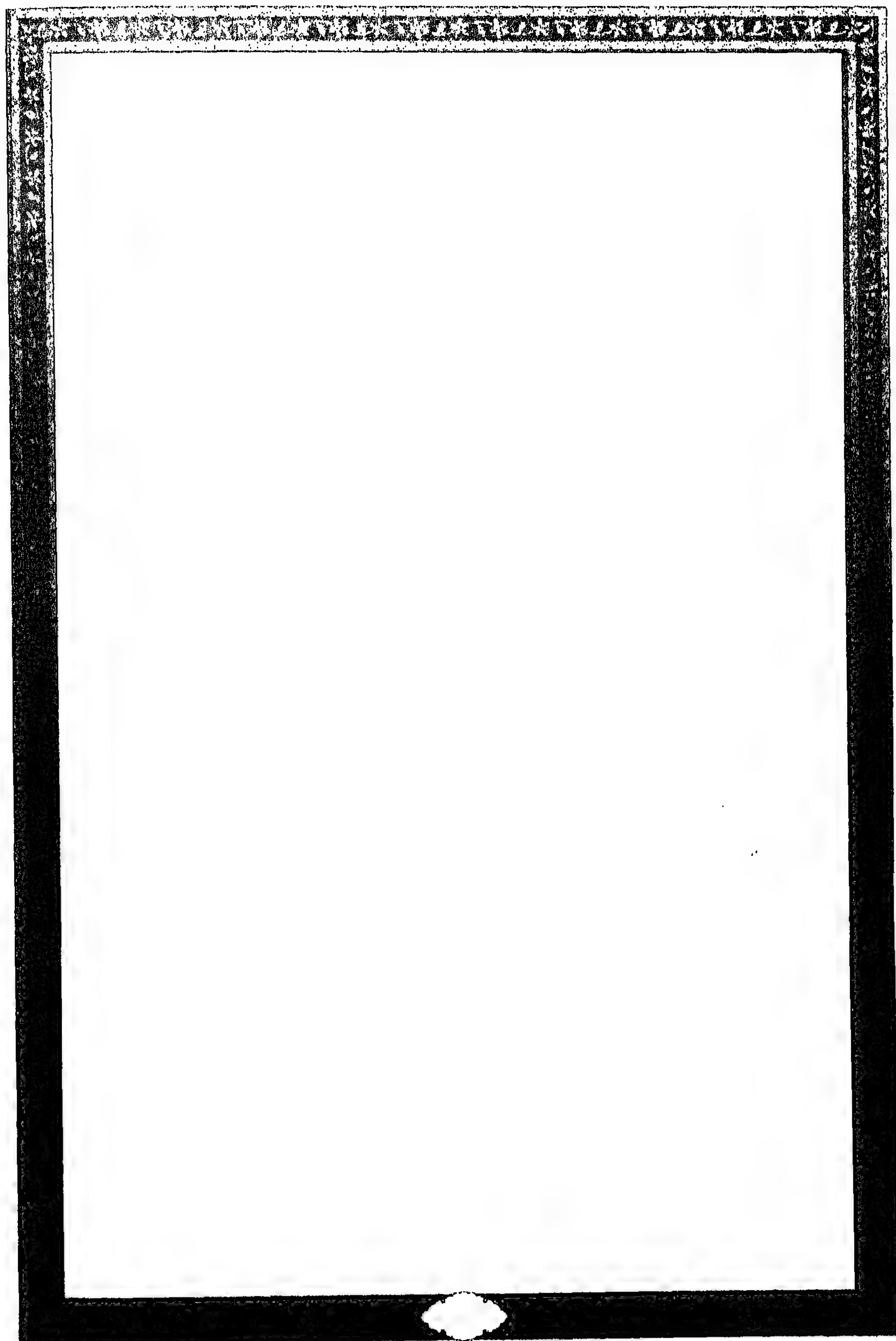
(٢) أخرجه أبو داود: ك/الفتن والملاحم، ح/٤٢٤٣.

(٣) أخرجه مسلم: ك/الفتن وأشراط الساعة، ح/٢٨٩٢.

(٤) أخرجه أحمد: ح/١١٥٢٤، ج ١٠/١٩١.

(٥) أخرجه أحمد: ح/١٨١٤٠، ج ١٤/١٠٨.

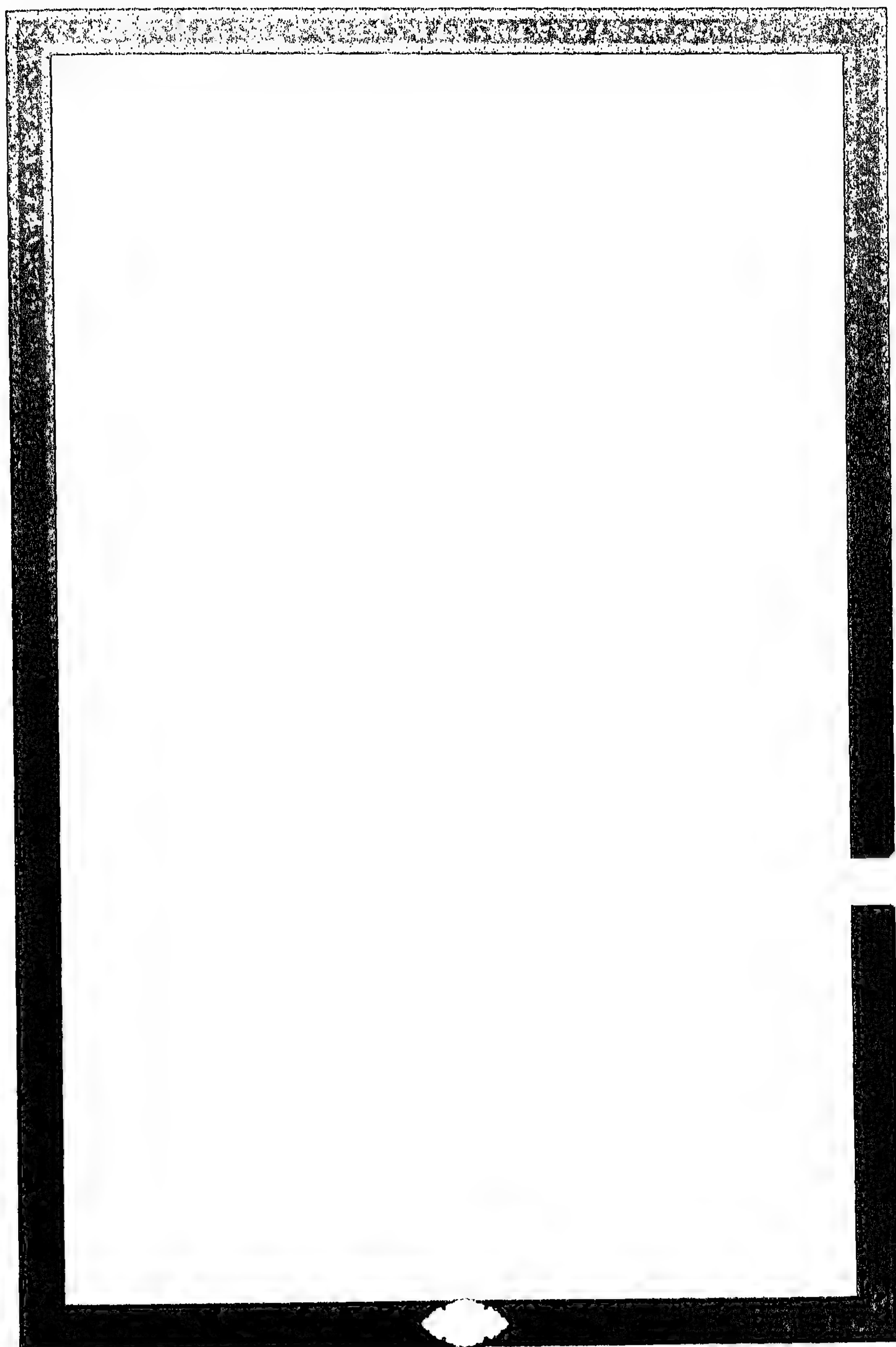
(٦) أخرجه أحمد: ح/٢١٢٥٨، ج ١٥/٥٠٣.



الرسالة السادسة

سيدي :

الله أعلم حيث يجعل رسالته



سَيِّدي رسولَ الله:

أنتَ محطُّ العنايةِ، ومجلَى الهداية، اصْطُفيتَ بعلمٍ، وأُرسلتَ بحكمة، ونُوديتَ لتُنادي، وبُلِّغتَ لتُبلِّغ. خُتمَتْ بك الرسالاتُ والنبوَّات، وغدتْ رسالتك خاتمةً باقية إلى يوم القيامة، وأضحَيْتَ بسيرتك الأسوةَ التَّامَّة.

فيا خيرَ مُرسَل وأكرمَ مُصطفَى. هذه بعضُ معالمك، إنْ قدَّمتُها اليوم، فمِن أجل رضىً أحوزه، وإن حدَّدتُ شيئاً مِن نورك، فلأنَي أسعَى إلى الاستهداء بقَبَسك، وأجِدُّ في فتح عيني إلى بعض إشعاعك.

سَيِّدي رسولَ الله:

اقْبَلْ مناجاتي إذ أنسجُ حروفَها حولَ النسب المعطَّر والسبب المطهَّر، والحمايةِ الإلهية والعناية الربانية، والطبِّ الشافي والحبِّ الصافي، والظاهرِ المجمَّل والباطن المكمَّل، والبصرِ النافذ والبصيرة المنوَّرة. وكلُّ ذلك مِنْ خلال حديثك وبعض كلماتك.

فأمّا نَسَبُكَ المُعَطَّر:

فقد قلتَ: (إنَّ اللهَ اصطفَى مِنْ ولد إبراهيمَ إسماعيلَ، واصطفَى مِن بني إسماعيلَ بني كنانةَ، واصطفَى مِن بني كنانة قريشاً، واصطفَى مِن بني قريش بني هاشم، واصطفاني مِن بني هاشم) [1].

فهل بعد هذا مِن عطر، وهل بعد هذا العَبَق مِنْ رائحةٍ تستطيع الظهور؟ إلا إذا سمح لها عطرُك الأصيل وأريجُك النَّبيل.

وأمّا السَّببُ المطهَّر:

فليتَ شِعري إنْ كنتُ أقدرُ على رسْم ما صدرَ عنك، إذ تُحدِّث به عن ذاتك وصفاتك، لكني سأرصد، كمن يفتح النوافذَ لضياء الشمس، وينعش كلَّ المساحات والمسافات.

لقد قلت يا سيِّدي: (أنا مُحَمَّدٌ، وأنا أحمَدُ، وأنا الماحي؛ يمحُو اللهُ بيَ الكفرَ، وأنا الحاشرُ؛ الذي يُحشَرُ النَّاسُ على قدَمي، وأنا العاقبُ؛ والعاقبُ الذي ليسَ بعدَه نبيٌّ) [2].

نعمْ. أنت سماءٌ ما طاولَتْها سماء، وأنت بشرٌ ولستَ كالبشر، بل أنت ياقوتةٌ والنَّاس كالحجر.

وأمّا الحمايةُ الإلهيَّة:

فليستْ خافيةً على ذي عينين، أوشِبْهِهما. صَمَّم ألدُّ الأعداء النيلَ منك، فعاد مذعوراً خائفاً: «لئنْ رأيتُه يصلِّي - وهكذا قالَ أبو جهل -

لأطأنَّ على رقبته، أولأعفِّرنَّ وجهَه بالتُّراب». وأتى رسولَ الله ﷺ وهو يصلِّي ليطأ على رقبته، فما فَجَأهم منه إلا وهو ينكفىءُ على عَقِبَيه. فقال ﷺ: (لو دنَا مني لاختطفته الملائكةُ عضواً عضواً) [٣].

وإذا حمَى اللهُ عبداً باءتْ محاولاتُ كلِّ المعتدين بالفشل، وذهبتْ بوائقُهم لتعودَ بأشدَّ عليهم، ولن يجعلَ اللهُ للكافرين على المؤمنين سبيلاً.

وأمَّا العنايَةُ الربَّانية:

فتتجلَّى في تجنيد كلِّ المخلوقات، وتسخير الله لمحلِّ العناية قدرتَه، فبالله يَمشي، وبالله يَحكي، وبالله ينطق، وبالله يُقنع، وبالله يُعطي، وبالله يَمنع. يروي ابن مسعود رضي الله عنه فيقول: «كنا نسمعُ تسبيحَ الطعام وهو يؤكل، في حالِ أكلنا مع رسول الله ﷺ» [٤].

ويصعد النَّبيُّ ﷺ «أُحُداً»، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فيرجُف أُحُدٌ، وإذْ بِمَنْ حفَّته العنايةُ الربَّانية، وشملَته المحبَّة الإلهية الخاصَّة، يقول لأُحد: (اثْبُتْ أُحد. فإنَّما عليك نبيٌّ وصدِّيق وشهيدان) [٥]، فيثبتُ، ولا يمكنُ ألاَّ يَثبتَ، لأنَّ الآمر يتكلَّم باسم الله، ويأمرُ وقد تجلَّى على لسانه اللهُ فغدا الحالُ: ﴿ولكنَّ اللهَ رمَى﴾ الأنفال/١٧.

سَيِّدي يا أبَا البَتول:

طبُّك شافٍ وحبُّك صَافٍ. لقد فتحَ اللهُ بك العيونَ والقلوبَ، وأجرَى على يديك ألطافَه، فكان بعضُ ريقك بلسماً، وشيءٌ مِن فمك عذبَ الشَّهْد،

إذا استلزمتْهُ لَمى الظامئين.

لن ينسى التَّاريخ لك موقفاً في خيبر إذ ناديتَ: (لأعطينَّ الرايةَ غداً رجلاً يفتحُ الله على يديه، يحبُّ اللهَ ورسولَه، ويحبُّه اللهُ ورسولُه). فلما أصبحَ النَّاسُ غدَوا على رسول الله ﷺ كلُّهم يرجو أنْ يُعْطاها. فقال: (أين علي بن أبي طالب؟). فقالوا: «في بيته يشتكي عينَيه». فقال: (أرسلوا إليه). فأتى، فبصَق في عينيه، فبَرِىء كأنْ لم يَكُن به وجع [٦].

وهاهو أبو هريرةَ يشكو إليك نسيانَه فيقول: «إنِّي أسمعُ منك حديثاً كثيراً فأنسَى، فأحبُّ ألاَّ أنسى». وإذ بك تقول له: (ابسطْ رداءَك)، فبسَطه، فقذفتَ بيدك الشريفةِ مِنَ الهواء في الرداء، ثمَّ قلتَ له: (ضُمَّه)، فضمّه، فقال أبو هريرة: «فما نسيتُ شيئاً بَعد» [٧].

فإنْ وقفتُ مسائلاً عن ظاهرك المجمَّل حدَّثني البراءُ بن عازب رضي الله عنه فقال يوم سُئل: «أكانَ وجهُ رسول الله ﷺ مثلَ السيف؟. فأجاب: لا. بل مثل القمر» [٨].

وحدّثني كعبُ بن مالك رضي الله عنه أيضاً، ليقول عنك سَيِّدي رسولَ الله ﷺ: «إذا سُرَّ استنارَ وجهُه كأنَّه قطعةُ قمر» [٩].

وها هو أنس بن مالك رضي الله عنه يقول، ويتحدَّى، وحُقَّ له ذلك: «ما شممتُ مِسكةً ولا عنبرةً أطيبَ مِن رائحة رسول الله ﷺ» [١٠].

وأمَّا الباطن المكمَّل:

فما أعظمَه، وما أكملَه، وما أشدَّ بهاءَه ونورَه وسناه، فلن أنسى ما

حدثتَنا به، يا أبا الزَّهراء، إذ قلتَ: (**بينما أنا في الحَطيم، إذ أتاني آتٍ، فشقَّ ما بين هذه وهذه، فاستخرجَ قلبي، ثمَّ أُتيتُ بطستٍ ملْءَ حكمةً وإيماناً، فغسلَ قلبي، ثمَّ حُشي ثمَّ أعيد**) [11].

لقد فديتُك نفسي، وأشبعتُ كلَّ جوارحي منْ بعض شعاعٍ صدرَ عن ثغرك، ويقظةٍ امتلأ بها قلبُك، فأنتَ صاحبُ القلب الأكمل من بني الإنسان:

(**يا عائشة. إنَّ عينيَّ تنامان، ولا ينام قلبي**) [12].

ياصاحب البصر النافذ، والبصيرةِ المنَّورة والمنِّورة، يامَن أُريتَ فضلاً لا يُعطاه أحد، فأنت الأول في الخلق قدْراً، وإن كنتَ آخر الأنبياء بَعْثاً، وأنت الخاتِم، وإليك تَنتسب كلُّ بداية لِتَشْرُفَ، فتفضَّل ياسَيِّدي وحدِّثنا عن بعض ما أُختصصتَ به، وإنَّا لكلِّ حرف منك واعون، ولكلِّ كلمة راعون، وهل تسمح ياسَيِّدي أن أنقل عنك الآن حديثاً أسَرَني، وكلاماً انصبَّ في رَوعي، فَهِمْتُ فيك مقدَّراً معظَّماً:

(**إنَّ الله زوَى ليَ الأرضَ، فرأيتُ مشارقَها ومغاربَها، وإنَّ أمتي سيبلغُ ملكُها ما زُويَ لي منها**) [13].

(**هل تَرون قبلتي ها هنا ؟ فوالله ما يَخفَى عليَّ ركوعُكم ولا سجودُكم، إنِّي لأراكم مِن وراءِ ظهري**) [14].

أيُّها الأكرمُ، أيُّها الرؤوف الرحيم بنا، أيُّها المختار، أيُّها الحريص علينا، أيُّها المجبولُ على الفضيلة، والفضيلةُ غَدَتْ بعضَك، أيُّها الرحمةُ المهداة: ما أرعاك للعهد وما أوفاك، أشرفتَ يوماً على أطم منْ آطام المدينة وقلتَ: (**هل تَرون ما أرى**). قالوا: لا . فقلت: (**فإنِّي لأرَى مواقعَ الفتن**

خلال بيوتِكم كمواقع القطْر) (١٥).

في آخر هذه الرسالة أردِّد قولَ الله العليِّ الأعلى فيك ياسَيِّدي: ﴿ اللهُ أعلمُ حيث يجعلُ رسالتَه ﴾ الأنعام/ ١٢٤، فنِعمَ مَن اختار، ونعمَ من اختير، ونعمَ المرسَل، وأكرِمْ بمَن أعطى، وطوبى لأفضل مَن أُعطي.

والسَّلام عليك في الأولين والآخرين، وفي يوم الدين.

محمود

الهوامش

(١) أخرجه الترمذي: ك/المناقب، ح/٣٦٠٥.

(٢) متفق عليه. البخاري: ك/التفسير، ح/٤٦١٤. مسلم: ك/الفضائل، ح/٢٣٥٤.

(٣) أخرجه مسلم: ك/صفة القيامة، ح/٢٧٩٧.

(٤) أخرجه البخاري: ك/المناقب، ح/٣٣٨٦.

(٥) أخرجه البخاري: ك/فضائل الصحابة، ح/٣٤٧٢.

(٦) متفق عليه. البخاري: ك/فضائل الصحابة، ح/٣٤٩٨. مسلم: ك/الفضائل، ح/٢٤٠٦.

(٧) أخرجه البخاري: ك/المناقب، ح/٣٤٤٨.

(٨) أخرجه البخاري: ك/المناقب، ح/٣٦٣٦.

(٩) متفق عليه. البخاري: ك/المناقب، ح/٣٣٦٣. مسلم: ك/التوبة، ح/٢٧٦٩.

(١٠) متفق عليه. البخاري: ك/الصوم، ح/١٨٧٢ بلفظ: (ولا عبيرة). مسلم: ك/الفضائل، ح/٢٣٣٠.

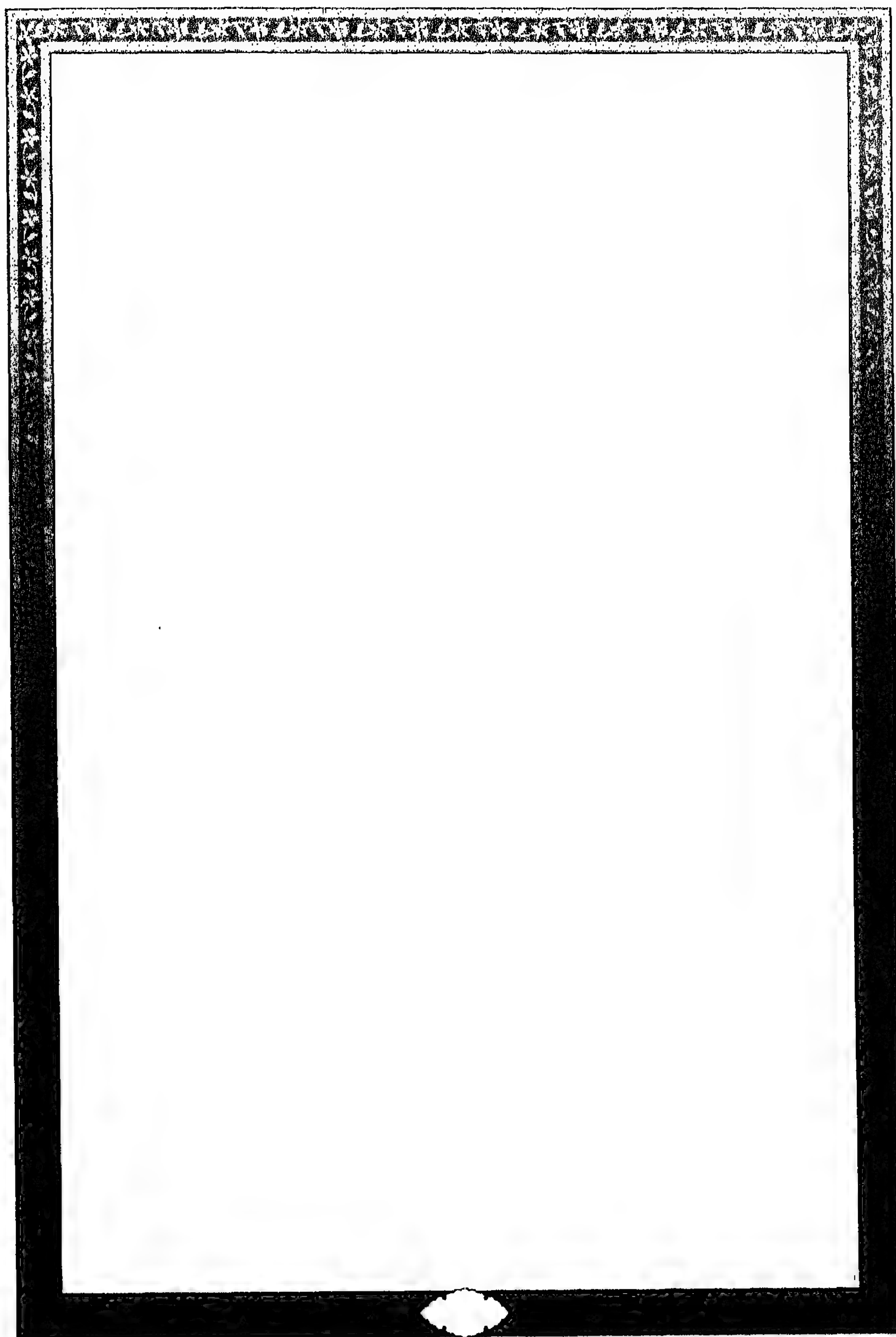
(١١) أخرجه البخاري: ك/فضائل الصحابة، ح/٣٦٧٤.

(١٢) متفق عليه. البخاري: ك/صلاة التراويح، ح/١٩٠٩. مسلم: ك/صلاة المسافرين، ح/٧٣٨.

(١٣) أخرجه مسلم: ك/الفتن، ح/٢٨٨٩.

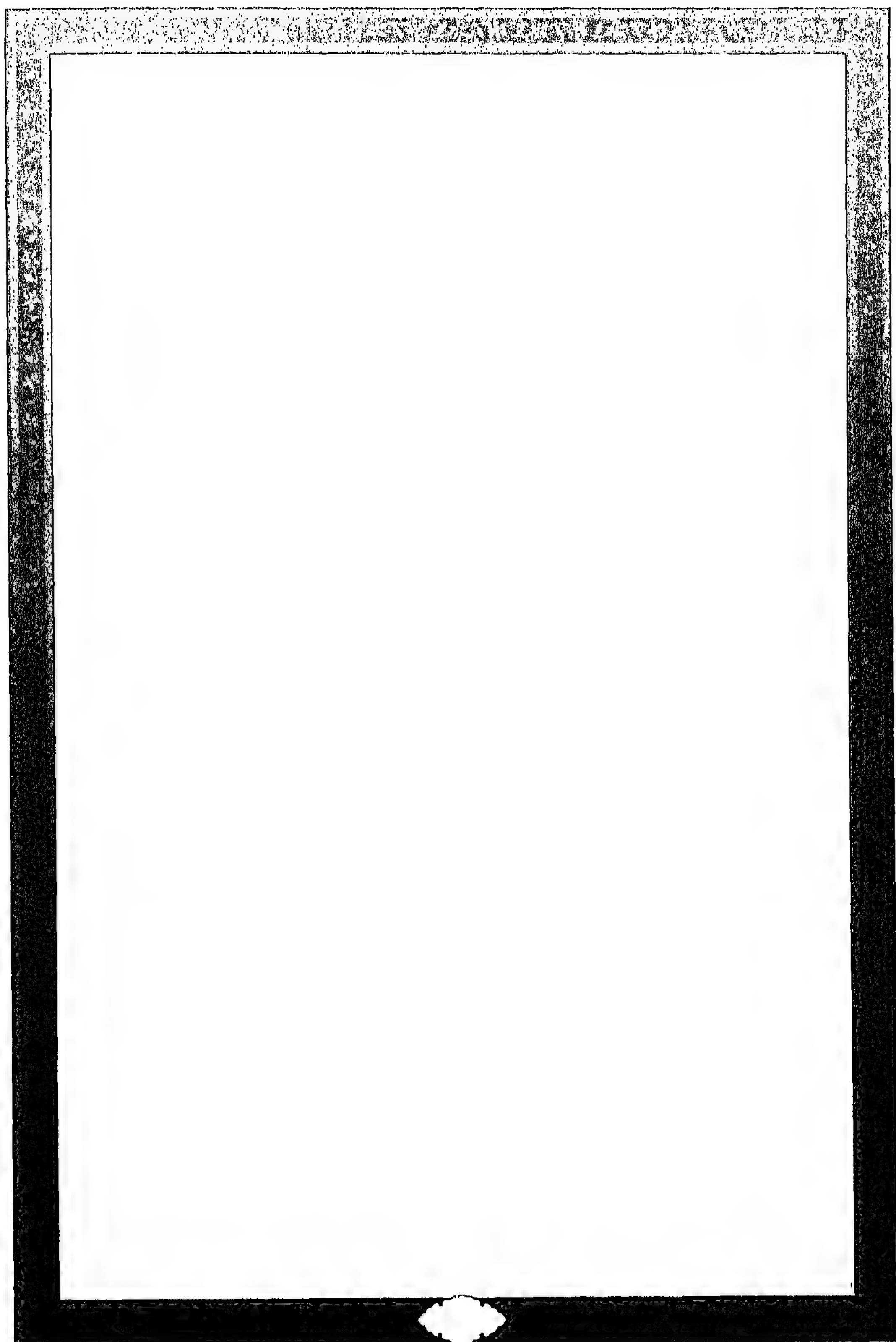
(١٤) متفق عليه. البخاري: ك/صفة الصلاة، ح/٧٠٨. مسلم واللفظ له: ك/الصلاة، ح/٤٢٤.

(١٥) متفق عليه. البخاري: ك/فضائل المدينة، ح/١٧٧٩. مسلم: ك/الفتن، ح/٢٨٨٥.



الرسالة السابعة

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب



ياأيُّها الصَّادق المصدُوق، أنت حقٌّ في نبوَّتك، حقٌّ في رسالتك، حقٌّ في كلِّك. حُزْتَ الخيرَ كلَّه، ونِلْتَ المجدَ أعلاه، وسبقتَ النَّاس جميعاً قُرباً إلى الله، فكنتَ الأولَ فيهم، وإذا كانتْ لدى كلِّ إنسان نقاطٌ عليا تمثِّلُ أهدافاً يسعى للوصول إليها، فإنَّما هي ضمن حدود التَّطلُّعات البشرية وما يمكن أن يصيبَه الإنسانُ الطموح الفاهم العاقل، لكننا إذ نذكرُ النقاط العليا لرسول الله ﷺ نراها خارجَ حدود القدرةِ والعبقرية والذكاء، فندرك حينها أنَّها لم تأتِ من مَحْض تفوُّقِه الإنساني وامتيازه البشري، ولكنها أتتْ نتيجةَ اصطفاءِ الحقِّ له رسولاً إلى يوم القيامة، وأسوةً حسنةً إلى يوم الدين.

وإلا فمَنْ من الطامحين يستطيع أن يضعَ في أعلى مشاريعِ طموحِه من الأقوال والأفعال كتلك التي صدرتْ عنه، ومن المديح كهذا الذي قيل فيه ؟

مَن الذي يجرؤ على أنْ يقول:

(أنا خيرُ أصحاب اليَمين، أنا خيرُ السَّابقين، أنا خيرُ ولَد آدمَ وأكرمُهم على اللهِ ولا فخر) [1] إلا هو ﷺ.

ومَن سواه يقدر على أنْ يُعلن ما أعلنَه حين قال: (أنا أكرمُ الأوَّلين والآخِرين ولا فخر) [2].

أخبريني أيَّتها الدُّنيا عن إنسان يمكن أنْ يقولَ متحدِّياً ومبيِّناً بقوة:

(أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدمَ يومَ القيامة، وأنا أوَّلُ مَن ينشقُّ عنه القبرُ، وأنا أوَّلُ شافع، وأوَّلُ مشفَّع) [3]. إنْ لم يكن مُحَمَّداً ﷺ.

مَن الذي يقْدرُ أنْ يقولَ سوى الحبيبِ الأعظم مُحَمَّدٍ ﷺ:

(هل تَرَون قِبلتي ها هنا، فَوَالله ما يخفَى عليَّ ركوعُكم ولا سجودكم. إنِّي لأراكم مِن وراء ظهري، إنِّي لأنْظرُ مِن ورائي كما أنظر إلى ما بين يدي؟!) [4].

مَن هذا الذي يفعلُ ما يفعلُه النَّبيُّ ﷺ إذ تنامُ عيناه ولا ينامُ قلبه، كما أخبرَ هو عليه الصَّلاة والسَّلام عن نفسه:

(تنام عينيَّ ولا ينامُ قلبي) ؟! [5].

مَن الذي يستطيع أن يتحدَّث عن حاله في البرزخ وما سيجري له، إلا المصطفى الحق ﷺ إذ قال:

(إنَّ الله وكَّل بقبري ملَكاً أعطاه الله أسماع الخلائق فلا يصلي عليَّ أحدٌ إلى يوم القيامة إلا أبلغني باسمه واسم أبيه، هذا فلان بن فلان قد صلَّى عليك) [6].

هذا بعضُ ما صدرَ عنه قولاً، وأمَّا مَا قيل عنه مدحاً وتقديراً فأَعْظِم بذلك وأكْبِر !

لقد كان محلَّ تعظيمٍ مِن قِبَل الخالق العظيم جلَّ شأنه إذ قال عنه، بل له: ﴿ وإنَّك لعلَى خُلُق عظيم ﴾ القلم/٤.

كما كان موضعَ رفْعِ ذكرٍ رفيعٍ فريد مِنْ قِبَل الرافع المطلَق الجليل عزَّ شأنه إذ خاطبَه: ﴿ ورفعْنا لك ذِكْرَك ﴾ الشرح/٤.

وبعدَها حدِّثْ عن الملائكة يوم مدحَته وقالت في حقِّه ما قالت، فها هو ملَك الوحي وصاحبُه جبريلُ عليه السَّلام يعلن ويقول: (قلَّبتُ مشارق الأرض ومغاربَها فلم أرَ رجلاً أفضلَ مِن مُحَمَّد، ولم أرَ بني أبٍ أفضلَ مِن بني هاشم) (٧).

ثمَّ يُتابع في موقف آخر ليخاطبَ البُراق ليلةَ الإسراء وقد استصعبَ على مُحَمَّد ﷺ: (بمُحَمَّد تفعلُ هذا! فما ركبَكَ قطّ أحدٌ أكرمُ على الله منه. فارفضَّ البُراقُ عرَقاً) (٨).

ثمَّ لِجّ غِمارَ الأقوال المادحةِ له، والصادرةِ عن مختارين في عالم الإنسان، لنقفَ على مدحٍ لا يمكن أن يكون لغير المصطفى المجتَبى رسولِ الله مُحَمَّدٍ ﷺ.

فمَن الذي يمكن أن يُقال له مِنْ قِبَل عقلاءَ فاهمين كما قيل لرسول الله ﷺ ؟ والأقوال في هذا جدُّ وفيرة.

ومَن الذي مدحه أعداؤه والبعيدون عنه رغماً عنهم كالنَّبيِّ ابنِ عبد الله مُحَمَّد ﷺ ؟!

مَن الذي حَظيَ بمساحةِ مديح متنوعةِ المصادر والمشارب كالنَّبيّ مُحَمَّد ﷺ ؟!

وأمَّا ما صدر عنه فعلاً، فاسأل التَّاريخَ عن نِتاجه، والدُّنيا عن ثماره...

لقد خاض على مستوى الحرب ستاً وعشرين معركةً، في فترة زمنية قياسية، تقدَّر بعشر سنواتٍ تقريباً، وأرسل خمساً وأربعين سَريةً في السِّياق الزمني نفسِه.

وأمَّا ما يخُصُّ مستوى السَّلام والسِّلم فلقد أصَّل وطبَّق قواعدَ الحنيفية السمحة في ميدان الحياةِ الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فكانت تجربةً ناجحة رائدة على مستوى الإنسان والواقع، وحركةً تقبل التَّعميم في الحياة كلِّها زماناً ومكاناً مُتَّسِعَيْن لكل إنسان ولكل النَّاس، وليس الكلام خبراً عن قصة جرتْ، إنما الشواهدُ باقيةٌ والأصول شاهدةٌ على صحة ما قلنا وذكرنا.

لقد نادى رسول الله صراحة، وأعلن جَهرةً أنَّه رسولُ الله، وأنه يُوحى إليه منَ الله بثقةٍ لا يُعرف لها نظيرٌ، وباقتدار لا يُعْهَد له مثيل:

(ما منَ الأنبياءِ نبيٌ إلا أُوتيَ منَ الآيات ما مثلُه آمنَ عليه البشرُ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرَهم تابعاً يوم القيامة) (٩).

هل عهدتم كهذا التَّصريح وذاك الإعلان ! أم هل رأيتم مَن يعبِّر مثلَ هذا التَّعبير الذي ينُمُّ عن وصفٍ لرباط المرسَلين، وصلةِ الأنبياء والموحَى إليهم !

وأخيراً. أين مَنْ نُقل عنه بأنَّه انشقَّ القمر دعماً له، إلا رسولَ الله، وقد أشهدَ النَّاسَ على هذا. يروي البخاري:

انشقَّ القمرُ على عهد رسول الله ﷺ فرقتين، فرقةٌ على الجبل وفرقةٌ دونه. فقال النَّبيُّ ﷺ: (اشهدوا) (١٠).

وأين مَن حرَّك الجماداتِ بعون الله، لتتَّصلَ مع الإنسان ضمن قنوات سُنن الإنسان. يروي البخاري أيضاً عن ابن مسعود أنه قال: «كنَّا نسمعُ تسبيحَ الطعام وهو يؤكل في حال أكلنا مع رسول الله ﷺ» ؟! (١١).

أين ذاك السَّاري كإسراء الرَّسول العظيم مُحَمَّد ﷺ، وأين مَن عرجَ كعروجه ؟!

أين مَن قدَّم للناس كتاباً قال عنه إنَّه مِن عند الله، وكان صادقاً، فبقي الكتاب واستمرَّ وانتشر، ولا تزال الأيَّامُ حافلةً بانتشاره وامتداده.

مِن أيِّ جهة أتيتَه وجدتَه رسولَ الله الصادقَ الأمين، فاجْهدْ مِن أجل أن تكونَ مِن أتباعه الأوفياء، مؤتسياً بمَن قبلك كذلك، ولا تتجه، في الوصول إلى الله، إلى سواه، فهو بابُ الله، وهو رسولُه حقاً وصدقاً وعدلاً.

محمود

الهوامش

(١) أخرجه الطبراني: في الكبير، ح/١٢٦٠٥.

(٢) أخرجه الترمذي: ك/المناقب، ح/٣٦١٦.

(٣) أخرجه مسلم: ك/الفضائل، ح/٢٢٧٨.

(٤) متفق عليه. البخاري: ك/صفة الصلاة، ح/٨٠٧. مسلم: ك/الصلاة، ح/٤٢٤.

(٥) متفق عليه. البخاري: ك/صلاة التراويح، ح/١٩٠٩. مسلم: ك/صلاة المسافرين، ح/٧٣٨.

(٦) أخرجه البزار، والطبراني، عن عمار بن ياسر. الترغيب والترهيب ج ٢/٤٩٦.

(٧) مجمع الزوائد: ح/١٣٨٢٩، ج ٨/٣٩٩.

(٨) أخرجه الترمذي: ك/تفسير القرآن، ح/٣١٢١.

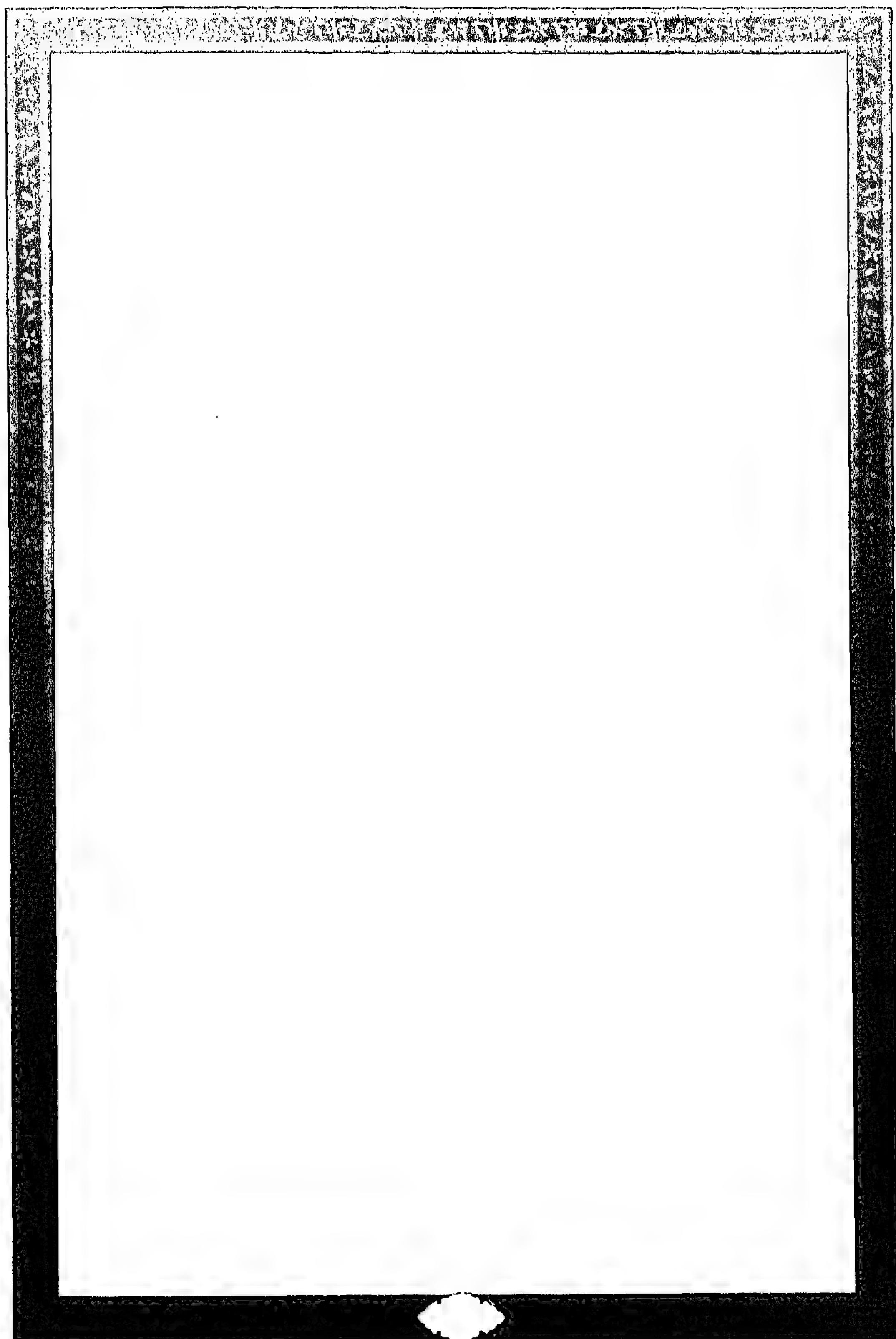
(٩) متفق عليه. البخاري: ك/الاعتصام بالكتاب، ح/٦٨٤٦. مسلم: ك/الإيمان، ح/١٥٢.

(١٠) أخرجه البخاري: ك/تفسير القرآن ح/٤٥٨٣.

(١١) أخرجه البخاري: ك/المناقب، ح/٣٣٨٦.

الرسالة الثامنة

قالوا عنك يا سيدي يا رسول الله



سَيِّدي رسولَ الله. أنتَ صاحبُ الفضلِ على الدُّنيا بعد الله، بل أنتَ الذي أُعطيتَ فضلاً لا يُتاح لمرسَل، والله يعطي الفضلَ كيف ولِمَن يشاء.

لقد شهدَ لك بالفضل الكبيرِ مَن سبقكَ مِن الأنبياء إذ بشَّروا أقوامَهم بك، وكذلك الملائكةُ في الملأ الأعلى، وتتابع الشاهدون والشهداءُ والمقرَّون فكانوا التَّابعين، ولحقَهم مَن بعدهم مِن المؤمنين إلى يوم الدين، فكلُّهم يرفع هامتَه، ويُعلي كلمته وهو ينادي:

لا إلهَ إلا اللهُ مُحَمَّدٌ رسولُ اللهِ

فيا سيِّد الخلقِ ويارسولَ الحقِّ، اسمحْ لي هنا أن أنقلَ شهادةَ أناس لم يُسلم ظاهرهم، وكانَ لهم دورٌ، بل أدوار، في أممهم وبلادهم وشعوبهم في ميادين الحياة المختلفة، ومجالاتها المتنوعة. فهل أبدأ ياصاحب السِّيادة في الدُّنيا والآخرة على النَّاس كل النَّاس.

يقول راسل، أكبر فلاسفة بريطانيا، والحاصل على جائزة «نوبل»

عام ١٩٥٠: «إن مُحَمَّداً نبيَّ المسلمين إنما جاءَ للبشر جميعاً، فكيف يُهين إنسان إنساناً قبله جاءَ للبشر والإنسانية يهديهم إلى السَّلام ؟ لقد قرأت عن الإسلام ونبي الإسلام فوجدت أنَّه دينٌ جاء ليصبح دينَ العالم والإنسانية، فالتّعاليم التي جاء بها مُحَمَّدٌ والتي حفل بها كتابه مازلنا نبحث عنها ونتعلّق بذرات منها، وتُنال أعلى الجوائز مِنْ أجلها، وكان مُحَمَّدٌ بتعاليمه وكتابه أحقَّ بكل الجوائز، لأنَّه لم يسبق إلى ذلك».

فما أعظمك يا سيِّد الخلق وما أرفع شأنك ؟ وما أشدَّ اتساع آثارك الحميدة الطيبة.

ويقول توماس كارليل، الإنكليزي المعروف، في كتابه الأبطال:

«لم يكن رسولُ الإسلام مِنْ محبي الشهرة، ولم يكن في فؤاد ذلك النَّبيِّ العظيم أي طموح دنيوي، ولو كان يريد ذلك لركنَ إلى أقوال الذين ساوموه على ذلك، ولكنه أقسمَ أنَّهم لو وضعوا الشمس في يمينه والقمرَ في يساره على أن يترك هذا الأمر ماتركه، فأيُّ رجلٍ هذا ؟ وأيُّ نبيٍ كريم هذا الذي واجه أعداءَ رسالته مِن أقرب النَّاس إليه ! ومع ذلك استمرَّ يُقنع الجميع بالحجَّة التي أعطاها الله له».

ويقول: «لقد أصبحَ مِن أكبر العار علينا، وعلى أي فردٍ متمدّن مِن أبناء هذا العصر، أنْ يُصغي إلى تلك الاتهامات التي وُجِّهت إلى الإسلام ونبيِّه مُحَمَّد، وواجبُنا أنْ نحاربَ مايُشاع مِن مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فإنَّ الرسالة التي أدَّاها مُحَمَّد الرَّسول مازالت السراج المنير».

حقاً يا خير الخلق، أنت السراجُ المنير، وحملتَ إلينا سراجاً منيراً،

فأصبحت المعادلةُ نوراً على نور: ﴿ قدْ جاءكم منَ اللهِ نورٌ وكتابٌ مبينٌ يهدي به اللهُ مَن اتَّبعَ رضوانَه سُبُلَ السَّلام ﴾ المائدة/١٦.

ويقول الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسّو: «لم يعرف العالَم اليوم رجلاً استطاع أن يحوِّل القلوب والعقول مِن عبادة الأصنام إلى عبادة الإله الواحد إلا مُحَمَّداً، ولو لم يكن قد بدأ حياتَه صادقاً أميناً ما صدَّقه أحدٌ، حتَّى أقرب النَّاس إليه، خاصة بعد أن جاءته السَّماء بالرسالة لنشرها على بني قومه الصِّلاب العقول والأفئدة، لكن السَّماءَ اختارته بعناية كي يحمل الرسالة، فشب متأملاً محباً للطبيعة».

إيِ واللهِ يارسول الله، صدقَ كلُّ مَن مدحك، ولم يَصدُق، وربِّ الكعبة، مَن اتهمك، فأنت النَّبيُّ الحقُّ، والرَّسول الحقُّ، وجئتنا بالحقِّ.

ويقول فولتير المؤرخ والأديب والفيلسوف الفرنسي المشهور: «السنن التي أتى بها مُحَمَّد كانت كلُّها – ماعدا تعدد الزوجات – قاهرةً للنفس ومهذِّبة لها. فجمالُ تلك الشريعة وبساطةُ قواعدها الأصليَّة جذبَا إلى الدين المُحَمَّدي أمماً كثيرة».

ويقول: «نريد أنْ نمحوَ هذه الأخطاء التي ارتكز عليها الكارهون للإسلام والتَّاريخ، فالذين يكذبون على التَّاريخ لا يستحقون أدنى احترام، والذين يسبُّون مُحَمَّداً لا يستحقون الحياة».

يا لَلروعة، يالَلعظمة ! اللهمَّ أرِنا مجتمعَ الاعتراف بالفضل، وعندها فمُحَمَّد ﷺ له بين النَّاس أعظم الفضل.

ويقول نابليون بونابرت أثناء حملته على مصر ١٧٩٨: «لو أن القادةَ

العسكريين يتمسَّكون بمبادئهم كما يتمسَّك رجال مصر بدينهم، لأصبح العالم مُلكي، لو كنت قائدهم، فأنا لم أكن أعرف أنَّ الإسلام قوي بما يحمل علماؤه في صدورهم وعقولهم. يبدو أن القرآن الذي يحملونه قوةٌ عليا لا تُقهر ولا تهزم، وأنا لا أستطيع أن أقهر القوى العليا التي تحرِّك المسلمين».

ويقول أيضاً: «أحمَدُ اللهَ أنني لم أكن موجوداً في العصر الذي كان فيه نبيُّ الإسلام يقود المعارك ضد أعدائه، وإلا كنت قد هُزمتُ بجدارة، وإذا كان هذا حال أتباعه فكيف كان حال مُحَمَّد ؟!»

ويقول أدولف هتلر: «لست نبياً ولا رسولاً، لست مسلماً، بل لست مُحَمَّداً، بل أنا هتلر الذي ولد ليكره اليهود ويذلَّهم بعذابه إلى الأبد، إن الذي استطاع أن يتعامل مع اليهود ويكسبهم ويشلَّ حركتهم في نفس الوقت هو رسول الإسلام مُحَمَّد، الذي فهم ما تدور به عقولهم وقلوبهم، إنهم لا يستحقون الحياة إلا أنّ مُحَمَّداً كان واسع الصدر يملك منطقاً غير عادي، تأكّد منه لتعامله معهم بالودِّ الذي لم يألفوه وبالقوة التي شهدوها».

ويقول نفسُه أيضاً: «أعتقدُ أنه لو كان مُحَمَّد في عصرنا هذا لما فعل ما فعلت مع اليهود، لكنهم لا يستحقُّون إلا ما قمتُ به معهم».

يا أيُّها النَّبيُّ العظيم طبتَ نبياً ورسولاً وطبتَ قائداً مقنعاً، علَّمتَ مَن بعدك فنَّ الحياة وكنت سيِّدَها وسيِّدهم. فمَن أراد السموَّ فليتعلَّم منك، ومن أراد المكافأة العليا فليرتشف مِنْ معينك. صلَّى الله عليك وعلى آلك

وسلَّم، صلاةً ترفعنا عنده أعلى الدرجات، وتجعلنا في الدُّنيا ناجحين، وكذلك بعد الممات.

ويقول تولستوي الأديب الروسي: «أنا واحدٌ مِنَ المبهورين بالنَّبيِّ مُحَمَّد الذي اختاره اللهُ لتكون آخر الرسالات على يديه وقلبه وعقله، ليكون هو أيضاً آخر الأنبياء، لا يوجد نبيٌّ حظي باحترام أعدائه سوى مُحَمَّد، مما جعل الكثرة مِنْ أعدائه يدخلون الإسلام، ومما لا ريب فيه أن النَّبيَّ مُحَمَّداً مِنْ أعظم الرجال المصلحين، الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمات جليلة، ويكفيه فخراً أنه هدى مئات الملايين إلى نور الحق، وإلى السكينة والسَّلام، وفتح للإنسانية طريقاً للحياة الروحية العالية، وهو عملٌ لا يقوم به شخصٌ، إلا مَنْ أوتيَ قوة وإلهاماً وعوناً مِنَ السَّماء».

سَيِّدي أبا الزَّهراء ولم لا يشهدُ لك النَّاس، أعني المنصفين ؟ وأنت الذي أعطيتَ للعقل مكانتَه اللائقة، وللقلب بُعدَه الإيماني العميق، وللجسم حركتَه الصادقة، وللروح اشراقها النيِّر المنوَّر، وكنت في كل ذلك الأُنموذج الأرقى.

ويقول المهاتما غاندي الزعيم الروحي للهند: «لقد درستُ الإسلامَ، وعرفتُ مِن خلاله قيمةَ الإنسان وحقوقه، وإنَّ نبيَّ الإسلام هو الذي قادني إلى المناداة بتحرير الهند، إنَّ كلَّ مَنْ يتعرَّف على الإسلام تشفُّ روحُه، وتصبحُ عظيمة، وإني مِنْ أشدِّ المحبين والمعجبين بمُحَمَّد».

ونحن إذ نختم بهذا رسالتنا هذه، نردِّد على مسامع الكون:

ياهذه الدُّنيا اشهدي بأنَّا على طريق مُحَمَّد، وأنَّا له محبُّون، وله موالون،

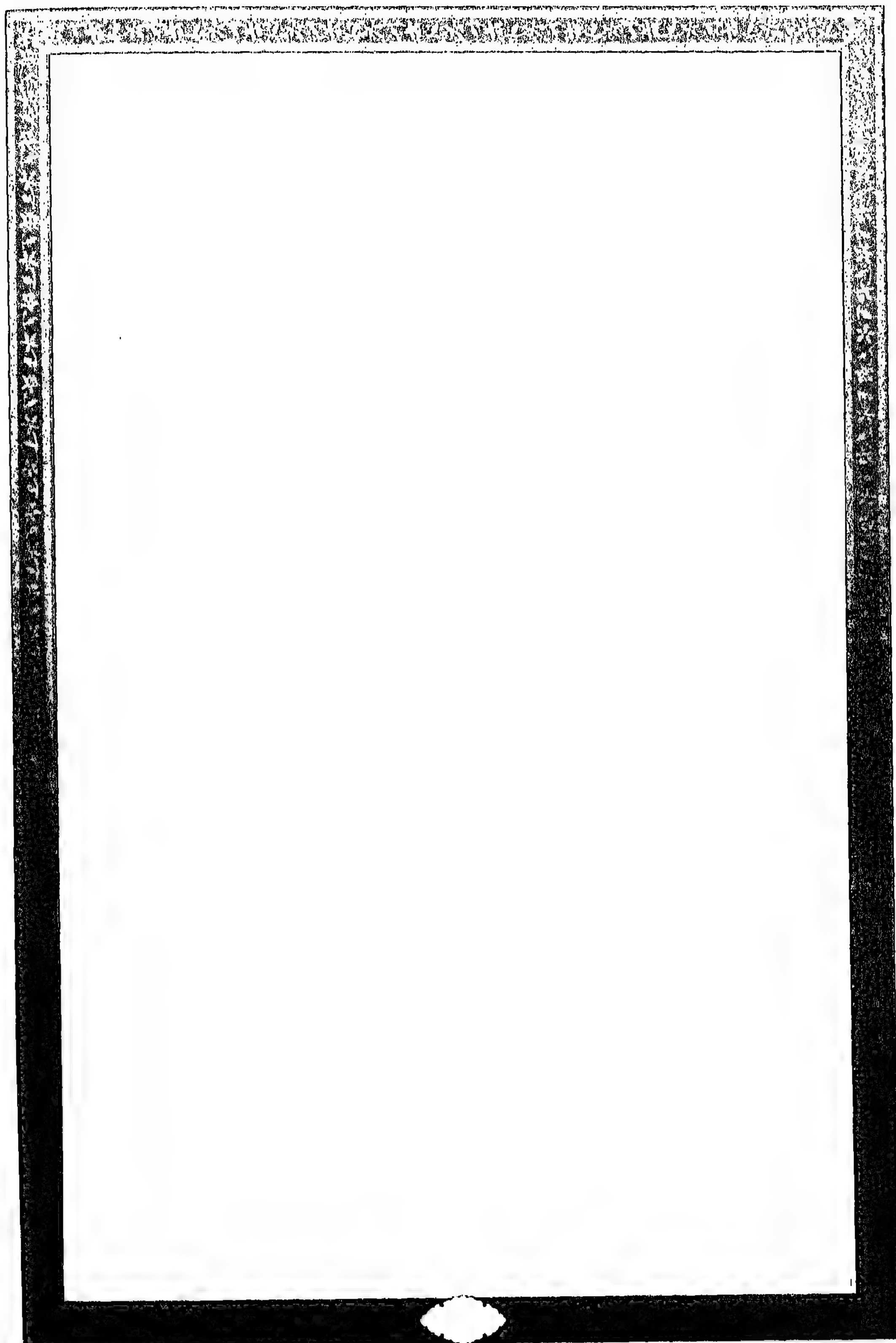
وعليه مثنون، ونقول لربِّنا جلَّت قدرتُه: اللهمَّ ثبِّتنا على حبِّك، وحبِّ نبيِّك، وحبِّ آل بيته، ياربَّ العالمين [1].

محمود

الهوامش

(١) من سعى للاستزادة فليَرَ:

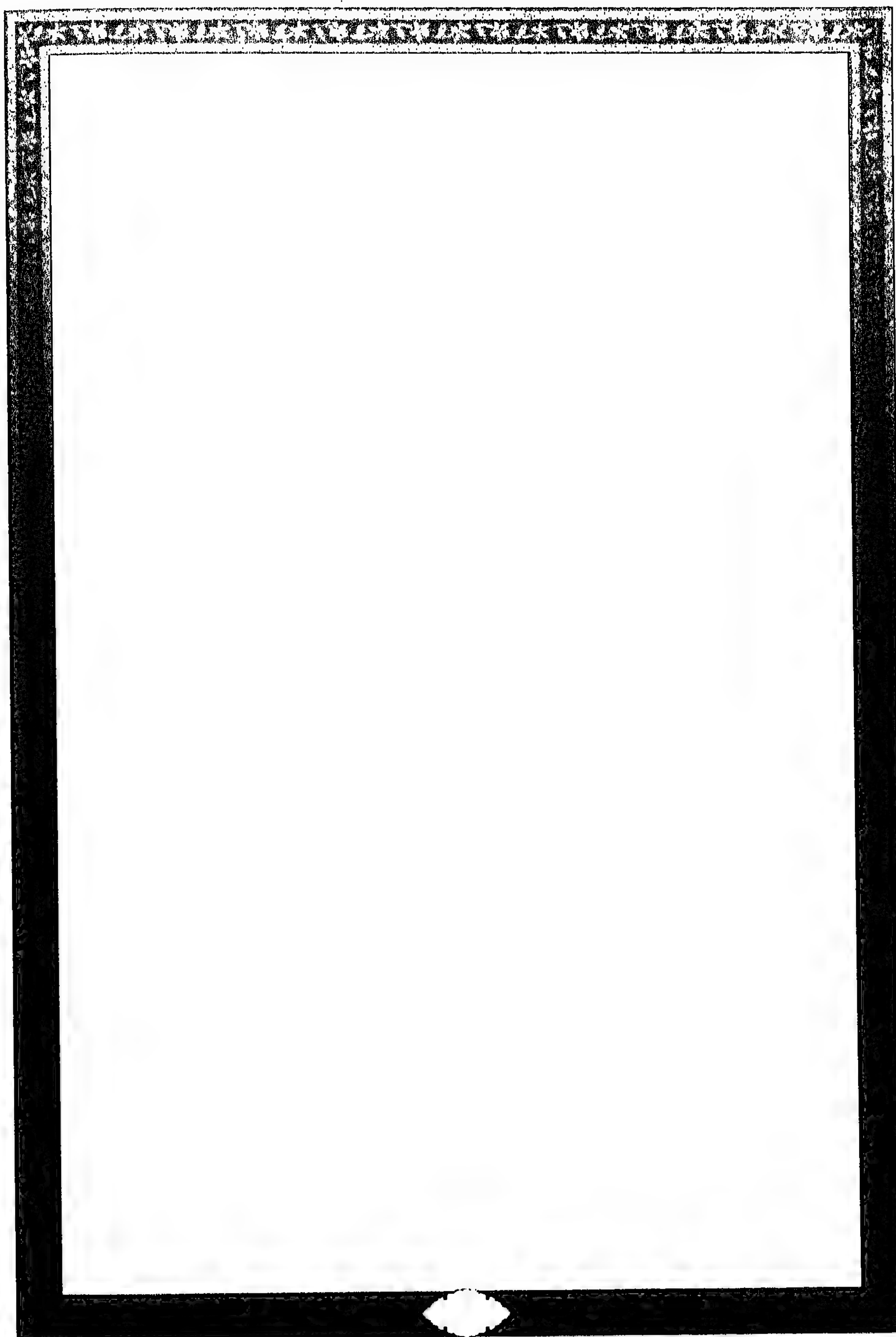
١) قصة الحضارة: ول ديورانت.
٢) في خطى محمدٍ: نصري سلهب.
٣) محمدٌ في الدراسات الاستشراقية المنصفة: محمد شريف الشيباني.
٤) قالوا في محمدٍ: خليل ياسين.



الرسالة التاسعة

سيدي :

شهادة منك فيك يا أجمل وأكمل إنسان



سَيِّدي يارسولَ الله: إنَّها قوةٌ ربَّانيةٌ أُعْطيتَها، ومِنحةٌ إلهية أوتيتَها، إذ وقفتَ تعلنُ أمام الملأ إلى يوم الدين حقيقتكَ وهويَّتك وتِبيان أمرك، ولقد جاء هذا الإعلان على مستويين:

الأول: مستوى الآياتِ القرآنية التي حضتَّك على توضيح الأمر.

والثاني: مستوى الرَّحمة اللامباشر، عبر أحاديثك النبوية العظيمة.

ومَن الذي يَقدِر على هذا إلاك ياحبيب الحقِّ وسيِّدَ الخلق.

فمن أنت يارسول الله ؟ وها نحن آذانٌ واعية، وقلوبنا تترامى بين يديك لتدركَ الذي أنت قائلُه:

ففي كتاب الله تتوالى الإعلاناتُ عنك، مِنْ خلالك أنت لتقولَ:

﴿إنَّما أنا منذرٌ وما مِنْ إلهٍ إلا اللهُ الواحدُ القهَّار﴾ ص/٦٥.

وتقولَ: ﴿إنِّي رسولُ اللهِ إليكم جميعاً﴾ الأعراف/١٥٨.

فما أبهَى هذه «الأنا»، وما أروع «إنَّ» تلك، مادامتا في جملة تُبيِّن

حقيقةَ ما أنت فيه ياأيُّها الحبيب !

وأما ماوردَ عنك في حديثك الأبهَى، فحسبي يارسولَ الله أنْ أبدأ بذاك الحديث العظيم، وكلُّ أحاديثك عظيمةٌ إذ قلتَ: (ما مِن شيء في السموات والأرضِ إلا يعلم أنّي رسولُ الله، إلا عاصيَ الجنِّ والإنس) [1].

إي واللهِ. الشجرُ يَعلم، وكذلك الحجرُ، والمدَرُ، والسموات، والأرضون، والأفلاك، إلا مَن خسرَ مِن العصاة الجاحدين المنكرين، وجحودُهم هذا فظيعٌ، لأنهم ينكرون حقاً سطعَ كالشمس، وأمراً مؤكداً أكبرَ مِنَ الصدى في دواخلهم: ﴿وجَحدُوا بها واستيْقَنَتْها أنفسُهم﴾ النمل/١٤.

سَيِّدي يارسولَ الله:

وها أنت تتابع شهادتَك عن ذاتك، عبرَ وحيٍ غيرِ متلوٍّ، فتقول وقولُك حقٌّ مِنْ حق: (اشهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ وانّي رسولُ الله) [2].

أجلْ. أنت حقٌّ، أرسلكَ حقٌّ. وأنت أمينٌ هيَّأك مهيمنٌ عزيز، وأنت صادقٌ اجتباك صَدوقٌ.

ولنُتابع ما شَهدتَ به عن ذاتك أيُّها العظيم السيِّدُ يوم ناديت في أذُن الدُّنيا: (انا خيرُ اصحاب اليمين، انا خيرُ السَّابقين، انا اتقى وَلَدِ آدمَ واكرمُهم على الله تعالى) [3].

وما الخيْريَّة التي انطوتْ عليها سريرتُك وأشاعتْها ظهيرتُك إلا المشكاةُ التي يصْدُر عنها كل خيرٍ فينا ومنَّا، فالأصلُ أنت، والأُسُّ أنت، وأنت الأتقى والأكرمُ، ولا أحدَ مِنَ الخلق بقادرٍ على أنْ ينازعك الأفضلية المطلقة

فيهم. أولستَ مَن قال: (أنا أكرمُ الأوَّلين والآخرين ولافخر) [٤].

والكرامةُ ما وَجدتْ في سواك الذي رأتْه فيك، لأنك مُجسِّدُها بأرقى صُورِها وأنقاها، ولأنَّك النِّتاج الخلاصةُ في سلسلة الكرام، فالكريمُ ابن الكريم إلى آدمَ عليه السَّلام هو أنت، وأنت ياسَيِّدي يارسولَ الله مَن دعا إلى الكرامةِ مبتغىً يطلبُه النَّاسُ لبعضِهِمْ، ويحرِصُ المؤمنون عليه فيما بينهم، ولدينِهم ومنهاجهم.

وها أنا هنا أعيدُ الكرَّة ذاكراً وشاكراً، ومتبارِكاً ومعاهِداً فأردِّد ما قلتَه يارسولَ الله عن سيادتك ومقامِك ومكانتك، فتِكرارُ الخيرِ عبادةٌ، ومعاودةُ الحديث في موضوع عظيم يزدادُ مُعيدُه رفعةً وسُمواً.

فيَا أيُّها العظيم. أنتَ شهدتَ على ذاتك فقلتَ:

(أنا مُحَمَّدٌ، وأنا أحمَدُ، وأنا الماحي؛ يمحُو اللهُ بيَ الكفرَ، وأنا الحاشرُ؛ الذي يُحشَرُ النَّاسُ على قدَمي، وأنا العاقبُ؛ والعاقبُ الذي ليسَ بعدَه نبيٌ) [٥].

وناديتَ: (أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدمَ يومَ القيامة، وأنا أولُ مَنْ ينشقُّ عنهُ القبرُ، وأنا أولُ شافعٍ وأولُ مُشفَّع) [٦].

وأعلنت: (أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدمَ يومَ القيامة، وبيدي لواءُ الحمْدِ ولا فخْرَ، وما مِنْ نبيٍ يومئذٍ، آدمَ فمَنْ سواه، إلا تحتَ لوائي) [٧].

وأكّدت: (أنا أولُ مَنْ يُحرِّكُ حِلَقَ الجنَّة، فيُفَتَّح فأدخلَها، ويدخلها معي فقراءُ المؤمنين) [٨].

وكذلك شهدت: (أنا أولُ النَّاس خروجاً إذا بُعثوا، وأنا خطيبُهم إذا

وفَدوا، وأنا مبشّرهم إذا يَئِسوا، لواءُ الحمْد بيدي، وأنا أكرمُ وَلَدِ آدمَ علَى ربِّي ولا فخرَ)[٩].

و (أنا إمام النَّبيّينَ وخطيبُهم وصاحبُ شفاعتهم)[١٠].

أيُّها المبعوثُ رحمةً. لقد قُلتَ عن خزيمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (مَنْ شهدَ له خزيمةُ فحَسْبُه)[١١]، لأنَّه شهدَ لك بالصدق ولم يرَ الذي شهد له، اعتماداً على تصديقه لك بالرسالة، وهي أكبر مِنْ كلِّ عمل أوفعل أوقول.

وها أنا أقتبس مِنْ ذا النور فأقول: تكفيك شهادتُك بذاتك لذاتك عن ذاتك، فوَربِّ السَّماء والأرض إنك لحقٌّ مثلما أنهم ينطقون، وذاتُك أطهرُ ذات في عالم العباد.

ولعلّي ياحبيبَ الحقِّ، أقفُ على أعتاب الأسياد طالباً منهم شهادةَ اعتراف بأني لكم خَديم

فهل تقبلونني ؟!

وهل تصدِّقون على إيماني وحبِّي ؟!

وهل تَجبرون خاطري ؟

فإنْ قَبلتُمْ فيا عِزّي وياطَربي
وإنْ أبيتُمْ فمَن أرجُوه غيرَكمُ

الهوامش

(١) أخرجه الدارمي: المقدمة، ح/١٨، ج ١٦/١.

(٢) أخرجه البخاري: ك/الشركة، ح/٢٣٥٢.

(٣) أخرجه الطبراني: في الكبير، ح/١٢٦٠٥.

(٤) أخرجه الترمذي: ك/المناقب، ح/٣٦١٦.

(٥) متفق عليه بألفاظ متقاربة. البخاري: ك/التفسير، ح/٤٦١٤. مسلم: ك/الفضائل، ح/٢٣٥٤.

(٦) أخرجه مسلم: ك/الفضائل، ح/٢٢٧٨.

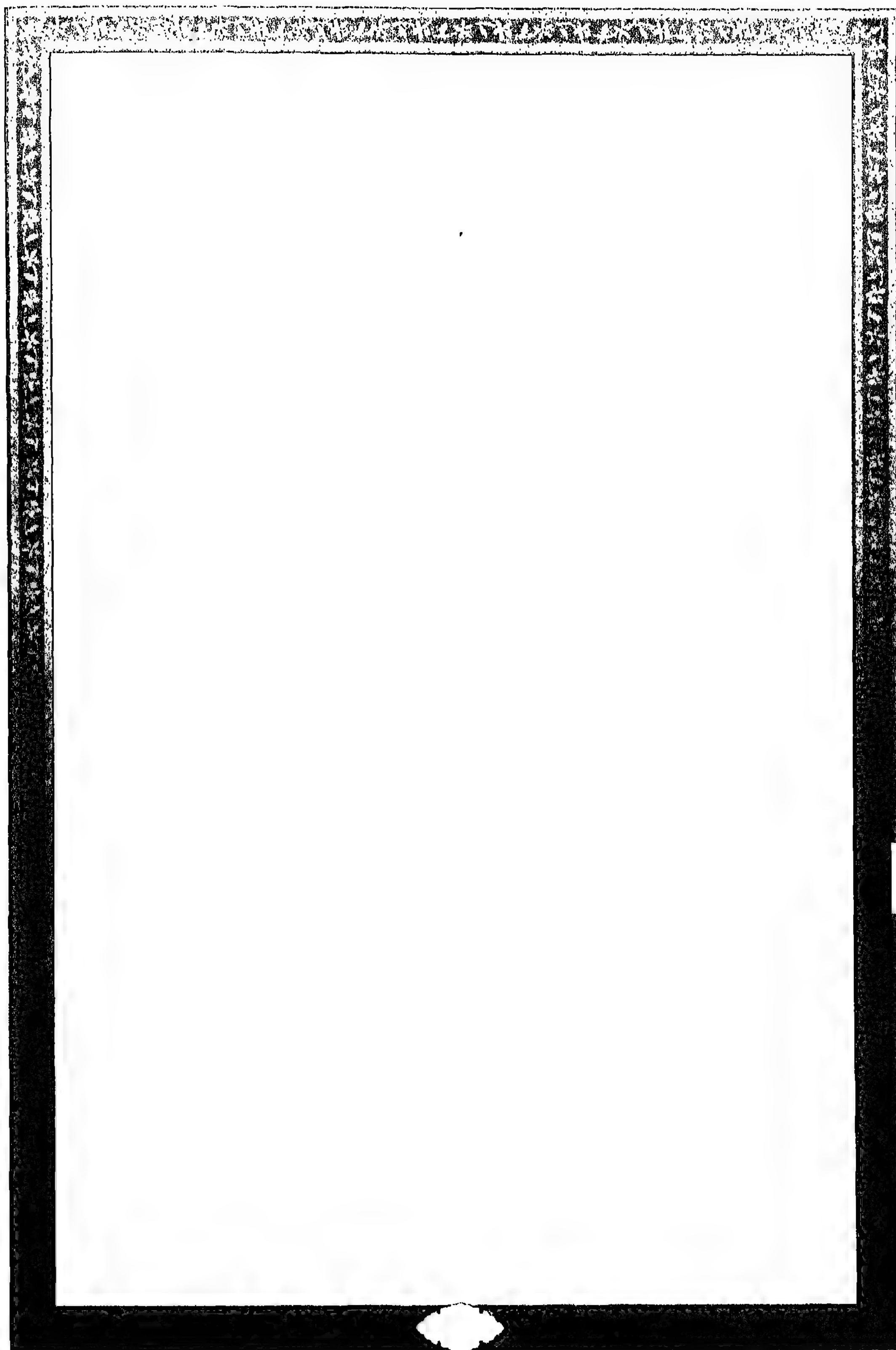
(٧) أخرجه الترمذي: ك/المناقب، ح/٣٦١٥.

(٨) أخرجه الترمذي: ك/المناقب، ح/٣٦١٦.

(٩) أخرجه الترمذي: ك/المناقب، ح/٣٦١٠.

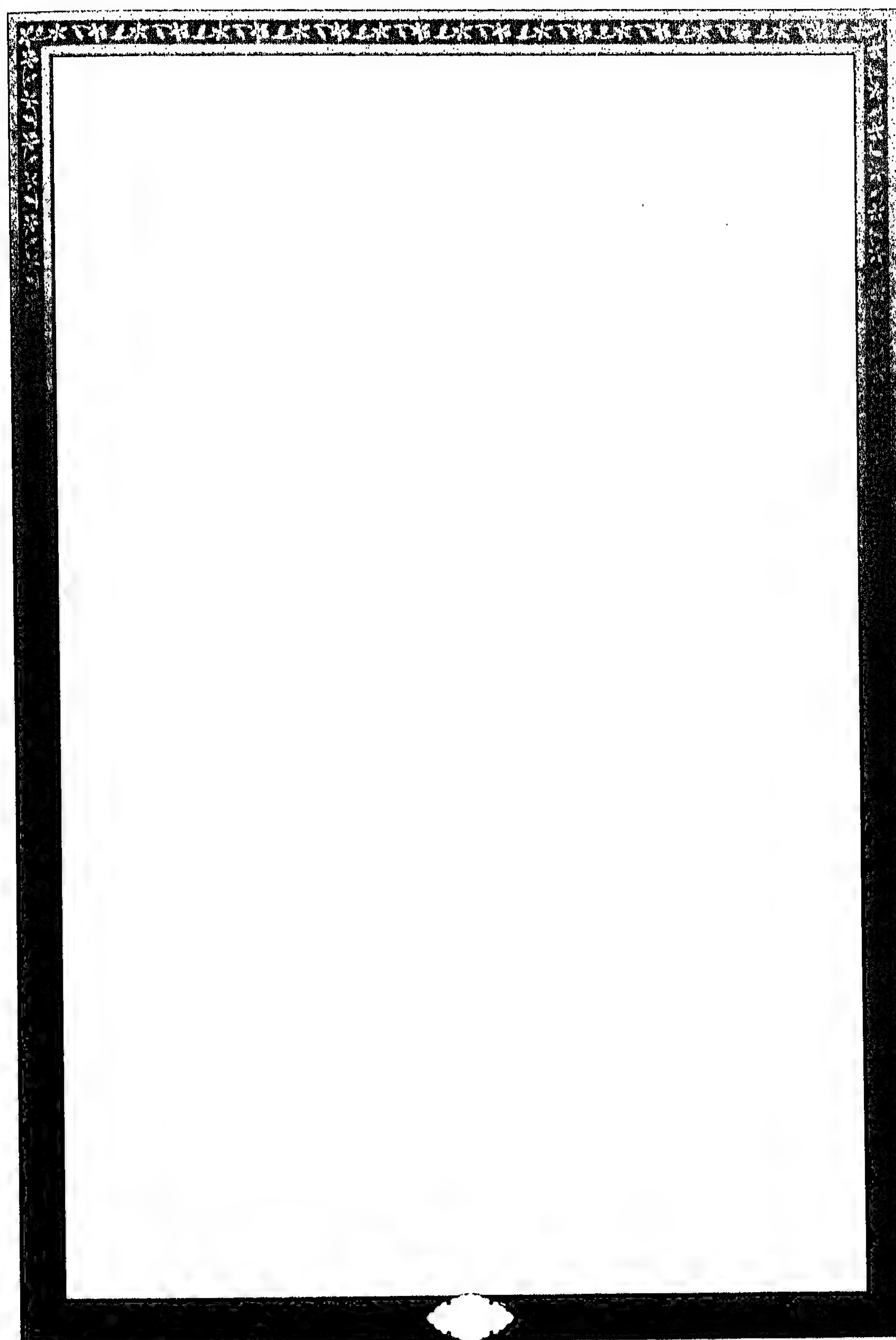
(١٠) أخرجه الترمذي: ك/المناقب، ح/٣٦١٣.

(١١) أخرجه الطبراني في الكبير: ورجاله ثقات. مجمع الزوائد: ح/١٥٧٨٠.



الرسالة العاشرة

سيدي
رسول الله أنت الرحمة المهداة



إنَّها معادلةُ الإنسان الخليفة، والسَّعةُ التي تَعني المسؤوليَّةَ الشاملة العامَّة، فإذا كنتَ ياسَيِّدي يارسولَ الله رحمةً مرسلةً كما قال ربي عز شأنه: ﴿ ومَا أرسلناكَ إلا رحمةً للعالمين ﴾ الأنبياء/١٠٧. وإذا كانت الرحمةُ تتَّسعُ لكلِّ شيء، كما قال أيضاً ربي جلَّ جلاله: ﴿ ورَحمتي وَسعَتْ كلَّ شيءٍ ﴾ الأعراف/١٥٦. فأنت إذاً وسعت مَنْ دعوتَهم كلَّهم، وكنتَ لهم مَشعَّ عطاءٍ ووفاءٍ وضياءٍ وصفاءٍ، وكلُّ ذلك مِن مفردات الرَّحمة التي كُنتَها وجسَّدتها.

سَيِّدي أبا الزَّهراء: أأذكرُ آياتٍ قرآنية تحدَّثتْ عن رحمتك ؟

أم أتناولُ بالحديث أقوالاً صدرتْ عنك عبَّرتْ عن رحمةٍ استقرَّتْ فيك سجيَّةً وطويَّة ؟

أم أسطِّرُ أفعالاً كانت عنواناً هو طُغراء في صفحة تاريخ رُحماءِ البشر؟

و إذا رحمتَ فأنتَ أمٌّ أو أبٌ   هَذَان في الدُّنيا همَا الرُّحماءُ

فاللهُ عزَّ وجلَّ قال عنك واصفاً: ﴿ومَا أرسلناكَ إلا رحمةً للعالمين﴾ الأنبياء/١٠٧.

وقال: ﴿لقد جاءَكمْ رسولٌ منْ أنفُسكمْ عزيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ حريصٌ عليكمْ بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيم﴾ التوبة/١٢٨.

وأنتَ، ياأيُّها الرحيمُ بنا، قلتَ عن نفسك: (إنَّما أنا رحمةٌ مُهْداة) [١].

وقلتَ داعياً إلى الرحمة: (الرَّاحمون يَرحمهمُ الرحمن. ارحمُوا مَن في الأرض يَرحمْكم مَن في السَّماء) [٢].

وكذلك ردَّدتَ أمام كلِّ الدُّنيا: (إنِّي لم أُبعثْ لعَّاناً، وإنَّما بُعثتُ رحمةً) [٣].

وما أعظمَها مِن كلمةٍ يوم عرَّفتَ بنفسك فقلت: (أنا نبيُّ الرَّحمةِ، وأنا نبيُّ التَّوبة) [٤].

وأمَّا ما أنتجته جوارحك الشَّريفة مِن أفعال، فوالله إنَّ لَبوسها الرَّحمةُ، وباطنَها الهدايةُ، ومبعثَها الأمانةُ، وهيهات أن تفي هذه الأسطرُ، بل الكتابات، بل كلُّ المجلدات في الدُّنيا حقَّ رحمتك، سلوكاً انبثقَ عنك.

ولكني ياأيُّها المختار، سأنقلُ مِن مَعين سيرتك الطاهرةِ قطراتِ ندىً تكفي مَن عقَل، وتُرشد مَنْ وعَى، وتجعلُ مَن يودُّ التَّبصُّر في أمره على طريقِ النور بعون الله. فسَيذكر التَّاريخُ لكم ياسَيِّدي رسولَ الله، ماكنتم تفعلون إذ قلتم عن أنفسكم:

(إنِّي لأدخلُ في الصَّلاة أريدُ إطالتَها فأسمعُ بكاءَ الصَّبي فأتجوَّزُ لِمَا أعلمُ مِن شدَّة وَجْدِ أمِّهِ عليه) [٥].

فمَن الذي في ذي الرحمةِ يجاريكم، تضحّي بوَجْد الخشوع من أجل وَجْد الحنان، وتَدَعُ لذَّةَ المناجاة، من أجل لذةِ رضاعِ طفلٍ منْ أمِّه.

سأحكي ياأيُّها الرحيمُ الرؤوف، رعايتَك الحانيةَ لسبطيك سَيِّدي شبابِ أهلِ الجنّة، وقد عزَّ نظيرُها ومثيلُها، فلقد نزلتَ مرَّةً من على المنبر، إذ راعَك بكاءُ الحسين ﵁، فحملتَه ورفعتَه بين يديك، وصعدت به المنبرَ ثانية، وتابعتَ خطبتَك الشريفةَ العظيمة، وصرَّحتَ لأمِّهما البتولِ الزَّهراء، عليهم السَّلامُ جميعاً آل البيت ورحمةُ الله وبركاته: **(أمَا علمتِ يافاطمةُ أنَّ بكاءَهما يُؤذيني)** (٦).

مَن للرَّحمة بعدَ الله إلاك، ها هو الأقرعُ بن حابس يدخلُ عليه ليراكَ تُقبِّل سبطيكَ العظيمين فيقول مستغرباً: يارسول الله. إنَّ لي عشَرةً مِن الولد ما قبَّلتُ واحداً منهم. فأجبتَه:

(أوَ أملكُ لكَ إنْ كان الله قد نزعَ مِن قلبك الرحمةَ. مَن لا يَرحم لا يُرحم) (٧).

أمَّا ولدُك، ياحبيبي، إبراهيمُ الذي توفَّاه اللهُ عزَّوجلَّ صغيراً ورضيعاً، فسلَّمتَ وقُلتَ:

(إنَّ العينَ لتدمَع، وإنَّ القلبَ ليَحزن، وإنَّا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون، ولا نقول إلا ما يُرضي ربَّنا، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون) (٨).

وأنبأتَ مَن حولك ومَن بعدك بمصير سَيِّدنا إبراهيم، هذا الرضيع، في الجنَّة فقلتَ: **(إبراهيمُ ابني، وإنَّه ماتَ في الثَّدي، وإنَّ له لظِئْرين تكملان رضاعَه في الجنة)** (٩).

ماذا أقول معلّقاً ؟ وماذا أعلّق قائلاً ؟! حسبي ياضياءَ العين أنْ أحيلَ دعاةَ الرحمةِ عليك، وطلابَ الرأفةِ على سيرتك، فسيجدون ما لا عينٌ رأتْ قبلَك ولا بعدك.

وهيَّا معي أيُّها المحبُّون لنرى هذا المشهد الرَحْمَويَ الكبير، إذ يُستشهَد عثمانُ بن مظعون الصحابيُّ الجليل رضي الله عنه، فيقبِّله النَّبيُّ الأعظم عليه الصَّلاة والسَّلام، ويرى الصحابةُ الكرام دموعَ سَيِّدِ البشر الطاهرةَ تسيل على خدِّ عثمان، وهي ترسم الكلمات التي خرجت مِن فم الحبيب مُحَمَّد ﷺ: (**طوبَى لك... طوبى لك**) [10].

وفعلاً طوبى لك ياعثمان، وياليتني كنتُ معك فأفوزَ فوزاً عظيماً.

أيُّها الشفيع الكبير. والرحمةُ فيك ومنك عامَّةٌ شاملةٌ لم تقفْ عند حدٍّ، أوَلستَ قد سامحتَ مَنْ آذاك، وعفوتَ عمَّن أساءَ إليك، وقلتَ: (**اللهمَّ اغفرِ لقومي فإنَّهم لا يعلمون**) [11].

أوَلستَ مَن قلتَ: (**إنَّ في كلِّ كبدٍ حرَّى أجراً**) [12].

أوَلستَ مَن قلتَ: (**دخَلت امرأةٌ النارَ في هرَّةٍ حبَسَتْها فلا هي أطعمَتْها، ولا هيَ تركتْها تأكلُ مِنْ خِشاش الأرض حتَّى ماتتْ**) [13].

يا أيُّها المختار دعوتُك رحمةٌ، ونظرتك رحمةٌ، ومماتُك رحمةٌ، فَوَاصِلْ ضعيفاً بنظرة، وامنحْ خُويدماً على الأعتاب لفتةً.

سَيِّدي! يا سَيِّدَ الرُّحماء في الدُّنيا والآخرة. إنَّما هما كلمتان أرفعُهما إليك في مقامي هذا، وتتقاصران عن أن تمثُلا أمامك، ولكنَّ الذي يشكِّلهما عطفُك ورحمتُك وفضلك، هل تقبلوني ؟

وإنِّي على يقين أنك لن تقول لمن كَان مثلي إلا «نعم». فأنتَ كما قلتَ، سَيِّدي: (أنا أوْلى بكلِّ مؤمنٍ مِنْ نفسه) [١٤].

محمود

الهوامش

(١) أخرجه الدارمي: المقدمة. ح/١٥.

(٢) أخرجه أبو داود: ك/الأدب، ح/٤٩٤١. والترمذي: ك/البر والصلة، ح/١٩٢٤.

(٣) أخرجه مسلم: ك/البر والصلة، ح/٢٥٩٩.

(٤) أخرجه أحمد. والترمذي في الشمائل: ح/٦٣٠، والبغوي في شرح السنة.

(٥) متفق عليه. البخاري: ك/الجماعة، ح/٦٧٧. مسلم: ك/الصلاة، ح/٤٧٠.

(٦) انظر الترمذي: ج ٢/٣٠٦. وذخائر العقبى للمحب الطبري: ص/١٤٣.

(٧) أخرجه مسلم: ك/الفضائل، ح/٢٣١٧.

(٨) متفق عليه. البخاري: ك/الجنائز، ح/١٢٤١. مسلم: ك/الفضائل، ح/٢٣١٥.

(٩) أخرجه مسلم: ك/الفضائل، ح/٢٣١٦.

(١٠) الإصابة في تمييز الصحابة.

(١١) متفق عليه. البخاري: ك/أحاديث الأنبياء، ح/٣٢٩٠. مسلم: ك/الجهاد، ح/١٧٩٢.

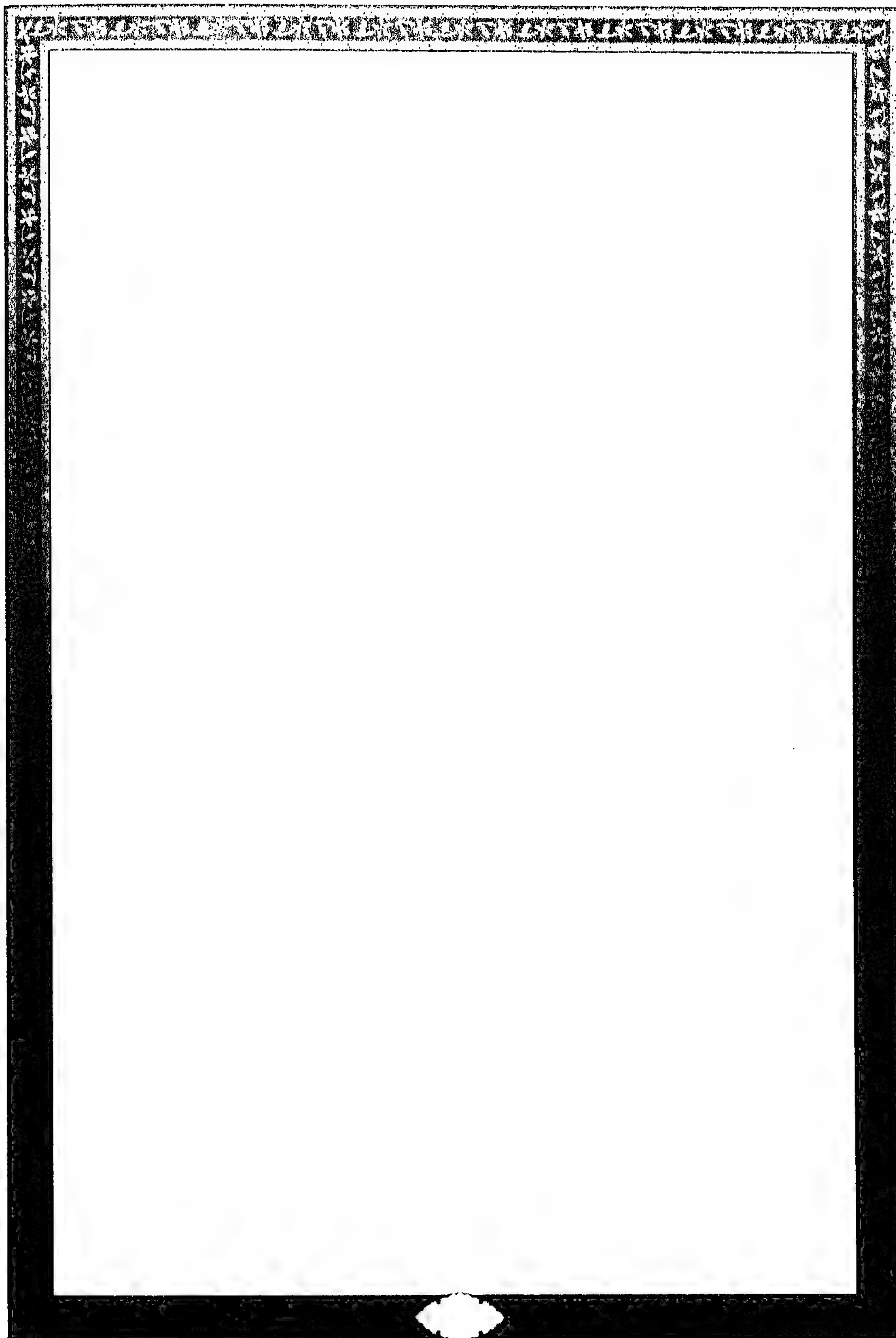
(١٢) أخرجه ابن ماجه: ك/الأدب، ح/٣٦٨٦.

(١٣) متفق عليه. البخاري: ك/بدء الخلق، ح/٣١٤٠. مسلم: ك/التوبة، ح/٢٧٥٦.

(١٤) أخرجه أبو داود: ك/الفرائض، ح/٢٩٠٠. أحمد: ح/٩٩٤١، ج ٣٦٥/٩.

الرسالة الحادية عشرة

أدبني ربي فأحسن تأديبي



سيِّدَ الوجود. إذا كان الأدبُ يعني الظاهرَ الجميل، واللَّبوس الرائعَ للمضمون، وحُسْنَ التَّواصل مع الآخر على اختلاف كثير فيه، ومع الأشياءِ على تنوُّعٍ عديد فيها، فأنت ـ والذي بعثك ـ آدَبُ مَنْ عليها، ممن كان، وممَّن سيكونُ إلى يوم الدين، وكيف لا ؟ والذي تولَّى تأديبَك ربُّك: ﴿ والضُّحَى والليلِ إذا سجَى ماودَّعكَ ربُّكَ وما قلى ﴾ الضحى/١-٣.

وقد قلتَ أنتَ يارسولَ اللهِ: (أدَّبني ربِّي فأحْسَنَ تأديبي) [1]، ومَنْ أدَّبَهُ ربُّهُ إذاً فهو الأوَّلُ في الأدبِ، والأعظمُ في السُّلوك، والأجدرُ بأن يكونَ خيرَ النَّاسِ إلى يوم الدِّين.

أيُّها الذي أدَّبَهُ ربُّهُ:

لستُ ممَّنْ يفي بالحقِّ وهيهات، وأنَّى لمثلي أنْ يستوعبَ ضياءَ شمسٍ مشرقةٍ، وهو مصباحٌ صغيرٌ يُوقَدُ مِنْ بعضِ شعاعِكَ. ولكنَّني سأتغنَّى

بذكرياتِ فِعالٍ صدرتْ عنْكَ، رسمتْ لوحةً في جدارِ الزمنِ الخيِّر، فكانتِ الأجملَ ممَّا فيه، وهذه الفعالُ منها ما كانَ تجاهَ الخالقِ، ومنها ماكانَ حيالَ الأهلِ، ومنها ماكانَ مع الأصحابِ، وآخرُها التي أريدُ ذكرَها هنا ماكانَ مع الدُّنيا.

فأمَّا التي مع الخالقِ جلّ شأنُهُ: فما أعظمَ أدبَكَ يارحمةَ الدُّنيا حين تقولُ عن الصَّلاة: (أرِحْنا بها يابلال) [٢]، والصَّلاةُ صلةٌ، وأرقاها راحة. وما ألطفَ فعالَكَ يومَ كنتَ تصلِّي، فتسكبُ دموعَكَ الطَّاهرةَ حُبَّاً لربِّكَ، حتَّى إنَّهُ «ليُسمعُ لصدرِكَ أزيزٌ كأزيزِ المرجلِ منَ البكاءِ» [٣].

ربَّ دَمعٍ يَنســـابُ إثرَ ســرورٍ   كاللآلي على الخـدودِ تَهَـامَى

وكلُّنا يحكي تلكَ القصَّةَ التي جرتْ معكَ إذ وقفتَ يوماً، وماذاكَ الوقوفُ بيتيمٍ، فصلَّيتَ وأكثرتَ القيامَ وأطلتَهُ، حتَّى تشققتْ قدماكَ، فقالتْ لكَ زوجُكَ السَّيِّدةُ عائشة رضي الله عنها: «لِمَ تفعلُ هذا يارسولَ اللهِ؟! خفِّفْ عليكَ! لقدْ غُفرَ لكَ ماتقدَّمَ مِنْ ذنبِكَ وماتأخَّر»؟ حينها أجبتَ: (**ياعائشةُ أفلا أكونُ عبداً شكوراً**) [٤].

ما أعظمَكَ!! ما ألطفَكَ، صلى اللهُ عليكَ ياعظيمُ، يا أديبُ، عددَ ما صدرَ عنكَ مِنْ لطفٍ وأدبٍ وخيرٍ، وأكرمُ العدِّ ألاّ يكونَ له حدٌّ.

فإنَّ فضلَ رسـولِ اللهِ ليسَ لهُ   حـدٌّ فَـيُعربَ عنـهُ نـاطقٌ بفمِ

يا أبا الطَّاهرِ والطيِّبِ وعبدِ الله:

أما أدبُكَ مع الأهلِ، فتلكَ قصةُ الرُّقي والأناقةِ والحضارةِ، وتلكَ قمةُ

القصةِ رويتْ عنكَ ونُقلتْ عن سيرتكَ، ونبتدىءُ منْ أنس خادمك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إذ قال: «كان رسول الله ﷺ أشدَّ الناس لطفاً، وما رأيت أحداً أرحم بالعيال منْ رسول الله»[٥]، وهو نفسه القائل: «خدمتُ رسولَ الله عشرَ سنين فما قالَ لي لشيءٍ فعلتُهُ: لمَ فعلتَه، ولا لشيءٍ لمْ أفعلْهُ: لِمَ لمْ تفعلْهُ، وما قالَ لي أُفٍ قط»[٦].

وأمَّا زوجُكَ، وأعرفُ النَّاسِ بالرَّجلِ أهلُه، فتقولُ: «كان رسولُ اللهِ ﷺ ألينَ النَّاسِ بسَّاماً ضحَّاكاً »[٧].

وخديجة، وما أدراكَ ماخديجة، أمُّ المؤمنين تشهدُ وتقرُّ، وهي التي تغنَّتَ بكَ زوجاً عظيماً، وأباً حانياً، ونبياً مرسَلاً، ولمْ يفارقْهَا التَّغنِّي هذا، غمرتْها بلطفٍ منكَ كبيرٍ، وعطفٍ منكَ عظيمٍ، فقالتْ:

و لو أنَّ لي في كلِّ يومٍ و ليلةٍ بساطَ سليمانَ ومُلكَ الأكاسرة
لما عدلتْ عندي جناحَ بعوضةٍ إذا لم تكنْ عيني لوجهكَ ناظرة

وأمَّا الأدبُ العظيمُ مع الصَّحبِ فحدِّثْ عنه ولا حرجَ، إذ كانَ مع الصَّغيرِ والكبيرِ، والمرأةِ والرَّجل، والفقيرِ والغني، والقوي والضعيف.

يقول الشَّاب الصَّغير جريرٌ بنُ عبدِ اللهِ البَجَليُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ما حجبني رسولُ اللهِ ﷺ منذُ أسلمتُ ولا رآني إلا تبسَّمَ»[٨].

ويروي عنه عبدُ اللهِ بنُ الحارثِ فيقولُ: «ما رأيتُ أحداً أكثرَ تبسُّماً منْ رسولِ اللهِ ﷺ»[٩].

ويحكي لنا التَّاريخُ قصةً كانَ بطلَها مُحَمّدٌ ﷺ، إذ خرجَ مع ثلّة مِنْ أصحابِه رضي اللهُ عنهم في سفرٍ، فعزموا على إعداد شاة فقال: أحدُهم عليَّ ذبحُها، وقالَ الثَّاني:عليَّ سلخُها، وقالَ الثَّالثُ: عليَّ طبخُها، فقالَ المصطفى ﷺ: (وعليَّ جمعُ الحطب). فقالوا: يارسولَ اللهِ نكفيكَ العملَ فقالَ: (**علمتُ أنّكم تكفونني، ولكنّني أكرَهُ أنْ أتميَّزَ، وإنَّ اللهَ سبحانَهُ وتعالى يكرهُ مِنْ عبدِهِ أن يراه مميَّزاً بين أصحابِهِ**)[١٠].

فهلْ رأيتُمْ يابني قومي وأدباءَهُ لذلك مثيلاً أوشبيهاً أونظيراً ؟! والجوابُ هيهاتَ.

مُحَمَّدٌ بشــرٌ وليسَ كالبـشـرِ   بلْ هو ياقـوتةٌ والنَّاسُ كالحجرِ

وما أظنُّ أنَّ شخصيةً في التَّاريخِ يمكنُ أنْ تتسمَ بالأدبِ قدراً كما اتسمَ به سَيِّدُ الخلقِ مُحَمَّدٌ ﷺ.

فياسَيِّدي يارسولَ اللهِ. أجلْ أدَّبَكَ ربُّكَ وعلَّمَكَ وربَّاكَ، فكنتَ الأفضلَ في كلِّها.

واذكري يادنيا بعدَها أدبَهُ معكِ وأسلوبَهُ الأنسبَ مع طبيعتِكِ، فأنتِ مَنْ تَسْعَيْنَ إلى مَنْ عرفَ قدْرَكِ فأعطاكيه.

لمْ يأخذْ منكِ، بلْ أنتِ التي أخذتِ منه، لم تُعطِهِ وإنَّما هو الذي منَحَكِ، إذاً حدثي أبناءَكِ والآخرين عنه، وارويِ قصتَكِ مع مَنْ لم يدخلْ رحابَكِ أفضلُ منهُ، أخبريهم أنَّهُ: «ما شبعَ رسولُ اللهِ ﷺ مِنْ خبزٍ شعيرٍ يومين متتاليين»[١١].

وحدّثيهم أنّه ﷺ: «كانَ يبيت هو وأهلُهُ الليالي المتتابعةَ طاوياً لا يجدونَ عشاءً» [١٢].

واذكري ماقالتْهُ زوجتُهُ السيِّدةُ عائشةُ: « لقدْ ماتَ رسولُ اللهِ ﷺ وما في بيتي شيءٌ يأكلُهُ ذو كبدٍ إلا شطرَ صاعِ شعيرٍ في رفٍّ لي» [١٣].

وردّدي -يادنيا - كلمةَ الكفايةِ والاكتفاءِ باللهِ التي جعلَها المصطفى ﷺ وِردَهُ الدَّائمَ يناجي بهِ ربَّهُ، ويعلنُ منْ خلالِهِ موقفَهُ العظيمَ منَ الرِّزقِ الماديِّ (اللهمَّ اجعلْ رزقَ آل مُحَمَّدٍ قوتاً) [١٤].

سيِّدَ الوجودِ ياعظيمَ الدُّنيا وشفيعَ النَّاسِ في الآخرة:

أعطيتَ كلَّ شيءٍ حقَّهُ مضموناً وأسلوباً، حقيقةً وصورةً فما أعظمَكَ وما أكرمَكَ وما أجملَكَ وما أكملَكَ !

أبا المؤمنين؛ إذ علَّمتَهم وأعطيتَهم ومنحتَهم وأنفقتَ عليهم وتوليتَ شؤونَهم:

ختاماً. اسمحْ لي أنْ أسوقَ بين يديكَ تلك القصَّةَ التي تحكي أحداثُها أنّ وفداً جاءَكَ وكانَ يقلبُ «اللام» ميماً فينطق «أل التَّعريف» «أم»، فسألَكَ: «هل منْ امْبِرِ امصيامُ في امْسفرِ ؟»، أيْ هلْ منَ البرِ الصيامُ في السَّفرِ. فقلت لهم: (ليسَ منْ امبر امصيام في امسفر) [١٥].

وسألَكَ الإمامُ عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ واستفسرَ، ولسانُ حالِ الاستبيانِ والاستفسارِ: منْ أين ؟ ومتى ؟ ومن ؟ فأجبت واثقاً وقلت موقناً: (أدَّبني ربِّي فأحسنَ تأديبي) [١٦].

فيا رسولَ اللهِ: هلْ قبسٌ منْ أدبِكَ يؤدِّبُنا. فوربِّ الكعبةِ إنَّا بكَ مؤدَّبون،

وبغيرِكَ لا.

الصَّلاةُ والسَّلامُ عليكَ يومَ وُلدتَ، ثُمَّ بُعثتَ، ويومَ هاجرتَ، ويومَ انتقلتَ، وفي كلِّها يومَ نُوديت: ﴿ وما أرسلناكَ إلا رحمةً للعالمين ﴾ الأنبياء/١٠٧.

محمود

الهوامش

(١) كنز العمال: ح/٣١٨٩٥، ج ٤٠٦/١١.

(٢) أخرجه أبوداود: ك/الأدب، ح/٤٩٨٥. وأحمد: ح/٢٢٩٨٢، ج ٥١٩/١٦.

(٣) أخرجه أبوداود: ك/الصلاة، ح/٩٠٤. والنسائي: ك/السهو، ح/١٢١٣.

(٤) أخرجه البخاري: ك/التفسير، ح/٤٥٥٧.

(٥) أخرجه مسلم: ك/الفضائل، ح/٢٣١٦.

(٦) أخرجه أحمد: ح/١٢٩٦٨، ج ٧٢/١١.

(٧) أخرجه ابن سعد: ج ٣٦٥/١. وابن كثير في الشمائل.

(٨) متفق عليه. البخاري: ك/الجهاد، ح/٢٨٧١. مسلم: ك/الفضائل، ح/٢٤٧٥.

(٩) أخرجه الترمذي: ك/المناقب، ح/٣٦٤١.

(١٠) رواه الزرقاني.

(١١) أخرجه الترمذي: ك/الزهد، ح/٢٣٥٧.

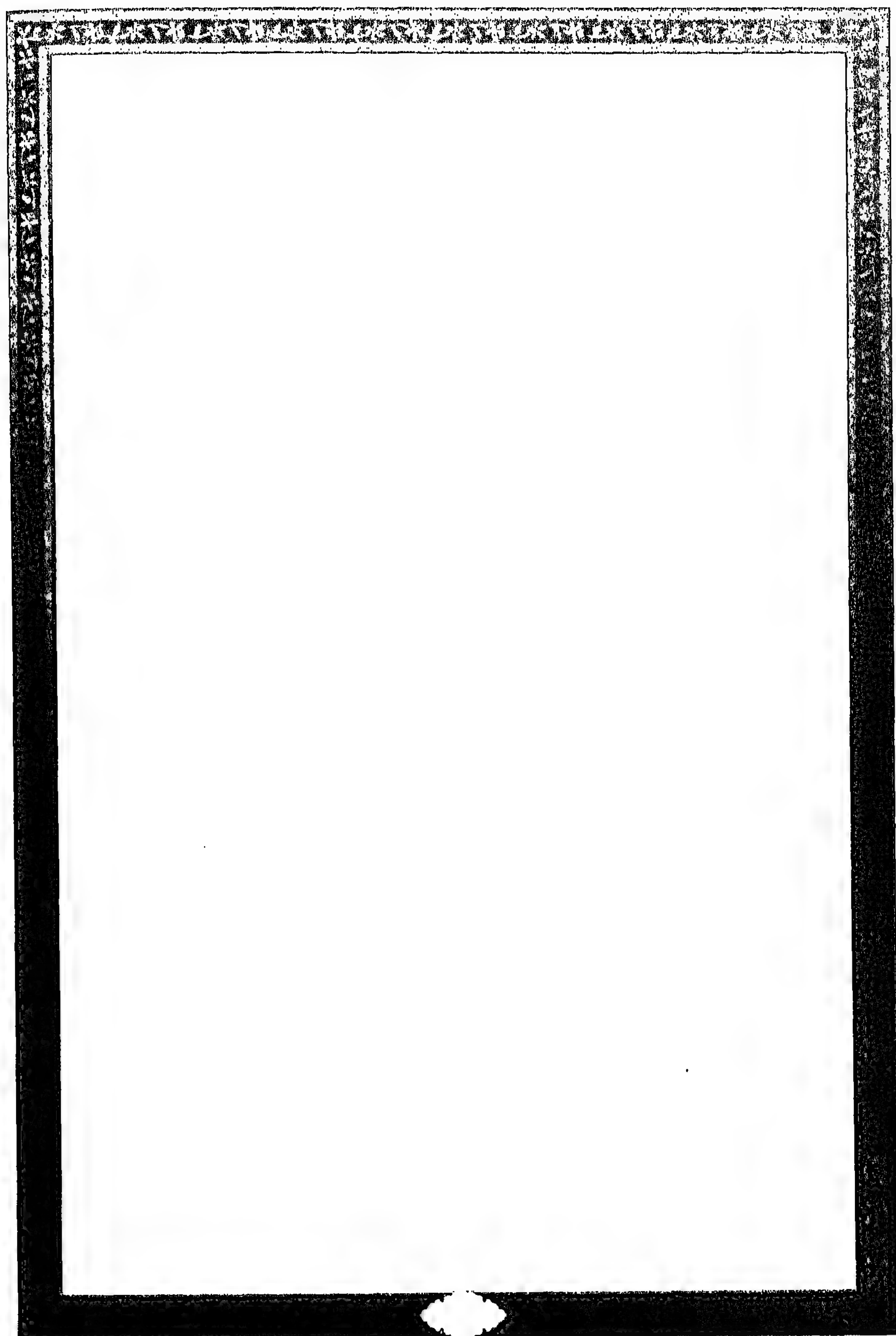
(١٢) أخرجه الترمذي: ك/الزهد، ح/٢٣٦٠. وابن ماجه: ك/الأطعمة، ح/٣٣٤٧.

(١٣) متفق عليه. البخاري: ك/الرقاق، ح/٦٠٨٦. مسلم: ك/الزكاة، ح/١٠٥٥.

(١٤) متفق عليه. البخاري: ك/الرقاق، ح/٦٠٩٥. مسلم: ك/الزهد، ح/٢٩٧٣.

(١٥) أخرجه أحمد: ح/٢٣٥٦٩، ج ٧٥/١٧. وهذه لغة حِمْيَر من قبائل العرب.

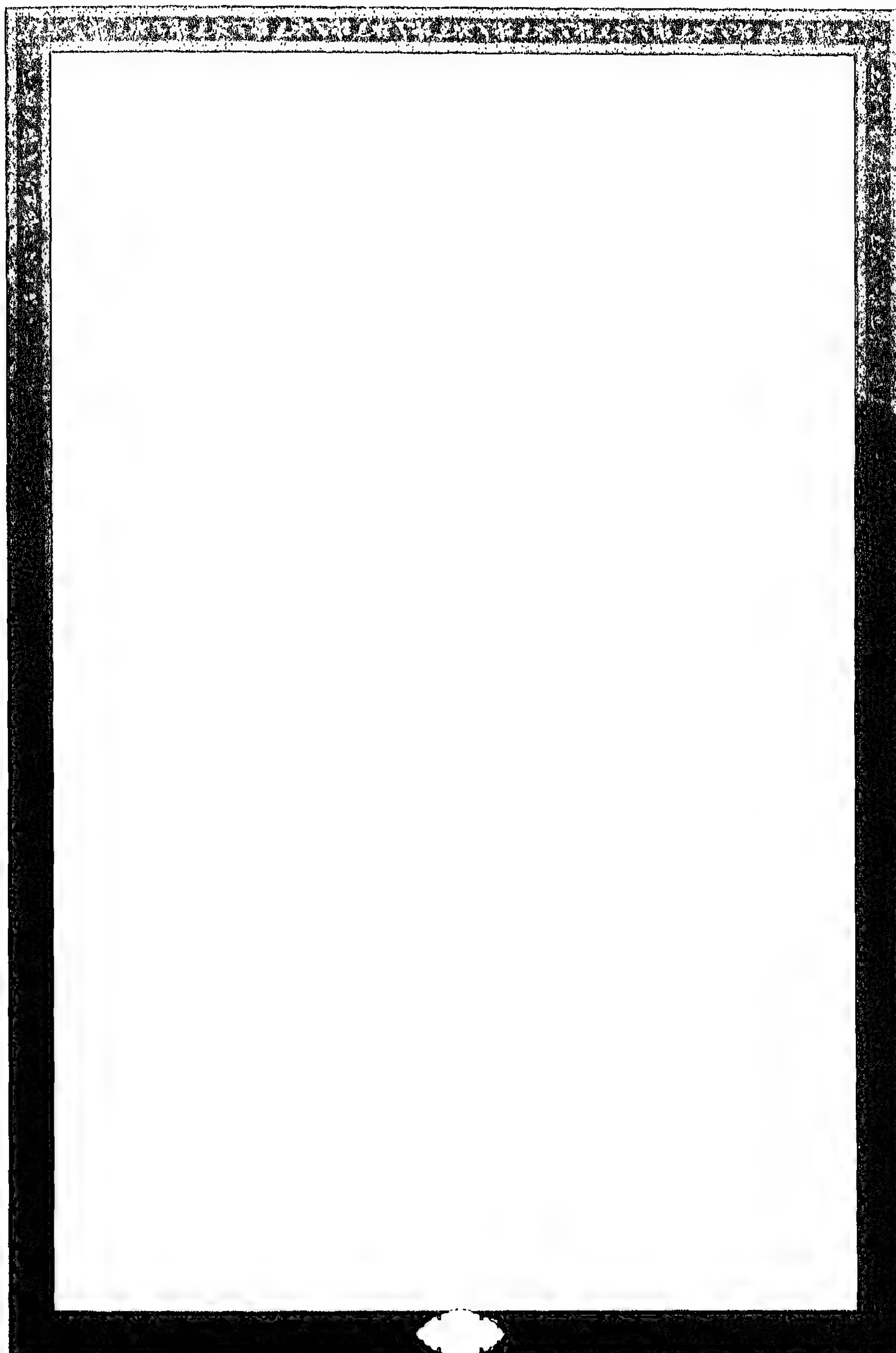
(١٦) انظر رقم /١/.



الرسالة الثانية عشرة

سيدي :

والشعر أجمله ما كنت مضمونه



سَيِّدي أبا الزَّهراءِ، وعبيرٌ منكَ يحيلُ الدُّنيا ذات أرَجٍ فوَّاحٍ عَطِرٍ، فإنْ سرى في النَّفسِ طيَّبَها، وإنْ داخلَ الحياةَ أسعدَها، وإنْ امتدَّ في العقولِ قوَّاها، وإنْ خالطَ الرُّوحَ لطَّفَها، وإنْ حطَّ على الشِّعرِ أحياه. وهنا الموقفُ، فما أرقَّ وأعذبَ وأصدقَ شعراً أنتَ فيه المرادُ والحبيبُ والمطلوبُ.

أنا ما مدحتُ مُحَمَّداً بقصائدي   لكنْ مدحتُ قصائدي بمُحَمَّدِ[1]

سأتولى عرضَ بعضِ ما قيلَ فيكَ شعراً لأنثرَهُ بين يديكَ، بله بين قدميكَ، ياسَيِّدَ السَّاداتِ، فعساه يكونُ إذناً لي بالدُّخولِ إلى رحابِكَ ولثمِ أعتابِكَ.

فأنا يا أيُّها المرسَلُ الأكرمُ مستشفعٌ بكَ إليكَ، وبآلِ بيتِكَ، وهم بعضُكَ إليكَ:

يـاربٌ عبدٌ قد أسـَــا بفعـاله   و بذلّه قد مدَّ كـفَّ ســؤالهِ
وأتى حبيبـَك طـامعاً بـنواله   عـبدٌ توسَّــل بالنَّبيِّ وآلــه
فـبـحـقـّـهـم يـاربٌ لا تـخـزيـه[٢]

وأنا أعلمُ أنّي أقلُّ مِنْ أنْ أطلبَ، ولكنَّ الكرمَ العظيمَ منكم جذبني إليكم:

سَـيِّدي يا أبا البتولِ ســؤالٌ   من فقيــرٍ جـوابُهُ الإعـطـاءُ
هـجروني ولسـتُ أُنـكـرُ أنّي   لمْ أزلْ مـذنـباً و كلّي خطـاءُ
غيرَ أنّي التجأتُ قِدْماً إلـيهم   وعـزيزٌ على الـكـرامِ التجـاءُ
و طلبتُ الـنوالَ منهم و ظـنـي   بلْ يقيـنـي أنْ لا يخيبَ الرَّجاءُ[٣]

وحسانُ شاعرُكم غدا بالحُبِّ لكم حساناً، فهل أبدأُ بنقلِ بعضِ ماقالَهُ عن جنابِكمْ، وجميلٌ جداً هذا الذي غنّاه:

يا ركنَ مُعتَمدٍ و عـصمةَ لائذٍ   ومـلاذَ مُنْتَجعٍ و جـارَ مـجاورِ
يا مَنْ تـخيَّـرَهُ الإلــهُ لخلقِهِ   فحباهُ بـالخُلقِ الزَّكيِّ الـطَّـاهرِ
أنتَ الـنَّـبيُّ و خيرُ عُـصبـةِ آدم   يا مَنْ يجـودُ كفيضِ بحرٍ زاخرِ
ميـكالُ معكَ و جبرائيـلُ كـلاهُما   مـددٌ لنَصرِكَ مِنْ عـزيـزٍ قـادرِ

و أجملَ منكَ لمْ ترَ قطُّ عينٌ ... و أكملَ منكَ لمْ تلدِ النِّساءُ
خُلقتَ مبرَّءاً مِنْ كلِّ عيبٍ ... كأنَّكَ قد خُلقتَ كما تشاءُ

فما أشعرَ حسّان، إذ بالشِّعر عناكم، وما أصدقَ حسّان، إذ بالحب غنَّاكم. وابنُ رواحةَ، وما أدراكَ ما ابنُ رواحة ؟! لقدْ صدقَ وربِّ الكعبةِ، أجملَ الصِّدقِ يومَ قالَ فيكم سيِّدي:

إنّي تفرَّستُ فيكَ الخيرَ أعرفُهُ ... واللهُ يشهدُ أنْ ماخانني البصرُ
أنتَ النَّبيُّ ومنْ يُحرمْ شفاعتَهُ ... يومَ الحسابِ فقد أزرى به القدرُ
فثبَّتَ اللهُ ما آتاكَ مِنْ حَسَنٍ ... تثبيتَ موسى ونصراً كالذي نُصروا

أيُّها الحبيبُ العظيمُ، ها أنا أقدِّمُ بين النَّقلِ والنقل توسّلاً أرفعُهُ إلى اللهِ بك لأكونَ في عِدادِ مَنْ قبلتَهمْ لديكَ:

على أبوابِكمْ عبدٌ ذليلُ ... كثيرُ الشَّوقِ ناصرُهُ قليلُ
يمدُّ إليكمْ كفَّ افتقارٍ ... و دمعُ العينِ منهملٌ يسيلُ
أكونُ نزيلَكمْ و يُضامُ قلبي ؟ ... و حاشا أنْ يُضامَ لكم نزيلُ

واللهِ ياحبيبي لقدْ دمعتْ عيناي إذ قرأتُ ماسطَّرَتْهُ حشاشةُ صفيَّة، العمّةِ الرَّضيةِ، رضيَ اللهُ عنها وأرضاها:

ألا يارســولَ اللهِ كنتَ رجاءَنا ... و كنتَ بنا بَراً و لمْ تكُ جافياً
و كنتَ بنـا بـرّاً رحيـماً نبيَّنـا ... ليبكِ عليكَ اليومَ مَنْ كانَ باكياً
لعمريَ ما أبكي النَّبيَّ لموتِهِ ... و لكنْ لِهَرجٍ كانَ بعدَكَ آتياً
كأنَّ على قلبي لفَقْدِ مُحَمَّدٍ ... و مِنْ حُبِّهِ مِنْ بعد ذاك المكاويا
فدىً لرسولِ اللهِ أمّي وخالتي ... و عمّي و نفسي نُصرةً و عياليا
فلو أنَّ ربَّ العرشِ أبقاكَ بيننا ... سعدنا و لكنْ أمرُهُ كانَ ماضياً
عليكَ مِنَ اللهِ السَّلامُ تحيّةً ... وأُدخلتَ جنَّاتٍ مِنَ العدْنِ راضياً

وهاجَ بيَ الشوقُ إلى رؤياكَ فخلتُني اتطلّعُ إلى ساعةِ لقاكَ، وكلُّ ذرّةٍ فيَّ تشتهي وترتجي، وذاكَ حينَ رتّلتُ أبياتِ السيّدةِ خديجة رضي الله عنها في حقّكَ:

و لو أنَّ لي في كلِّ يومٍ و ليلةٍ ... بساطَ سليمانَ ومُلكَ الأكاسرة
لما عدلتْ عندي جناحَ بعوضةٍ ... إذا لمْ تكنْ عيني لوجهِكَ ناظرة

يا أيُّها الغالي على كلِّ عينٍ وقلبٍ في عالمِ الإنسانِ الواعي، لو جعلتُ كلَّ نبضةٍ مِنْ قلبي قصيدةَ ثناءٍ ما وفَّيتُ بعضَ قدرِكَ وحقّكَ:

يا مَنْ يُثيرُ حماستي بجمالِهِ ... عذراً إذا شاهدتَ ضَعفَ لساني
اللهُ يعلمُ كمْ حركّتَ في خَلَدي ... مِنْ ذكرياتٍ وكمْ هيّجتَ أشجاني

كمْ في دروبِكَ مِنْ دربٍ أصختُ له   كأنَّهُ بحديثِ الأمسِ ناجاني
لبَّيكَ ملءَ فمي لبَّيكَ ملءَ دمي   لبَّيكَ لبَّيكَ مِنْ قلبي ووجداني

نعم لبَّيكَ دون سواكَ مِنَ الخَلقِ، فأنتَ لي قائدٌ وعليٌّ حانٍ، وبي رؤوفٌ، وفيٌّ قائمٌ: ﴿واعلموا أن فيكم رسول الله﴾ الحجرات/٧.

يا ربُّ هبني يا رحيمُ مَراحماً   فقدْ اقترفتُ جرائراً وجرائماً
كمْ ذا ظُلمتُ و كمْ أتيتُ مظالماً   بحياتِهِ ارحمْ ظالماً مظلوماً
صلوا عليه وسلّموا تسليماً[٥]

صلّى اللهُ عليكَ وعلى آلكَ.
لقدْ جاءَكَ يا أيُّها الرَّسولُ العظيمُ واحدٌ مِنْ صحبِكَ الأكارمِ فقالَ: «وا ذُنوباه.. وا ذُنوباه»، يشتكي كثرتَها. فقلتَ لهُ: (قلْ اللهم مغفرتُكَ أوسعُ مِنْ ذنوبي، ورحمتُكَ أرجى عندي مِنْ عملي). فقالها، ثُمَّ قلتَ له: (عُدْ) فعاد. ثُمَّ قلتَ له: (قم فقد غفر الله لك) [٦].
وها أنا أقول:

يا ربُّ إنِّي في جوارِكَ لائذٌ   وبحصنِ عفوِكَ مِنْ عذابِكَ عائذٌ
ولديكَ جاهُ المصطفى هو نافذٌ   فلَهُ التجأتُ فلنْ أُرى محروماً
صلوا عليه وسلّموا تسليماً[٧]

وهذه امرأةٌ طاعنةٌ في السِّنِ علَّمتْها التَّجربةُ، والعمرُ تجربةٌ لمن أرادَ جدٌّ غنية، أنَّ الحُبَّ موضوعهُ الخيرُ، وأنَّ الخيرَ مِنَ اللهِ، وأنَّ رسولَ الخيرِ رسولُ اللهِ، فتعلقتْ مُحبةً، وتغنَّتْ متشوّقةً، وصاحتْ تائقةً إلى ساعةِ وصالٍ، وجمعِ دارٍ:

على مُحَمَّدٍ صلاةُ الأبرارْ صلَّى عليكَ المصطفونَ الأخيارْ
قدْ كُنتَ قوّاماً بَكيَّ الأسحارْ ليتَ شعري والمنايا أطوارْ
هلْ تجمعُني ومُحَمَّداً الدارْ

مَنْ للشعرِ إلا مَنْ صدقَ، ومن للصدقِ إلا مَنْ أحبَّكَ، ومَنْ لحُبّكَ إلا مَنْ نظرتَ إليه:

أيا جيرةَ الشِّعبِ اليماني بحقِّكُمْ صِلوا أوْ مُروا طيفَ الخيالِ يزورُ
بعدتُمْ و لمْ يَبعدْ عن القلبِ حبُّكُمْ و غبتمْ و أنتمْ في الفؤادِ حضورُ
وضحوةُ عيدي يومَ أُضحي بِقُربِكمْ عليَّ مِنَ اللُّطفِ الخفيِّ سُتورُ[٨]

ياأيُّها العظيم:
أيُدركُني ضيمٌ و أنتَ ذخيرتي وأُظلمُ في الدُّنيا و أنتَ نَصيري

الشِّعرُ طيفُ انفعالٍ تتراءى فيه الآثارُ، وكلُّ الطيوفِ الفرِحةِ دونَ طيفِ

فرحةٍ بقدومِكَ:

وَرَدَ الـرَّبيعُ فحيِّـه ياصـــاحِ   و اذكرْ حديثَ الحبِّ للأرواحِ
واسمعْ صدى الألحانِ مطربةِ الدُّنا   و الـكونُ أُترعَ كأسُـهُ بالـرَّاحِ
قدْ طارتِ البُشرى لتعلنَ فرحةً   جـاءَ الهدى مِنْ فالقِ الإصباحِ
جاءَ الذي عمَّ الوجودَ جمالُهُ   يـا مـرحـباً بـهـديَّةِ الفتَّاحِ

وكلُّ الطيوفِ الحزينةِ دونَ طيفِ حزنِ يومِ الوداعِ إلى الرَّفيقِ الأعلى، والزَّهراءُ أصدقُ مَنْ عبَّرَ:

صُبَّتْ عليَّ مصائبٌ لو أنَّها   صُبَّتْ على الأيَّامِ عُدْنَ لياليا
و ماذا على مَنْ شمَّ تُربَةَ أحمد   أنْ لا يَشمَّ مدى الزَّمانِ غواليا

إيْ واللهِ وحسانُ مِنْ جملةِ الشَّاهدين:

كنتَ الســوادَ لناظري   فعَمِيَ عليكَ النَّــاظرُ
مَنْ شـــاءَ بعدَكَ فليمتْ   فعليكَ كنتُ أحــاذرُ

سَيِّدي أيُّها الحريصُ على أمَّتِكَ:
الشفاعةَ الشفاعةَ، والأمانَ الأمانَ.

عليكُمْ و إلاّ فالبكاءُ مَضيعُ و فيكُمْ و إلاّ فالرَّجاءُ قطيعُ
و عنكُمْ و إلاّ فالأحاديثُ ضلَّةٌ و منكمْ و إلاّ فالنَّوالُ وضيعُ
وَلوعٌ ولمْ أهجعْ لأجْلِ جمالكُمْ و مِنْ أين للطَّرْفِ الولوعِ هُجوعُ
أصولُ العُلا أنتمْ ونحنُ فروعُكمْ و يُلحقُ حُكماً بالأصولِ فُروعُ[١٠]

فاللهمَّ ألحقني بنسبِهِ، وحقِّقني بحسَبِهِ، واجعلْهُ روحاً لذاتي مِنْ جميعِ الوجوهِ ياعظيم.

محمود

الهوامش

(١) من شعر حسان بن ثابت رضي الله عنه.

(٢) من شعر الشيخ التقي النقي عيسى البيانوي الحلبي رحمه الله.

(٣) من شعر الشاعر المحبّ الواله الأديب يوسف النبهاني رحمه الله.

(٤) من شعر قديم، كنت أسمعه من أفواه المنشدين، ولم أعرف قائله.

(٥) من شعر العلاّمة يوسف النبهاني رحمه الله.

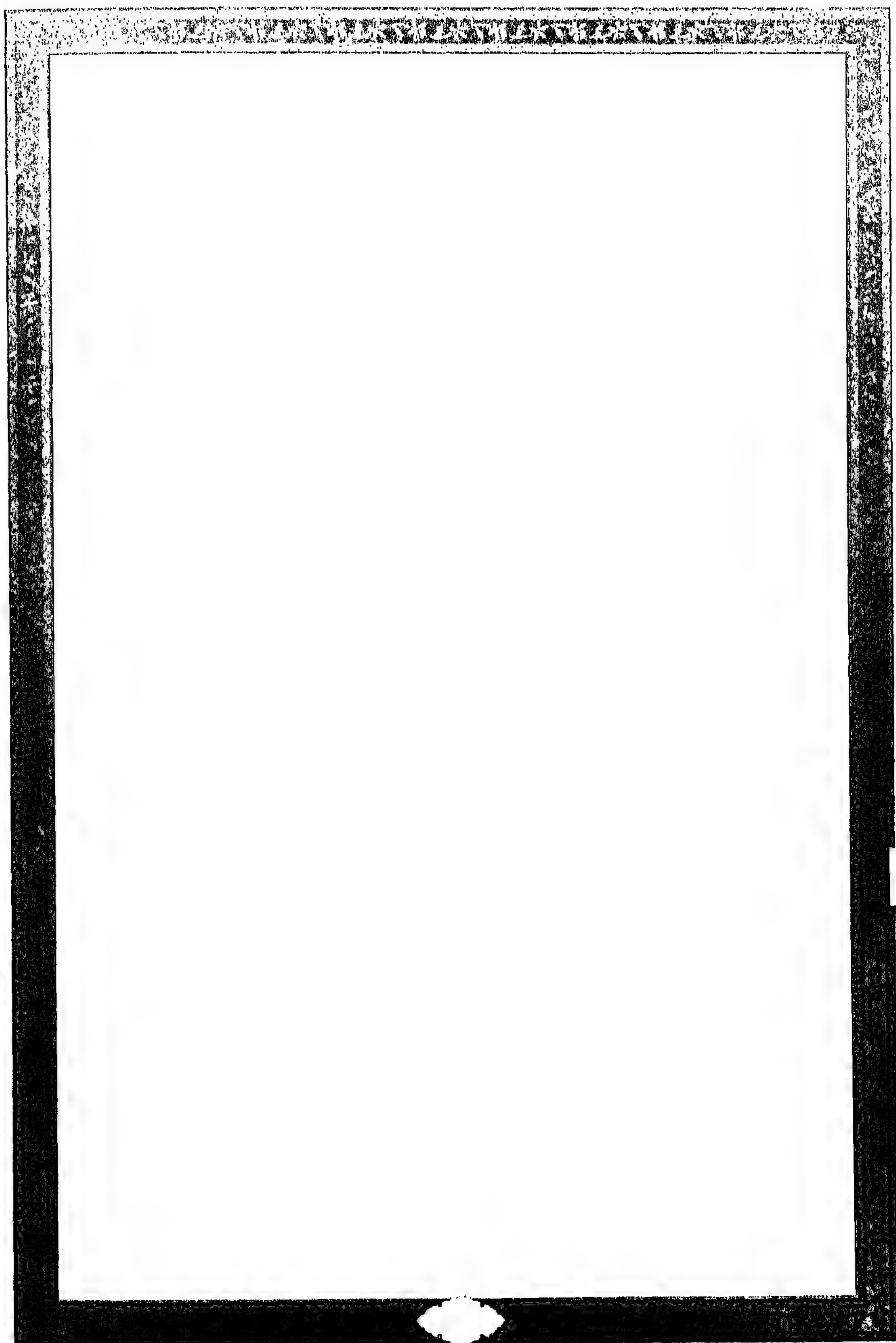
(٦) أخرجه الحاكم: المستدرك، ج ٥٤٣/١.

(٧) من شعر العلاّمة يوسف النبهاني رحمه الله.

(٨) من شعر السيد الروّاس رضي الله عنه.

(٩) من شعر رافع الرسائل وطالب الشفاعة محمود عكام.

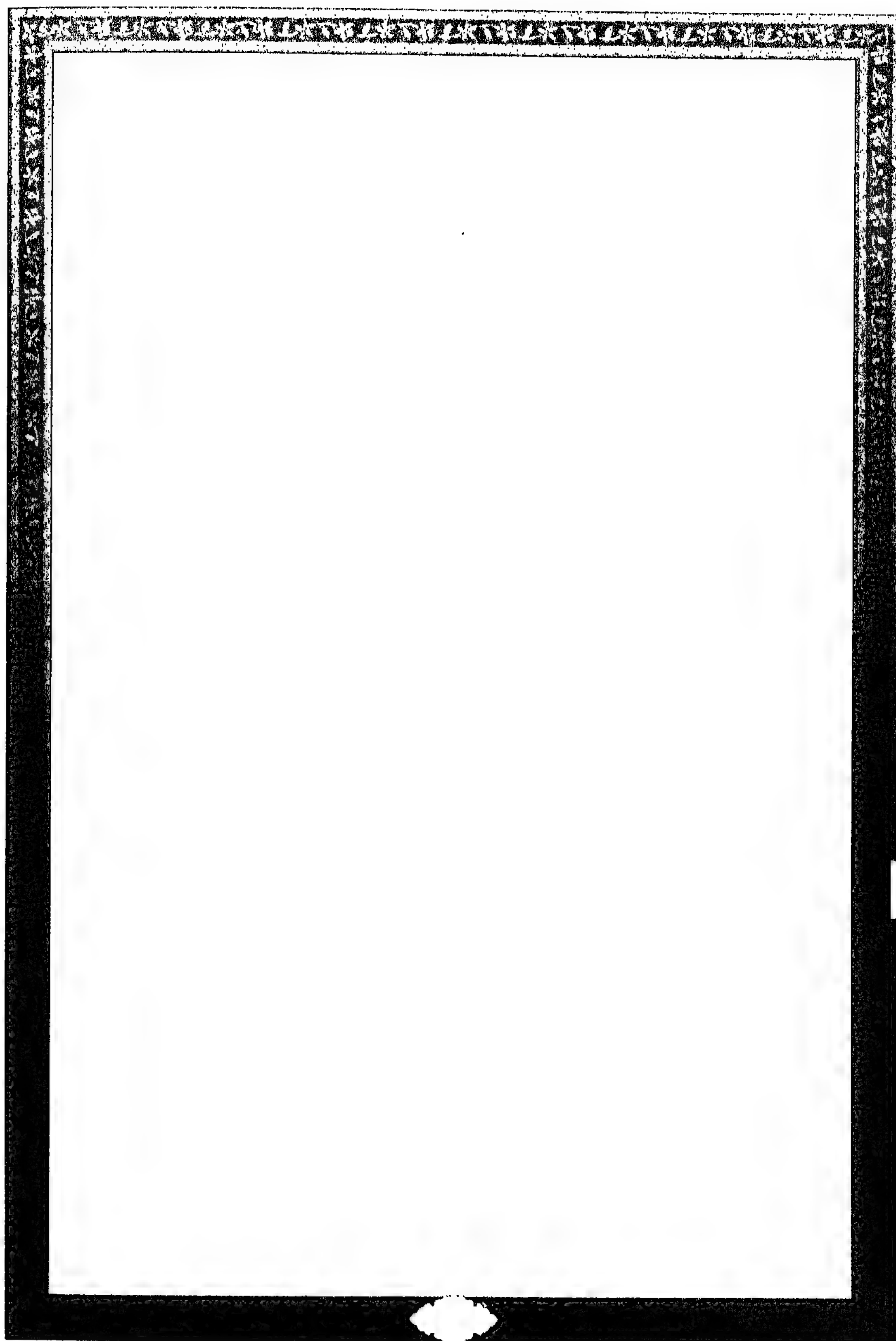
(١٠) من شعر السيد الرواس رحمه الله، وجزاه عنا خيراً.



الرسالة الثالثة عشرة

سيدي :

طبيب علمك الله فطوبى لمن طببت



الجسمُ تابعُ الرُّوحِ، لاشكَّ في ذلك، ومَنْ استطاعَ التَّأثيرَ في الأُولى كانَ على التَّأثيرِ في الثَّاني أقدرَ، لاسيَّما إذا كانَ وراءَ ذلكَ كلِّهِ رعايةُ اللهِ وقدرتُهُ وحفظُهُ وحمايتُهُ.

وأنتَ ياسَيِّدي يارسولَ اللهِ مَنْ كانَ للرُّوحِ طبيباً، وللجسمِ كذلك. رعيتَ فأعطيتَ الرِّعايةَ حقَّها، وصُنْتَ فكنتَ خيرَ الصائمينَ، وحميتَ فلمْ يُرَ في النَّاسِ أفضلَ منكَ حامياً.

و إذا رحــــمتَ فأنتَ أمٌّ أو أبٌّ   هذانِ في الدُّنيا هما الرحماءُ [1]

سأذكرُ هنا أيُّها الحبيبُ بعضَ ماوردَ عنكَ، وهمِّي في ذي الذِّكرِ والحكايةِ أنْ أمدَّ يدَ الاستشفاءِ، فعسى نظرةُ شفاءٍ منكَ تُمِدُّني، ياخيرَ نبيٍ، وخيرَ طبيبٍ وحبيبٍ.

فلأبدأ بقَتَادةَ، إذ أُصيبتْ عينُهُ، فسالتْ حدقتُهُ على وجنتِهِ، فأرادوا أنْ

يقطعوها فقالَ: لا حتَّى استأمَرَكَ، فقلت له: (لا). ثُمَّ وضعتَ راحتَكَ الشَّريفةَ على حدقتِه، فغمرتَها، فعادتْ كما كانتْ، بلْ أصبحتْ أصحَّ عينيه [٢].

وليستْ قصةُ أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عنَّا ببعيدة، إذ جاءَ ذكرُها في صحيحِ البخاريِّ، يومَ شكا إليكَ النِّسيانَ فقلتَ لهُ: (ابسُطْ رداءَكَ)، فبسطَ، فقذفتَ بيدِكَ الشَّريفةِ منَ الهواءِ في الرِّداءِ، ثُمَّ قلتَ لأبي هريرةَ: (ضُمَّهُ)، فضمَّهُ، وقالَ بعدَها: «فمَا نسيتُ شيئاً بعدُ» [٣].

وأمَّا أبو شَرَحبيلَ، فقدْ جاءَ إلى النَّبيِّ ﷺ، إليكَ ياأكرمَ شافعٍ، وأعظمَ النَّاسِ، يشكو سَلعةً - أي ورماً - في كفِّه، تحولُ بينَهُ وبينَ قائمِ السَّيفِ أنْ يقبضَ عليْه، وعلى عنانِ الدَّابةِ، فقلتَ لهُ: (ادنُ منِّي) فدَنا، ثُمَّ نفثتَ في كفِّه، ووضعتَ يدكَ الشَّريفةَ الطاهرةَ المطهَّرةَ عليها، فمازالتْ تطحنُها حتَّى رفعتَها، وما منْ أثرٍ لهذهِ السَّلْعةِ [٤].

سَيِّدي يا أبا البتولِ. لا أبالغُ في الوصفِ، وإنَّما سبيلي إلى ذلكَ النَّقلُ، وما أعظمَ نقلاً أنتَ فيهِ الخبرُ.

ولنتابعْ ياسَيِّدي، فها هو معاذُ بنُ عمرو بنِ الجموحِ يروي قصةَ يدِهِ يومَ ضربَها في معركةِ بدرٍ عكرمةُ بنُ أبي جهلٍ. يقولُ معاذٌ: «فتعلقتْ يدي بجلدةٍ منْ جنبي، وأجهدني القتالُ عنهُ، فلقدْ قاتلتُ عامةَ يومي، وإنِّي لأسحبُها خلفي، فلما آذتني وضعتُ عليها قدمي، ثمَّ تمطيتُ عليها حتَّى طرحتُها، وجئتُ رسولَ اللهِ أحملُ يدي فبصقَ عليها رسولُ اللهِ ﷺ فلُصقتْ» [٥].

ريقُكَ ياأيُّها الطبيبُ طبٌّ وطيبٌ، فما أعظمَك وما أكرمَكَ وما أحلمَكَ!
قرآنُكَ شفاءٌ ورحمةٌ، وعطاؤكَ واسعٌ وعالٍ، ودونَهُ القمّةُ.

وهل تُنسى خيبرُ إذ ناديتَ: (لأعطينَّ غداً الرايةَ رجلاً يحبُّ اللهَ ورسولَهُ ويحبُّهُ اللهُ ورسولُه) وتطلّعَ الجميعُ لهذا، ثُمَّ قلتَ: (أينَ عليٌّ؟) فقالوا: هو في بيتِهِ أرمدُ، يشكو عينَهُ، فقلتَ: (ادعوه لي)، وجاءَ ليلقى الطِّبَّ الوفيَّ، والبلسمَ النديَّ، منْ ريقكَ ياأيُّها الزكيُّ، ومسحتَ عينَهُ، فعادتْ أفضلَ ممَّا كانتْ عليهِ قبلَ المرضِ [٦].

أيُّها الحبيبُ، ياسيِّدي، ياأبا الزَّهراءِ: سلامٌ عليكَ حبيباً، وسلامٌ عليكَ شفيعاً، وسلامٌ عليكَ أحمدَ ومُحَمَّداً ومحموداً، سلامٌ عليكَ إلى يومِ الدِّينِ، ياآخرَ المرسَلين، وأكرمَ النَّبيّين.

محمود

الهوامش

---

(١) من شعر أمير الشعراء أحمد شوقي، رحمه الله.

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، ج ٣/١٠٠.

(٣) أخرجه البخاري: ك/المناقب، ح/٣٤٤٨.

(٤) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، ج ٦/١٧٦.

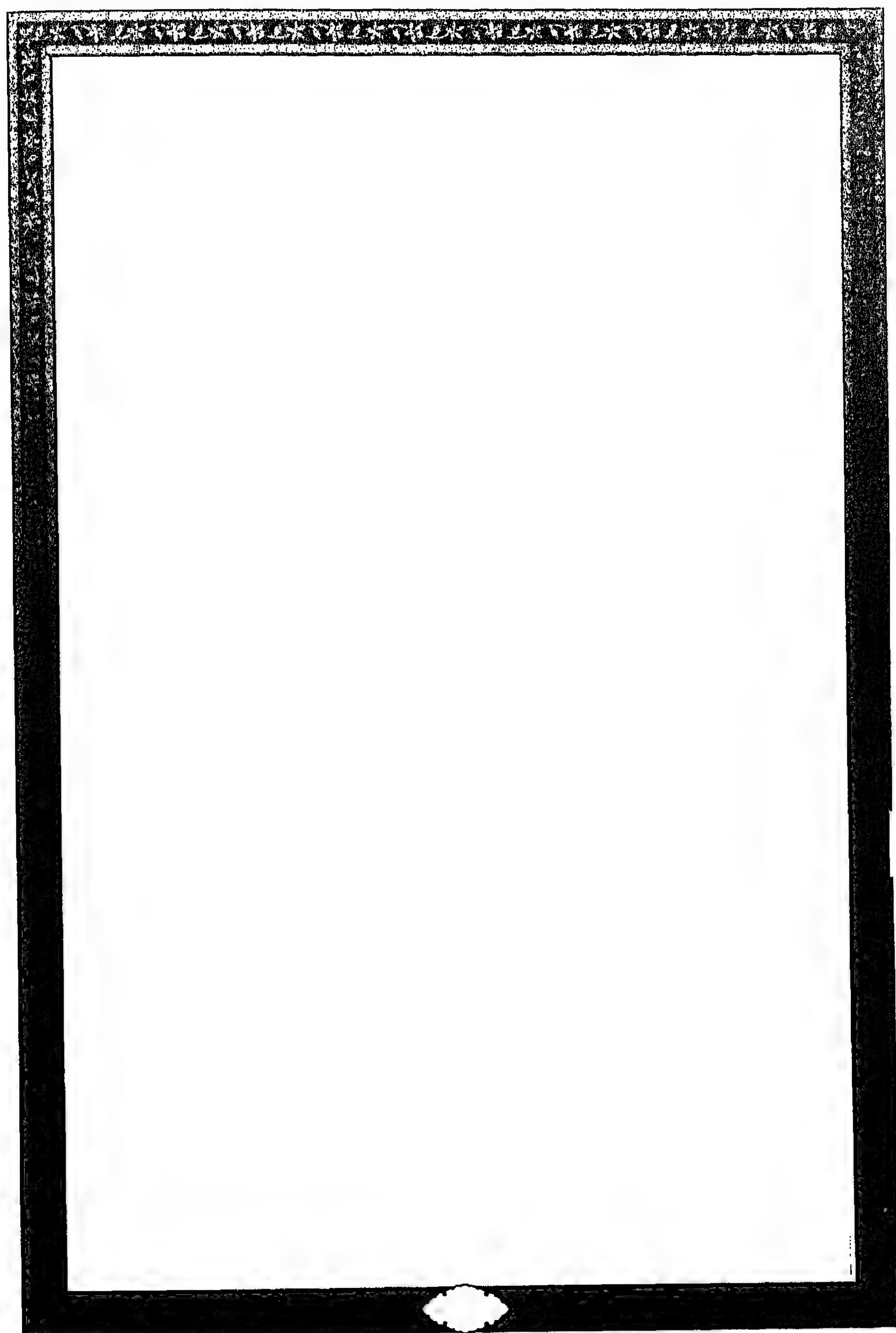
(٥) أخرج البيهقي في دلائل النبوة، ج ٣/٨٥، حتى قوله: طرحتها.
وفي شرح الشفا: ج ١/٦٥٦ بقية الرواية.

(٦) متفق عليه. البخاري: ك/الفضائل، ح/٢٤٩٨. مسلم: ك/الفضائل، ح/٢٤٠٦.

الرسالة الرابعة عشرة

سيدي :

قوتك دونها قوى كل الرجال



سَيِّدي أيُّها القويُّ باللهِ، المتمسِّكُ بحبلِ اللهِ المتين، إذا كانت القوَّةُ تُعتبرُ بما في القلبِ منْ ثقة، وبما أحاطَ بالجوارحِ منْ متانة، وبما مُكِّنَ بهِ اللِّسانُ منْ طاقة إقناع، فأنتَ الأوَّلُ بينَ النَّاسِ قوةً موهوبةً منَ اللهِ عطاءً حميداً، وأنتَ أنتَ خيرُ معلّمٍ، ياسَيِّدي، لكلِّ الأقوياءِ ليجعلوا قوتَهم تابعةً لإيمانِهم، وليكونوا في إظهارِها عقلاءَ، وفي إخفائها عقلاءَ.

أيُّها العظيمُ بينَ النَّاسِ، ولا عظيمَ سواكَ فيهم: مررتَ بعدَ غزوةٍ منْ غزواتِكَ بالسَيِّدةِ فاطمةَ ابنتِكَ الطاهرةِ، وتلك عادتُكَ، فرأتْكَ وبكتْ، وسألتَها: (ما يُبكيكِ يافاطمةُ). فقالتْ: « يارسولَ اللهِ ! أراكَ قدْ شَحُبَ لونُكَ، واخلولقَتْ ثيابُكَ...». فأجبتَها: (يافاطمةُ لا تبكي، فإنَّ اللهَ بعثَ أباكِ بأمرٍ لا يبقى على ظهرِ الأرضِ بيتُ مدرٍ ولا وبرٍ ولا شعرٍ إلا أدخلَهُ اللهُ بهِ، عزاً أوذلاً، حتَّى يبلغَ حيثُ يبلغُ اللَّيلُ والنَّهارُ)(1).

ثقةٌ دونَها الطَّودُ، وقوَّةُ يقينٍ مارُؤي لها مثيلٌ، وثباتٌ وإصرارٌ على الحقِّ

لمْ يُنسجْ لهُ نظيرٌ، فهلْ هذا إلاّ رسولُ اللهِ المختارُ الخاتم السَيِّد الأمين العظيم.

لن يغفلَ الأقوياءُ العقلاءُ عن أروعِ مَثَلٍ في الدعوةِ إلى المواجهةِ والصَّبرِ على ذلك، يوم جاءَكَ خبَّابٌ، وأنتَ مستظلٌّ في ظلِّ الكعبةِ، وطلبَ منكَ قائلاً: ألا تدعو لنا ؟! ألا تستنصرُ لنا ؟! فقلتَ: (**إنَّهُ كانَ فيمنْ كانَ قبلَكم، يُؤتى بالرَّجلِ فيُنشرُ بمنشارِ الحديدِ ما بينَ لحمِهِ وعظمِهِ مايصدُّهُ ذلكَ عن دينِهِ، واللهِ ليُتِمَنَّ اللهُ هذا الأمرَ حتَّى يسيرَ الراكبُ منْ صنعاءَ إلى حضرموتَ لا يخافُ إلا اللهَ والذئبَ على غنمِهِ ولكنَّكم تستعجلون**) [٢].

وقدْ تمّمَ اللهُ هذا الأمرَ، إي وربِّكَ، يارسولَ اللهِ، وزرعَ الأمانَ راياتٍ يحملُهَا المسلمون الأوفياء، وانتشرَ السَّلامُ شقائقَ نعمان في بقاعٍ شهدتْ روّاداً همُّهم اللهُ، صدقوا في طلبِهِ، وعشقوا الإخلاصَ له.

أبا الزَّهراء: أنت المختار، صُنعتَ على عينِ اللهِ، واللهُ قدْ قوَّاكَ قبْلُ إذ بعثَكَ وإبّانَ البعثةِ وبعدَها، لأنَّكَ لم تنتهِ، وإنْ خلصَ الجسمُ الشريفُ مِنَ الحياةِ المعتادة.

كنتَ صبياً، فاستُحلفتَ باللاّتِ والعُزّى فقلتَ: (**لا تسألني بهما شيئاً. فو اللهِ ما بغضتُ شيئاً بغضيَ لهما**) [٣].

فما أشدَّ ثباتَكَ !

وماأعظمَ تمسكَكَ !

وما أجرأَ القلبَ الذي ضمَّهُ صدرُكَ الشَّريفُ يا أيُّها المختار!

وخرجتَ يوماً في قافلةٍ، وكنتَ في السابعةَ عشرةَ منْ عمرِكَ، ورأيتُمْ

مِنَ الإبلِ جامحاً فتعرَّضْتَ لَهُ وكبحتَ جماحَهُ.

وكذلكَ بعدُ، والظروفُ في حقِّكَ سواءٌ، عندما فزعَ أهلُ المدينةِ ذاتَ ليلةٍ وانطلقَ ناسٌ قِبَلَ الصَّوتِ، وإذ بهم يَلقونَ الأمينَ عائداً قد استبرأَ الخبرَ على فرسٍ لأبي طلحةَ عريٍ، والسيفُ في عنقِهِ، فقالَ لهؤلاءِ: (لنْ تُراعوا) (٤).

لقدْ أحاطَ بما وقعَ علماً، ليس بالإخبارِ، ولكنْ بالمعاينةِ والمكاشفةِ والمباشرة.

سأرفعُ وأرفعُ وأرفعُ إليكَ التَّقديرَ إليكَ ماحييتُ، وسأبقى أردِّدُ على المسامعِ والآذانِ ما ردَّدهُ سلفي الصالحُ قبلي، وعلى رأسهم الإمامُ عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ صهرُكَ إذ قال: «كنّا إذا حميَ البأسُ واحمرَّتِ الحَدَقُ اتَّقينا برسولِ اللهِ، فما يكونُ أحدٌ أقربَ إلى العدوِّ منْهُ، ولقدْ رأيتُني يومَ بدرٍ ونحنُ نلوذُ بالنَّبيِّ، وهو أقربُنا إلى العدوِّ وكانَ أشدَّ النَّاسِ بأساً على الأعداء» (٥).

وما كانَ يقولُهُ ابنُ عمرَ: «ما رأيتُ أشجعَ ولا أنجدَ ولا أجودَ ولا أرضى مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ» (٦).

وكذلكَ ما حكاهُ البراءُ بنُ عازبٍ إذ كانَ يقولُ: «الشجاعُ هو الذي يَقربُ مِنَ النَّبيِّ إذا دنَا العدوُّ لقربِهِ مِنَ العدوِّ» (٧).

نعمتِ الشَّهاداتُ هذه، وبذي الشَّهادتِ سما الشاهدونَ، وعلتْ مراتبُهم، فقدْ أصابوا بالثَّناءِ حقاً، وقالوا في الامتداحِ صدقاً.

سَيِّدي يا رسولَ اللهِ يا سَيِّدَ الشُّجعانِ: في حُنينٍ يطأطئُ تاريخُ الشَّجاعةِ لكَ إجلالاً، بقيتَ وحدَكَ وحدَك، وانفضَّ مَنْ كانَ حولَكَ، ورحتَ تقولُ

بصوتٍ ملؤهُ الإيمانُ، ونغمتُهُ اليقينُ، ووتيرتُهُ الاطمئنان:

أنـــا الـــنَّـــبـــيُّ لا كـــذبْ

أنـــا ابـــنُ عـــبـــدِ المـــطـــلـــبْ

وها أنا أحكي عنكَ في ختامِ هذهِ الرِّسالةِ ما رواهُ عروةُ بنُ الزبيرِ، فاسمعيْ يا دنيا، واسمعوا يا أهلَها، وانصتوا يا مجاهدين، واستوعبوا يا ناس، لقدْ قالَ أُبيُّ بنُ خلفٍ يومَ أحد: «أينَ مُحَمَّدٌ؟ لا نجوتُ إن نجا». وكانَ يردِّدُ قبلَها في بدر: عندي فرسٌ أعلفُها كلَّ يومٍ فَرَقاً منْ ذُرة أقتلُكَ عليها. فقالَ لهُ النَّبيُّ ﷺ يومَها: (أنا اقتلُكَ عليها إنْ شاءَ اللهُ).

فلمَّا رآهُ شدَّ أُبيُّ بنُ خلفٍ على فرسِهِ على رسولِ اللهِ ﷺ فاعترضَهُ رجالٌ مِنَ المسلمين، فقالَ رسولُ اللهِ هكذا - أيْ تنحَّوْا عنْهُ - وتناولَ حربةً منَ الحارثِ بنِ الصِّمةِ فانتفضَ النَّبيُّ ﷺ بها انتفاضةً تطايروا تطايرَ الشَّعراء حولَهُ.

ثُمَّ استقبلَ النَّبيُّ ﷺ أُبيَّ بنَ خلفٍ بالحربةِ فطعنَهُ في عنقِهِ طعنةً تدأدأَ منها عنْ فرسِهِ مِراراً، وكسرَ ضلعَهُ، ورجعَ إلى قريشٍ يقولُ: «قتلني مُحَمَّدٌ»، وهمْ يقولونَ لا بأسَ بكَ، فقال لهم: «لو كانَ ما بي بجميعِ النَّاسِ لقتلَهم، أليسَ قدْ قالَ: أنا أقتلُكَ. واللهِ لو بصقَ عليَّ مُحَمَّدٌ لقتلني». ثُمَّ ماتَ. [٨].

لا واللهِ، مَاعاشَ مَنْ يهدِّدُ مُحَمَّداً، فتهديدُ مُحَمَّد تهديدُ الإنسانيةِ، تهديدُ الحرِّيةِ، تهديدُ الضَّميرِ، تهديدُ الأمانِ، تهديدُ الأمنِ، تهديدُ السَّلامِ والاطمئنانِ.

سَيِّدي رسولَ الحقِّ. مَنْ للشَّجاعةِ إنْ لمْ تكنْ لها ؟ ومَنْ للحكمةِ إنْ لمْ تكنْ لها ؟

فأنتَ أنتَ الشجاعةُ والإيمانُ والحكمةُ والأمانُ.

دمتَ علينا حامياً، وعنَّا مدافعاً، وعنِ الشَّريعةِ الغرَّاءِ مكافحاً.

وجزاكَ اللهُ عنَّا يا سَيِّدي كلَّ خيرٍ، وكلَّ فضلٍ، وكلَّ إحسانٍ، وكلَّ امتنان.

محمود

الهوامش

(١) حياة الصحابة: ج ١/٤٧.

(٢) أخرجه البخاري: ك/الإكراه، ح/٦٥٤٤.

(٣) عيون الأثر: ج ١/٦٢.

(٤) متفق عليه. البخاري: ك/الجهاد، ح/٢٧٥١. مسلم: ك/الفضائل، ح/٢٣٠٧.

(٥) أخرجه أحمد: ح/١٤٦ ج ٢/١٥٦، وح/٦٥٤، ج ١/٤٤٩.

(٦) أخرجه الدارمي: المقدمة، ح/٥٩.

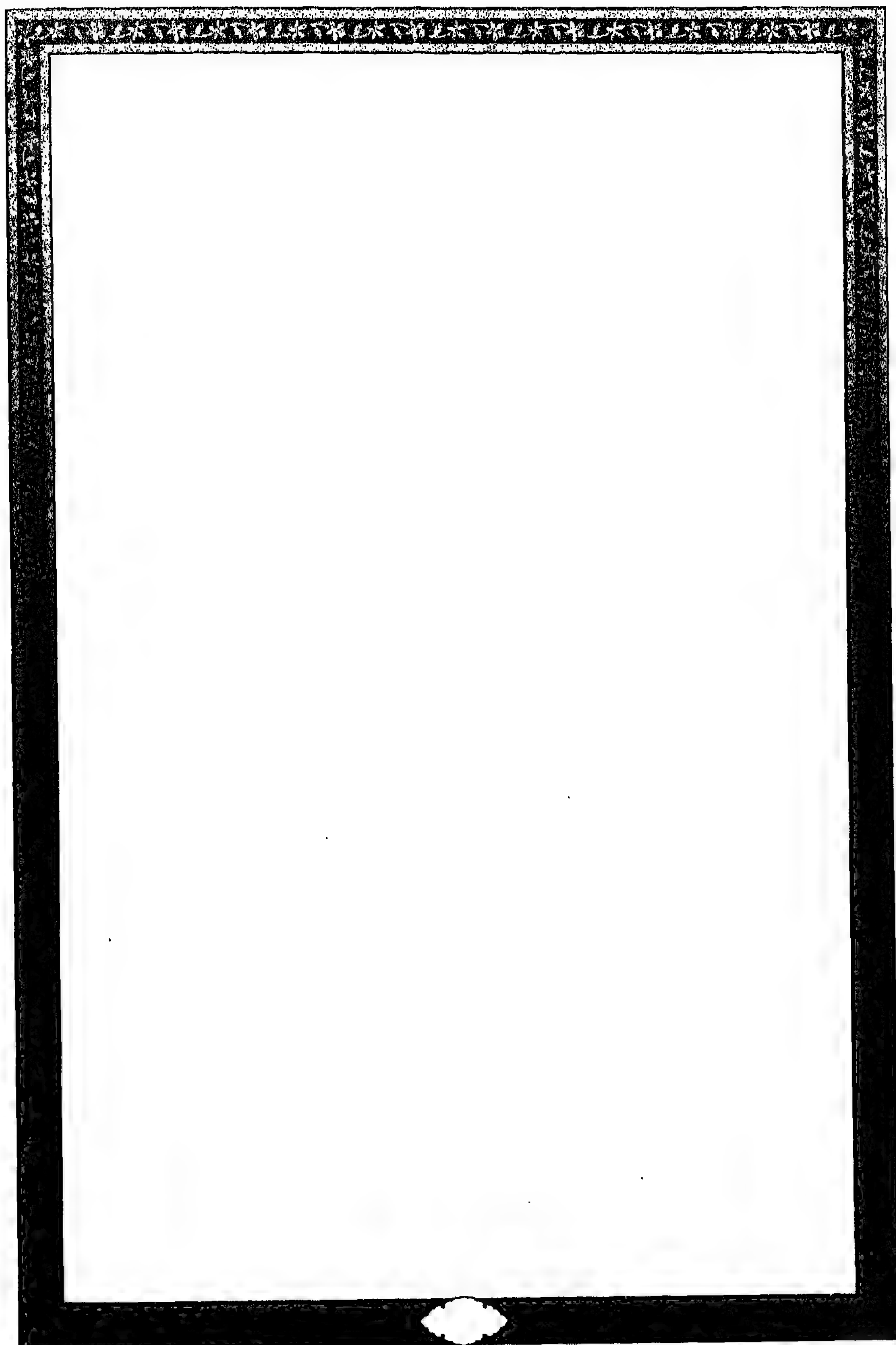
(٧) أخرج مسلم نحوه: ك/الجهاد، ح/١٧٧٦.

(٨) السيرة النبوية: ابن هشام.

الرسالة الخامسة عشرة

سيدي:

لطفك فاق كل لطف



يا أيُّها الحبيبُ. قرأتُ سيَراً كثيرةً، فلمْ أجدْ كسيرتِكَ، واطَّلعتُ على شيمٍ كثيرةٍ، فلمْ أطَّلعْ على مثلِ شيمكَ.

الحبُّ لا يغادرُكَ، والأنسُ يستأنسُ بِكَ، واللُّطفُ حالٌ لا تكادُ تفارقُكَ، فما أعظمَكَ، وما ألطفَكَ، وما أكملَكَ، وما أجملَكَ !؟

سَيِّدي يا رسولَ اللهِ:

إذا كانَ القلبُ يتعلَّقُ عبرَ مساربَ تربطُ بينهَ وبينَ موضوعِ التَّعلقِ، وتهفو منْ خلالِ مسالكَ تنقلُ لهُ ما يتناسبُ معَه وينسجمُ وتركيبتَهُ، فأحرِ بعدَ تدقيقٍ أن تكونَ جميعُها، مساربَ ومسالكَ، واصلةً بينَ القلوبِ المُحبَّةِ وبين المصطفى ﷺ، إذ هو، أعني أنتَ يا رسولَ اللهِ، الأنسبُ والأجدرُ في عالَم الإنسانِ منْ أجلِ أن تكونِ المتعلّق لقلوبٍ ترجو حُباً وتبغي في الحُبِّ صدقاً.

أنتَ يا أبا القاسمِ متمِّمُ الأخلاقِ، وهكذا قلتَ، وقولُكَ حقٌّ : (بُعثتُ

لأتمِّمَ صالحَ الأخلاقِ) (١).

وقدْ وصفَكَ عبدُ اللهِ بنُ عمرو بنِ العاصِ نقلاً عن ما جاءَ في التَّوراةِ فقالَ: «إنَّهُ لموصوفٌ في التوراة ببعضِ صفتِهِ في القرآنِ: يا أيُّها النَّبيُّ إنَّا أرسلنَاكَ شاهداً ومبشِّراً ونذيراً وحرزاً للأمِّيين. أنتَ عبدي ورسولي، سمَّيتُكَ المتوكِّلَ، ليسَ بفظ ولا غليظ ولا صخَّابٍ بالأسواقِ، ولايدفعُ بالسيئة السيئة، ولكنْ يعفو ويغفرُ، ولنْ يقبضَهُ اللهُ تعالى حتَّى يُقيمَ بِهِ الملَّةَ العوجاءَ، بأنْ يقولوا لا إلهَ إلاَّ اللهُ، ويفتحَ به أعيناً عُمياً، وآذاناً صُماً وقلوباًغلفاً» (٢).

وأمَّا أنسٌ خادمُك فقدْ قالَ عنكَ يا رسولَ الحُبِّ واللُّطفِ: «كانَ رسولُ اللهِ أشدَّ النَّاسِ لطفاً، واللهِ ما كانَ يمنعُ في غداة باردة منْ عبد ولا أمة تأتيه منْ الماءِ، فيغسلُ وجهَهُ وذراعيه، وما سألَهُ سائلٌ قطُّ، إلاَّ أصغى إليه، فلاينصرفُ حتَّى يكونَ هو - أي السائل - الذي ينصرفُ عنهُ، وما تناولَ أحدٌ قطُّ يدَهُ إلا ناولَهُ إيَّاها، فلا ينزعُ يدَهُ حتَّى يكونَ الرَّجلُ هو الذي ينزعُ منهُ » (٣).

ويتابعُ أنسٌ شهادةَ اللُّطفِ بسيِّدِاللُّطفاءِ، فيقولُ: «خدمتُ رسولَ اللهِ ﷺ عشْرَ سنين فما قالَ لي: أُفٍّ قط، وما قالَ لي لشيءٍ فعلتُه: لمَ فعلتَهُ ؟ ولا لشيءِ لمْ أفعلْهُ: لِمَ لَمْ تفعلْهُ ؟» (٤).

«وما سبَّني سبَّةً قط، ولا ضربني ضربةً، ولا انتهرني، ولاعبسَ في وجهي، ولا أمرَني بأمرٍ فتوانيتُ فيه فعاتبني عليه، فإنْ عاتبني عليه أحدٌ منْ أهله قالَ: (دعوه لو قُدِّرَ شيءٌ كان) (٥)، هكذا يتابعُ أنسٌ رضي الله عنه.

أيُّها المختارُ، أهلُكَ وأزواجُكَ تاهوا تيهَ إعجابٍ في رحابِ لطفِكَ، وحاروا

حَيرةَ إكبارٍ في سماءِ عطفِكَ، واللُّطفُ والعطفُ وجهانِ متقابلانِ في علاقةِ الإنسانِ بالإنسانِ على أرضِ الإحسانِ.

ها هي عائشةُ، أوعائشُ، زوجُكَ المصونُ تحكي عنكَ قصةَ الأمانِ مرصَّعةً بيواقيتِ الأنسِ، تقولُ: «خرجتُ معَ رسولِ اللهِ ﷺ في بعضِ أسفارِهِ، وأنا جاريةٌ - حديثةُ السِّنِ - لمْ أحملْ اللَّحمَ ولمْ أبدُنْ، فقالَ للنَّاسِ: (تقدَّموا). ثُمَّ قالَ: لعائشةَ: (تعالَيْ حتَّى أسابِقَكَ) فسابَقْتُهُ فسبقْتُهُ. فسكتَ عنِّي حتَّى حملتُ اللَّحمَ وبدنتُ وسمنتُ، فخرجتُ معهُ في بعضِ أسفارِهِ، فقالَ: (تقدَّموا)، فتقدَّموا. فقالَ: (تعالَيْ أسابقُكِ) قالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها: فسبقني. فجعلَ يضحكُ، ويقولُ: (هذه بتلكَ)» [٦].

وكذلك شبَّانُكَ يشهدونَ، بحالِهم قبلَ قالِهم، وبقالِهم النَّابعِ منْ قلوبِهم، يشهدون يا سيِّدي بأنَّكَ ألطفُ النَّاسِ عِشرةً، وأنَّكَ أكرمُ النَّاسِ ظُرفاً، وأنَّكَ الذي لا نظيرَ لكَ في سِجلِّ محافلِ الرِّقةِ والرِّفقِ.

أيُّها الأنيسُ والشفيقُ: ومَنْ لمثلِ هذه الصفاتِ في الخَلْقِ إلاَّكَ، لقدْ عطشتَ يوماً مع ثُلةٍ منْ أصحابِكَ - كما يروي أبو قتادة - ورحتَ تسقيهم معَ الماءِ الذي يشربون عطاءَ الحُبِّ، فها هم جميعاً شربوا ولمْ تشربْ بعدُ، و قلتَ لأبي قتادة: (إنَّ ساقي القومِ آخرُهم شرباً) [٧].

فجَلَّ الذي أعطاكَ، وتباركَ مَنْ سوَّاكَ، يا أحسنَ النَّاسِ، يا أيُّها المختارُ طبتَ ساقياً وشارباً، طبتَ رفيقاً وعظيماً،

على النَّاسِ أن يتعرفوا عليكَ، إذا ما أرادوا الأسوةَ الإنسانيةَ الرَّفيعةَ،

وعلى أربابِ الصياغاتِ التَّعايشيةِ أن يلجؤوا إليكَ، إذا ما حرصوا على رسمِ ملامحِ قدوةٍ في ميادين اللّقاء المثمرةِ، والتّبادلِ الحسنِ في علاقاتِ العيشِ المشترك.

سُئلتْ السيِّدةُ عائشةُ رضي اللهُ عنها عنكَ عمَّا كنتَ تعملُ في البيت، فأجابتْ بأريحيةِ المقتنعِ دونَ أدنى ريب:

«كانَ بشراً منَ البشرِ، يخصفُ نعلَهُ، ويرقعُ ثوبَهُ، ويحلبُ شاتَهُ، ويعملُ ما يعملُ الرَّجلُ في بيته» (٨).

على أعتابِ ذكرى اللُّطفِ منكَ أتهادى نشوانَ، لأنِّي مُنتمٍ لهذا الفضاءِ المشبعِ بالهواءِ المنعشِ، والمليءِ بالنُّورِ المشعِّ المضيءِ. لقدْ كتبتُ بقلمي، ولكنَّ النَّقلَ تمَّ منْ بعضِ ما حواه قلبي.

فيا ساكنَ القلبِ، ويا مدادَ القلم، أنتَ اللُّطفُ جُلُّهُ، وأنتَ الأُنسُ في تجلياتهِ الإنسانيةِ الكبيرةِ، لكَ أنا بعضُ هديةٍ.

وافعلْ ما شئتَ، فلقدْ غدوتُ اليومَ لكَ ... يا معنى حروفِ اللُّطفِ.

محمود

الهوامش

(١) أخرجه أحمد: ح/٨٩٣٢، ج ٢٥٦/٩.

(٢) أخرجه البخاري: ك/البيوع، ح/٢٠١٨.

(٣) أخرجه ابن حجر في المطالب العالية: ح/٣٨٥٩، وابن سعد: ج ٣٧٨/١.

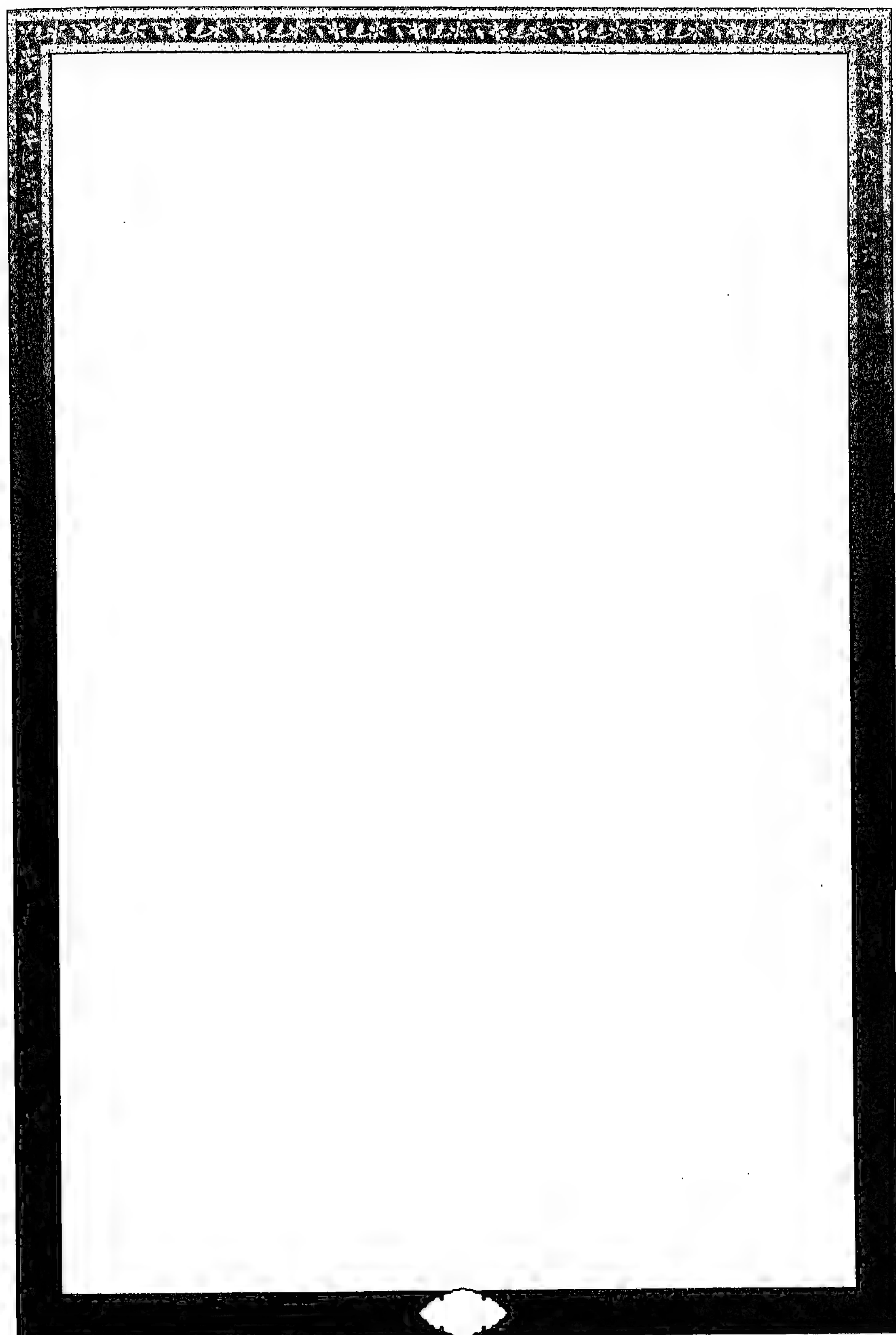
(٤) أخرجه أحمد: ح/٢٩٦٨، ج ٧٢/١١.

(٥) أخرجه أبو نعيم في الدلائل: ح/٥٧. وأحمد: ج ٢٣١/٣ من طبعة المعجم المفهرس.

(٦) أخرجه أحمد: ح/٢٤٠٠١، ج ٢٣٥/١٧.

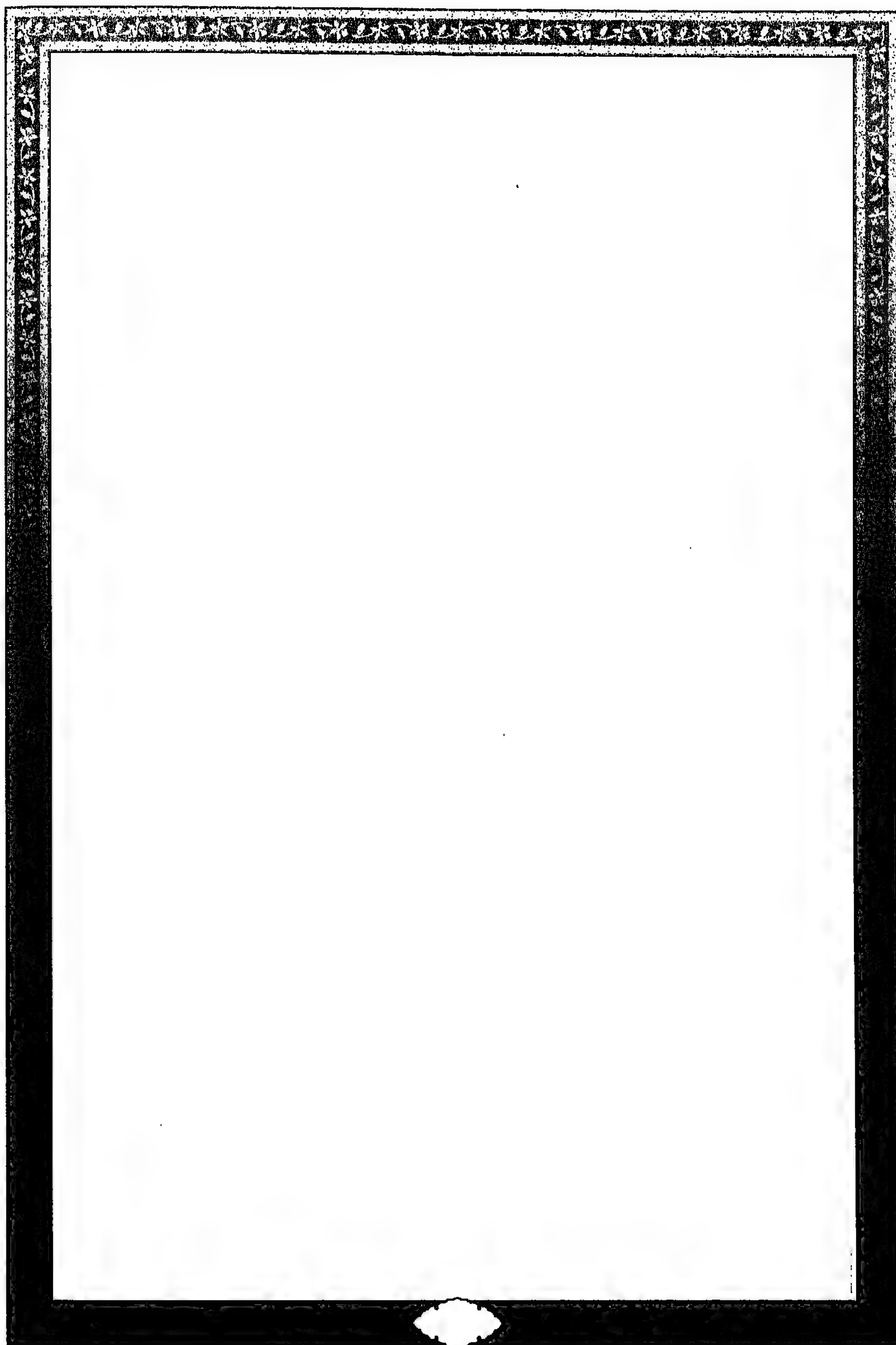
(٧) أخرجه مسلم: ك/المساجد، ح/٦٨١.

(٨) أخرجه أحمد: ح/٢٦٠٧٢، ج ١٥٧/١٨. و ح/٢٦١١٧، ج ١٦٧/١٨.



الرسالة السادسة عشرة

سيدي :
في الذكرى تحلو الكلمات من هنا وهناك



تطيبُ الذِّكرى، وتلَذُّ المناجاةُ، وتحلو العباراتُ، وتُسكَبُ للفرحةِ عَبَراتٌ، فلقدْ نادى منادي السَّماءِ منذُ أربعةَ عشرَ قرناً:

أنْ يا سماءُ تزيّني، ويا دنيا غرّدي، فلقدْ وُلِدَ مُحَمَّدٌ ﷺ.

فمبلغُ العلمِ فيه أنَّهُ بشرٌ ... وأنَّهُ خيرُ خلقِ اللهِ كلِّهم

فالجمالُ فوقَ المثالِ:

سألَ رجلٌ البراءَ بنَ عازبٍ: أكانَ وجهُ رسولِ اللهِ مثلَ السَّيفِ؟ قالَ: لا بلْ مثلَ القمرِ [1].

والخُلُق ما فوقَهُ مقامٌ:

قال الحسينُ رضي الله عنه: سألتُ أبي كيفَ كانَ رسولُ اللهِ؟ فقالَ: «كانَ رسولُ اللهِ ﷺ دائمَ البِشرِ، سهلَ الخُلقِ، ليِّنَ الجانب، ليسَ بفظٍ ولا بغليظٍ

ولاصخّاب، ولا فحّاشٍ ولا عيّاب، يتغافلُ عمّا لا يشتهي، ولا يؤيّسُ راجيَهُ، قد تركَ نفسَهُ منْ ثلاث: المراء، والإكثارِ، وما لا يعنيه، وتركَ النَّاسَ منْ ثلاث: كان لا يذمُّ أحداً ولا يعيبُهُ، ولايطلبُ عورتَهُ، ولا يتكلَّمُ إلا فيما رجا ثوابَهُ، وإذا تكلَّمَ أطرقَ جلساؤهُ، كأنَّما على رؤوسهِمُ الطيرُ، فإذا سكتَ تكلموا. لا يتنازعونَ عندَهُ الحديثَ، ومَنْ تكلَّمَ عندَهُ أنصتوا لهُ حتَّى يفرغَ، حديثُهم عندَهُ حديثُ أوَّلِهم. يضحكُ ممَّا يضحكونَ منهُ، ويتعجَّبُ ممَّا يتعجبونَ منهُ، ويصبرُ للغريبِ على الجفوةِ في منطقهِ ومسألته، ولايقبلُ الثَّناءَ إلا منْ مكافىءٍ، ولايقطعُ على أحدٍ حديثَهُ حتَّى يجوزَ فيقطعَهُ بنهيٍ أوقيام» [٢].

ويقولُ الواصفُ نفسُهُ الإمامُ عليٌّ عليه السلام: «ما رأيتُ أحداً أكثرَ تبسُّماً من رسولِ اللهِ ﷺ» [٣].

والجودُ أعظمُ منَ الكلامِ مهما كانَ:

يأتيه رجلٌ فيسألُهُ، فيقولُ النَّبيُّ ﷺ: **(ماعندي شيءٌ! ولكن ابتعْ عليَّ، فإذا جاءني شيءٌ قضيتُهُ).**

فقال عمر رضي الله عنه: «يا رسولَ اللهِ قد أعطيتَهُ! فما كلَّفكَ اللهُ ما لا تقدرُ عليه».

فكرهَ رسولُ اللهِ ﷺ قولَ عمرَ. فقالَ رجلٌ منَ الأنصارِ: «يا رسولَ اللهِ أنفقْ، ولا تخفْ منْ ذي العرشِ إقلالاً»، فتهلَّلَ وجهُ رسولِ اللهِ ﷺ، وعُرِفَ في وجههِ البِشرُ، وقالَ: **(بهذا أُمرتُ)** [٤].

أمَّا عبادتُهُ:

فيقولُ عنهُ واصفوه: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يصلِّي حتَّى تَرِمَّ قدماهُ. قالَ: فقيلَ لهُ: أتفعلُ هذا وقدْ غفرَ لكَ ما تقدَّمَ مِنْ ذنْبِكَ ومَا تأخرَ؟ فقال ﷺ: (أفلا أكونُ عبداً شكوراً) [٥].

وينقلُ أبو الشِّخِّيرِ عنهُ: أتيتُ رسولَ اللهِ ﷺ وهو يصلِّي ولجوفِهِ أزيزٌ كأزيزِ المرجلِ مِنَ البكاءِ [٦].

وإنْ أردتَ وصفاً لتواضعِهِ:

فاقرأْ سيرتَهُ، وسلْ معايشيهِ، فإنَّكَ سامعٌ ما لمْ تسمعْهُ عنْ أحدٍ سواه: «كانَ ﷺ يُدعى إلى خبزِ الشَّعيرِ والأهالةِ السَّنِخَةِ فيجيب» [٧].

«وكانَ يحلبُ شاتَهُ، ويرقعُ ثوبَهُ، ويخصفُ نعلَهُ، ويكونُ في خدمةِ أهلِه، وإنَّ المرأةَ لتأخذُ بيدِهِ إلى إحدى سككِ المدينةِ لتسألَهُ عن حاجةٍ لها فيجيب» [٨].

سلْ يا طالبَ الحقِّ عنهُ وتابعْ، سلْ عن جوعِهِ، وكيفَ كانَ يتحمَّلُ ذلكَ مِنْ أجلِ أمَّتِهِ وشعبِهِ، سلْ أبا طلحةَ كيف شكا إلى الرَّسولِ ﷺ الجوعَ ورفعَ عن بطنِهِ حَجراً، فرفعَ الرَّسول ﷺ عن بطنِهِ حَجرين [٩].

حتَّى إذا أكلَ أكلَ البسيطَ، وردَّدَ: (نعمَ الادامُ الخلُّ) [١٠].

يقولُ النُّعمانُ بنُ بشيرٍ: «إنَّ النَّبيَّ ﷺ يظلُّ اليومَ يلتوي ولايجدُ مِنَ الدَّقلِ ما يملأُ بطنَهُ» [١١].

وهلْ بعدَ هذا عظمةٌ بشريةٌ يمكنُ أنْ تُذكَرَ بجانبِ الذي ذكرنا؟!

فيا سيِّدَ النَّاسِ، أنتَ مُحَمَّدٌ، وأنتَ أحمدُ، وأنتَ الماحي الذي محا اللّهُ بكَ الكُفرَ، وأنتَ العاقبُ، وأنتَ نبيُّ الرَّحمةِ، وأنتَ نبيُّ التَّوبةِ، وأنتَ نبيُّ الملاحمِ.

طوبى لنا بكَ، وليتَ أنَّا عشنَا مَعَكَ، وكلُّنَا أملٌ أنْ نكونَ ممَّنْ قلتَ عنهم: **(مِنْ أشدِّ أمتي لي حُبّاً ناسٌ يكونون بعدي يودُّ أحدُهم لو رآني بأهلِهِ ومالِهِ)** (١٢).

طبتَ يا سيِّدي حيّاً نبياً ورسولاً وعابداً ومتواضعاً وجواداً وعظيماً وخلوقاً وجميلاً.

طبتَ ميتاً وقدْ حرَّمَ اللّهُ على الأرضِ أنْ تأكلَ الجسدَ الشَّريفَ.

طبتَ في روضِكَ الباهي تبلِّغُكَ الملائكةُ سلاماتِ أتباعِكَ وصلواتِهِمْ عليك **(إنَّ للهِ ملائكةً سياحين يبلغونَني عن أمَّتي السلامَ)** (١٣).

طبتَ يامَنْ لا يتمثَّلُ الشَّيطانُ بكَ وحاشاكَ. فمَنْ رآكَ فقدْ رآكَ، والشيطانُ أبداً لا يقربُ من رحابِكَ الطَّاهرةِ وهيهات.

فيا جيرةَ الشِّعبِ اليماني بحقِّكمْ	صِلوا أو مُرّوا طيفَ الخيالِ يزورُ
بعدتُمْ ولمْ يبعُدْ عنِ القلبِ حُبُّكُمْ	وغِبتُمْ وأنتمْ في الفؤادِ حضورُ
وضحوةُ عيدي يومَ أُضحي بقربِكُمْ	عليَّ مِنَ اللُّطفِ الخفيِّ ستورُ

الهوامش

(١) أخرجه البخاري: ك/المناقب، ح/٣٣٥٩.

(٢) حياة الصحابة: ج ٣٢/١، وقال: أخرجه الترمذي في الشمائل، والبيهقي في دلائل النبوة.

(٣) أخرجه الترمذي : ك/المناقب، ح/٣٦٤١.

(٤) شرح الشفا: ج ٢٥١/١.

(٥) أخرجه البخاري: ك/التفسير، ح/٤٥٥٧.

(٦) أخرجه أبو داود: ك/الصلاة، ح/٩٠٤. والنسائي: ك/السهو، ح/١٢١٣.

(٧) أخرجه البخاري: ك/البيوع، ح/١٩٦٣.

(٨) أخرجه أحمد: ح/٢٦١١٧، ج ١٦٧/١٨.

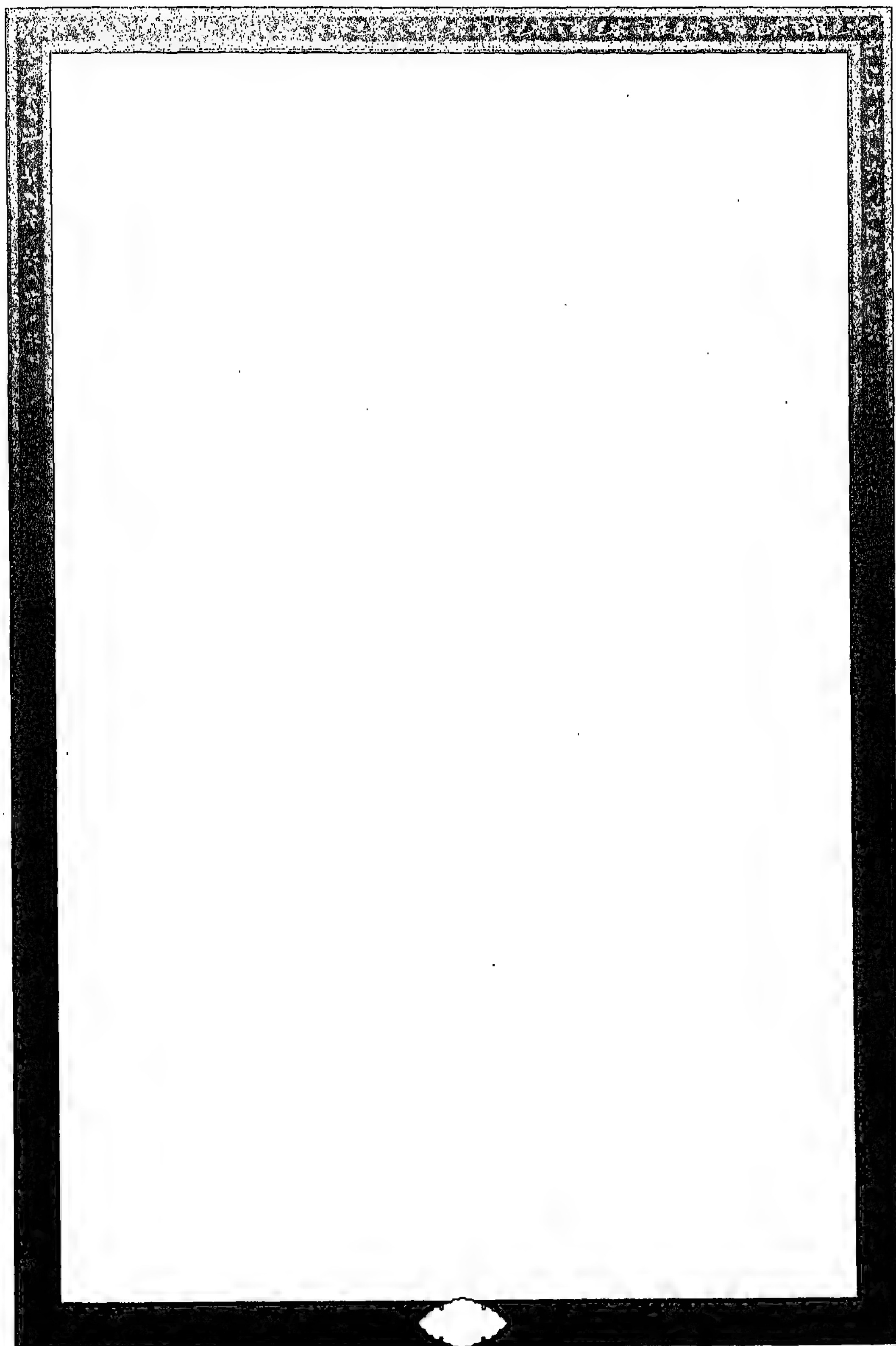
(٩) أخرجه الترمذي: ك/الزهد، ح/٢٣٧١.

(١٠) أخرجه مسلم: ك/الأشربة، ح/٢٠٥٢.

(١١) أخرجه مسلم: ك/الزهد، ح/٥٩٧٨.

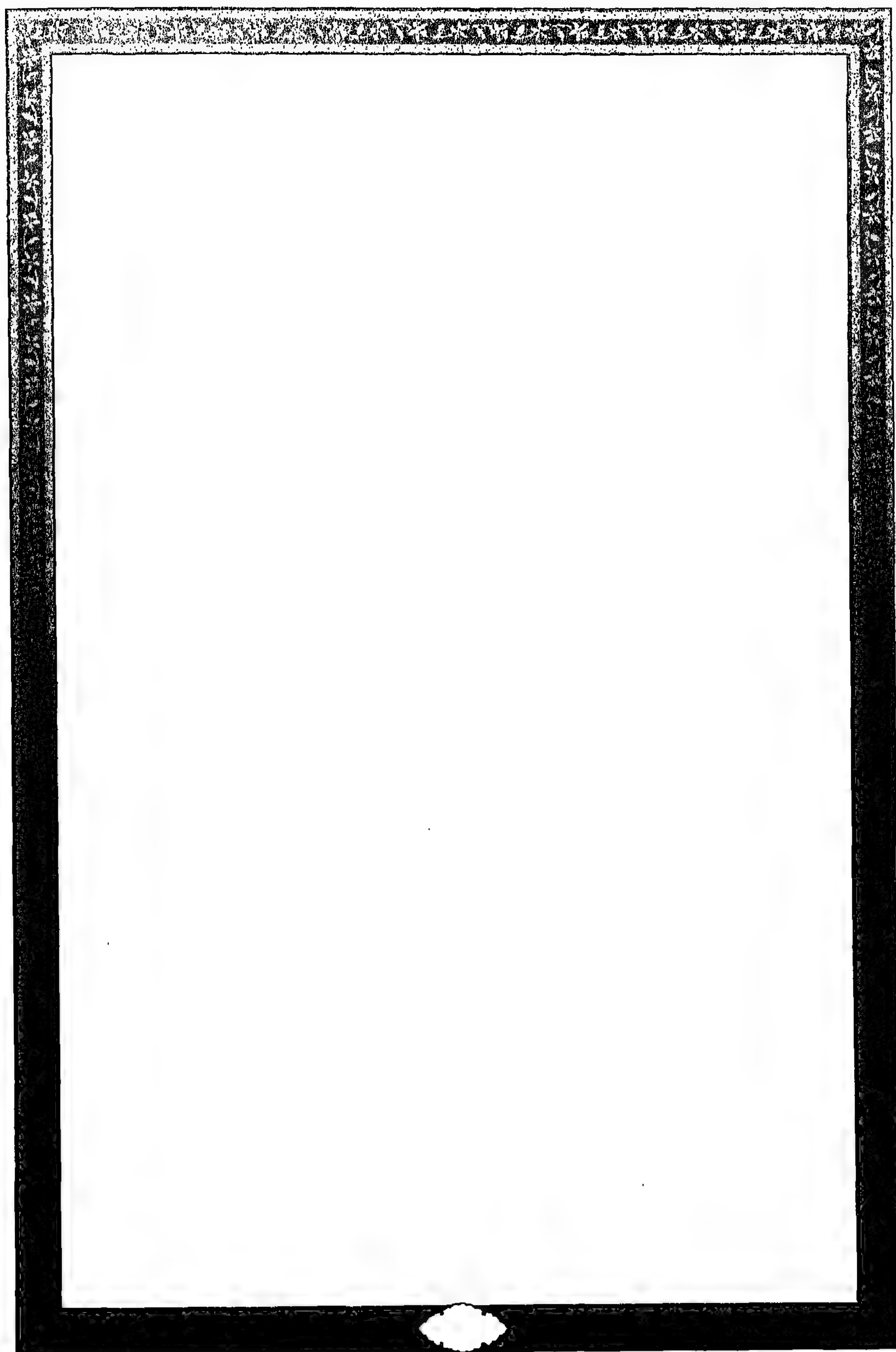
(١٢) أخرجه مسلم: ك/الجنة، ح/٢٨٣٢.

(١٣) أخرجه النسائي: ك/السهو، ح/١٢٨١.



الرسالة السابعة عشرة

نُقَاطٌ قِيَاسِيَّةٌ



سيِّدي يا أيُّها الإنسانُ الأعظمُ:

يحملُ الإنسانُ لقبَ البطولة منْ خلالِ موقفٍ ربحَ فيه وأعجزَ الآخرين، ويبقى يحملُ اللَّقبَ ويُسلّمُ لهُ النَّاسُ، هذا ما لمْ يأتِ آتٍ بأكثرَ ممَّا أتى به الأوّلُ.

أمَّا مواقفُكَ، يا سيِّدي، تلكَ التي حمَّلتْكَ عنوانَ «سيِّدِ النَّاسِ» و«واجبِ الاتِّباعِ» فلمْ تزلْ واضحةً مشرقةً.

لمْ يخبُ نورُها، ولمْ يضعفْ بريقُهَا، ولمْ يَزَل الآخرون في عجزٍ عن الإتيانِ بمثلِهَا، بلْ حتَّى بالقريبِ منها. إنْ شئتَ قلْ حتَّى بالصورةِ المصغَّرةِ عنها...

فللعالَمِ كلِّه سجلٌّ قياسيٌّ واحدٌ، ولكَ وحدَكَ سجل قياسيٌّ يفوقُ ذلكَ السجلَّ! فما أعظمَكَ وما أروعَكَ!

وليسَ لي أنْ أذكرَ كلَّ ما في سجلِّكَ، وأنَّى للصَّغيرِ أنْ يحيطَ بالكبيرِ.

إلاّ أنّي أستأذنُكَ، يا سيِّدَ الخَلقِ، لأذكرَ هنا بعضَ ما في السِّجلِّ المنيرِ المنوِّرِ، فعساها تغدو لأمَّتي اليومَ موئِلَ نورٍ، ومرجعَ أمانٍ، ومآبَ اطمئنانٍ.

لقدْ قلتَ يا أيُّها العظيمُ: (ما منَ الأنبياءِ نبيٌّ إلاَّ أُوتيَ منَ الآياتِ ما مثلُهُ آمنَ عليه البشرُ، وإنَّما كانَ الذي أوتيتُهُ وحياً أوحاه اللهُ إليَّ، فأرجو أنْ أكونَ أكثرَهم تابعاً يومَ القيامة)[1].

نعمْ يا سيِّدي، كلُّ مواقفِكَ وحيٌ دونَ استثناءٍ، وها أنا أُباشرُ ذكرَ ما وعدتُ بهِ قومي... منْ فيضِ فيضِ عطائِكَ، ونهلِ معينِ إكرامِ اللهِ لكَ.

فما أروعَ ما حدثَ، إذ انشقَّ القمرُ تأييداً لكَ. فقدْ جاءَ عبرَ السَّندِ الصَّحيحِ: «انشقَّ القمرُ على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ فرقتين: فرقةً على الجبلِ، وفرقةً دونَهُ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ : (اشهدوا)[2].

وليسمعْ ذوو السِّجلاَّتِ عامَّةً ما رواه ابنُ مسعودٍ عنكَ حينَ قالَ: «كنتُ غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعقبةَ بنِ أبي مُعَيْطٍ، فأتى عليَّ رسولُ اللهِ ﷺ وأبو بكرٍ وقدْ فرَّا منَ المشركين فقالا: يا غلامُ عندكَ لبنٌ تسقينا ؟ قلتُ: إنِّي مؤتمنٌ. فقالَ: هلْ عندكَ منْ جذعةٍ لمْ ينزُ عليها الفحلُ ؟ فقلتُ: نعمْ. فأتيتُهما بها، فاعتقلَها أبو بكرٍ، وأخذَ رسولُ اللهِ الضَّرعَ، فمسحَهُ فهلَّ الضَّرعُ، فأتاهُ أبو بكرٍ بصخرةٍ مقعَّرةٍ فحلبَ فيها، ثُمَّ شربَ هو وأبو بكرٍ، وسقاني. ثُمَّ قالَ للضَّرعِ: (اقلُصْ) فقلصَ كما كانَ»[3].

وأمَّا الجذعُ الباكي الحزينُ فحدِّثْ عنهُ ولا حرجَ، لقدْ تأوَّهَ للفراقِ، فراقِكَ يا سيِّدي يا رسولَ اللهِ، وقدْ روى الرُّواةُ الثِّقاتُ: «كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يقومُ إلى جذعٍ، فلمَّا اتَّخذَ المنبرَ وقعدَ عليهِ، خارَ الجذعُ كخُوارِ

الثَّورحتَّى ارتجَّ المسجدُ بخوارِه، فنزلَ إليه رسولُ اللهِ ﷺ فالتزمَهُ، فسكتَ. فقالَ: (والذي نفسي بيدِهِ لو لمْ ألتزمْهُ لمازالَ هكذا إلى يومِ القيامةِ) (٤).

ولنتابعْ حديثاً عن بعضِ النُّقاطِ القياسيةِ في سجلِّ الإنسانِ القياسيِّ على الإطلاقِ. يروي ابنُ مسعود: «كنَّا نسمعُ تسبيحَ الطَّعامِ وهو يُؤكلُ في حالِ أكلنا معَ رسولِ اللهِ ﷺ» (٥).

ويقولُ جابرٌ رضي الله عنه: «عطشَ النَّاسُ وقتَ الحُديبية، ورسولُ اللهِ بينَ يديه ركوةٌ يتوضَّأُ بها، ثُمَّ أقبلَ النَّاسُ نحوَه فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (ما لكم؟) قالوا: يا رسولَ اللهِ ليسَ عندنا ما نتوضَّأُ به ولا نشربُ، إلا ما في ركوتِكَ؟ قالَ: فوضعَ النَّبيُّ ﷺ يدَهُ في الرَّكوة، فجعلَ الماءُ يفورُ منْ أصابعِهِ كأمثالِ العيونِ. قالَ: فشربْنَا وتوضأْنَا. فقلتُ لجابرٍ: كمْ كنتمْ يومئذٍ؟ قال: لو كنَّا مئةَ ألفٍ لكفانا، كنَّا خمسَ عشرةَ مئة» (٦).

ونُقلِّبُ بعضَ صفحاتِ هذا السِّجلِّ بكلِ أدبٍ، لنرى أيضاً ما نواهُ أبو جهل، وما تحدَّى به يومَ قالَ - وهذا ديدنُ ذوي العداوةِ والبغضاءِ -: لئنْ رأيتُهُ يصلِّي لأطأنَّ على رقبتِه، أولأعفرنَّ وجهَهَ بالتُّراب، فأتى رسولَ اللهِ ﷺ وهو يصلِّي ليطأَ على رقبتِه، فما فجأهم منهُ إلاَّ وهو ينكفِئُ على عقبيه! فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (لو دنا منِّي لاختطفتْهُ الملائكةُ عضواً عضواً) (٧).

أمَّا الإسراءُ والمعراجُ تلكَ المعجزةُ الباهرةُ فأكرمْ بها منْ نقطةٍ قياسيَّةٍ لا يطالُها كلُّ من سعى إلى المبارزةِ والمبادرةِ.

ففي جزءٍ منْ ليلةٍ أُسريَ بهِ منْ مكَّةَ إلى بيتِ المقدسِ، ثُمَّ عُرجَ بهِ منْ

هناك إلى السَّموات العُلى، إلى سدرة المنتهى، ورأى منْ آيات ربِّه الكبرى ما رأى، فسبحانَ من أسرى بكَ يا سيِّدي، وجلَّ شأنُهُ وعزَّ مقامُهُ.

اصطفاكَ لرسالةِ الخلودِ، وأعطاكَ أعلى مقاماتِ الشُّهودِ، وهيَّأ أُمَّتَكَ للشَّهادةِ على حفظِ العهودِ.

وأخيراً: هلْ منْ منافسٍ فيتبارى؟ وهلْ منْ... ؟ وهلْ منْ... ؟

أينَ ما أتى بهِ الجميعُ في عالَمِ المبادئِ والدَّساتيرِ بجانبِ ما أنزلَهُ عليكَ العليمُ الخبيرُ ؟

أينَ كتبُهمْ منْ كتابِ ربِّكَ ؟!

وأينَ قوانينُهمْ منْ قانونِ السَّماءِ الذي أُوحيَ إليكَ قرآناً بدأ في غارِ حراء، وانتهى في جبلِ الرَّحمةِ في عرفات ؟!

أينَ ما كتبوا ممَّا جاءَ منْ عندِ اللهِ ؟!

﴿قُلْ لئنِ اجتمعَتِ الإنسُ والجنُّ على أنْ يأتوا بمثْلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثْلِه ولو كانَ بعضُهمْ لبعضٍ ظهيراً﴾ الإسراء/٨٨.

سيِّدي يا أبا الزَّهراءِ:

سجلُّكَ عظيمٌ لأنَّهُ سجلُّكَ، ونقاطُكَ القياسيَّةُ عظيمةٌ، لا يُمكنُ أنْ يُحقِّقَها ولا بعضَها إنسانٌ. فأنت:

لمْ يَخلقِ الخلاَّقُ خَلقاً مثلَهُ	لاخُلقَهُ لا خَلقَهُ لا شكلَهُ
لا أصلَهُ لاعدلَهُ لافضلَهُ	لا بعدَهُ لا قبلَهُ تعميماً

صلُّوا عليه وسلِّموا تسليماً[٨]

عليكَ يا سيِّدي أفضلُ ما صلَّى اللهُ على مرسَلٍ، يا صاحبَ السِّجلِّ الأمثل، في عالَمِ الإنسانيةِ الفُضلى.

محمود

الهوامش

(١) متفق عليه. البخاري: ك/الاعتصام، ح/٦٨٤٦. مسلم: ك/الإيمان، ح/١٥٢.

(٢) أخرجه البخاري: ك/التفسير، ح/٤٥٨٣.

(٣) أخرجه أحمد: ح/٣٥٩٨، ج ٣/٥٠٥.

(٤) أخرجه الدارمي: المقدمة، ح/٤١.

(٥) أخرجه البخاري: ك/المناقب، ح/٣٣٨٦.

(٦) أخرجه البخاري: ك/المناقب، ح/٣٣٨٣.

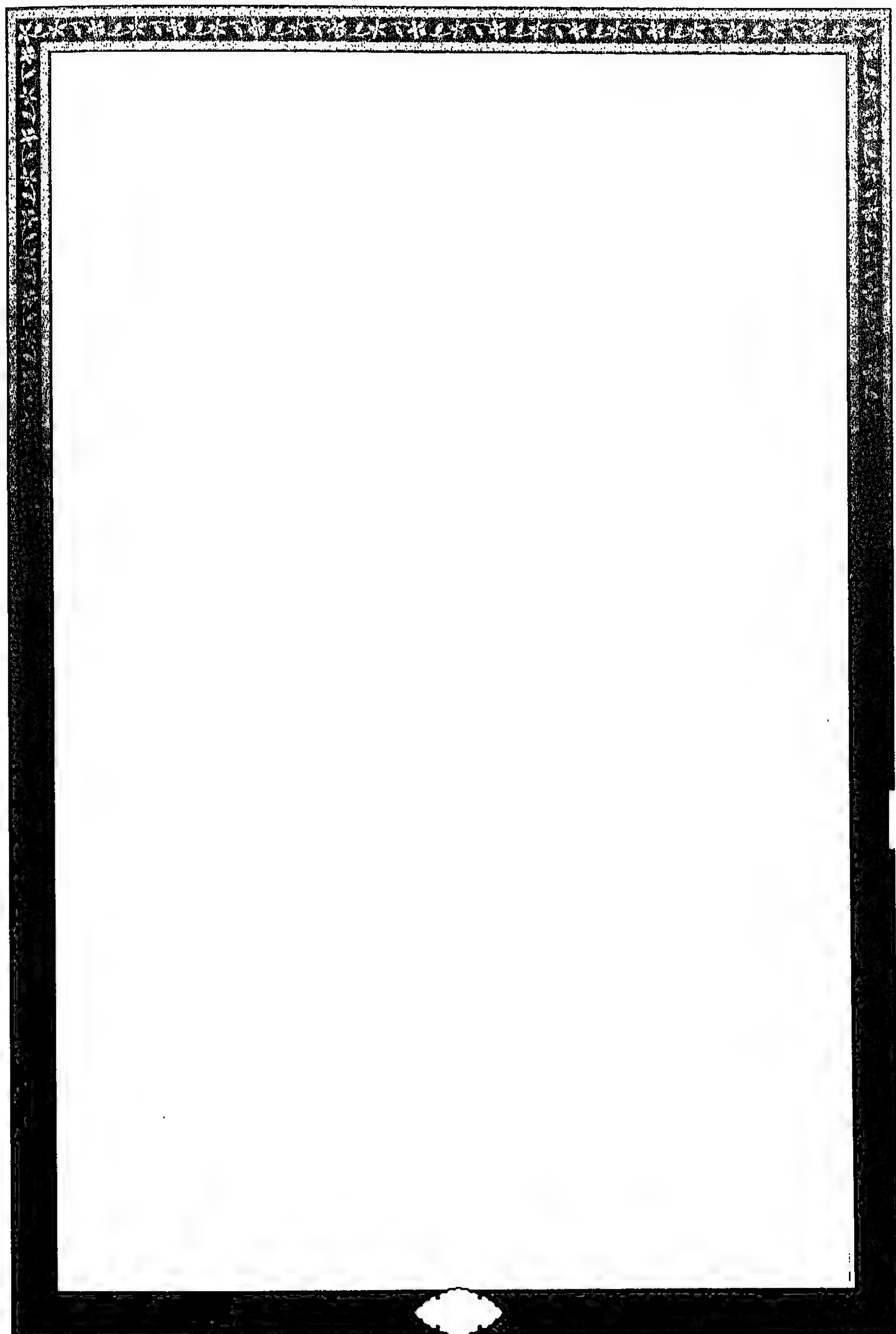
(٧) أخرجه مسلم: ك/صفة الجنة، ح/٢٧٩٧.

(٨) من شعر العلامة يوسف النبهاني رحمه الله.

الرسالة الثامنة عشرة

سيدي :

أنا العبد العابد والخليفة الساجد



إي واللهِ، يا سيِّدي يا رسولَ اللهِ:

أنتَ العبدُ الأسمى، والعابدُ الأتقى، والخليفةُ الأكملُ، والساجدُ الأنقى.

أنتَ لطاعةِ اللهِ عنوانٌ، ولعبادتهِ خيرُ مَنْ يكونُ ومَنْ كانَ، وأنتَ الأوّلُ في المقرّبين، وأنتَ سرٌّ أكبرُ للهِ ربِّ العالمين.

خُوطبتَ بقولِ العليِّ الأعلى: ﴿ولقدْ نعلمُ أنَّكَ يضيقُ صدرُكَ بما يقولونَ فسبِّحْ بحمدِ ربِّكَ وكُنْ منَ السَّاجدين﴾، فكنتَ الأسرعَ والأوْلى، ونُوديتَ بقولِ الحقِّ سبحانَهُ: ﴿واعبدْ ربَّكَ حتَّى يأتيَكَ اليقين﴾ الحجر/٩٧-٩٩، فاستجبتَ، وعبدتَ حقَّ العبادة. ثُمَّ قلتَ: (ما أُوحيَ إليَّ أنْ أجمعَ المالَ وأكونَ منَ التَّاجرين، ولكنْ أُوحيَ إليَّ أنْ سبِّحْ بحمدِ ربِّكَ وكنْ منَ السَّاجدين، واعبدْ ربَّكَ حتَّى يأتيَكَ اليقينُ)[1].

فأذَنْ لي يا سيِّدي أنْ أحدِّثَ أُمَّتي اليومَ عن بعضِ ما كنتَ تفعلُهُ إذ

تتوجَّهُ بالعبادةِ إلى خالقِكَ وربِّكَ:

لقدْ قمتَ يوماً بلْ أيَّاماً تصلي حتَّى تورَّمَتْ قدماكَ وتفطَّرت، فقالت لك السَّيدةُ عائشةُ: «يا رسولَ اللهِ لِمَ تصنعُ هذا وقدْغفرَ اللهُ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِكَ وما تأخَّرَ؟» فقلت: (افلا اكونُ عبداً شكوراً)[٢].

وكنتَ يا أيُّها المختارُ مَعَ كلِّ أعمالِكَ العظيمةِ تصلِّي كلَّ يومِ الضُّحى ثنتي عشرةَ ركعة، فما أعظمَكَ عابداً [٣].

ودخلَ عليكَ مرةً حذيفةُ فصلَّى مَعَكَ المغربَ، فبقيتَ تصلِّي إلى العشاءِ، فما أقواكَ فيما يُرضي اللهَ [٤].

ويروي حذيفةُ نفسُهُ فيقولُ: «صلَّيتُ مَعَ النَّبيِّ ﷺ ذاتَ ليلة فافتتحَ البقرةَ فقلتُ يركعُ عندَ المئة ثُمَّ مضى فقلتُ: يصلِّي بها في ركعة، فمضى، فقلتُ: يركعُ بها، ثُمَّ افتتحَ آلَ عمرانَ، فقرأها، ثُمَّ افتتحَ النِّساءَ، فقرأها، يقرأُ مترسِّلاً، إذا مرَّ بآية فيها تسبيحٌ سبَّحَ، وإذا مرَّ بسؤالٍ سألَ، وإذا مرَّ بتعوذ تعوَّذَ، ثُمَّ ركعَ فجعلَ يقولُ: سبحانَ ربِّي العظيمِ، فكانَ ركوعُهُ نحواً مِنْ قيامِهِ، ثُمَّ قالَ: سمعَ اللهُ لمنْ حمدَهُ، ثُمَّ قامَ طويلاً، قريباً ممَّا ركعَ، ثُمَّ سجدَ فقالَ سبحانَ ربِّي الأعلى، فكانَ سجودُهُ قريباً مِنْ قيامِهِ» [٥].

وأمَّا ابنُ عباسٍ: فكانَ يقولُ عنكَ، وينقلُ دعاءَكَ إذ تقومُ إلى الصَّلاةِ في جوفِ اللَّيلِ:

(اللَّهمَّ لكَ الحمدُ أنتَ نورُ السَّمواتِ والأرضِ ومَنْ فيهنَّ. أنتَ الحقُّ، ووعدُكَ الحقُّ، وقولُكَ الحقُّ، ولقاؤُكَ حقٌّ، والساعةُ حقٌّ.

اللهمَّ لكَ أسلمتُ، وبكَ آمنتُ، وعليكَ توكَّلتُ، وإليكَ أنبتُ، وبكَ

خاصمتُ، وإليكَ حاكمتُ، فاغفرْ لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ. إلهي لا إلهَ إلا أنتَ)[٦].

نعمْ يا سيِّدي كنتَ تقولُ في سجودِكَ: (اللهمَّ اغفرْ لي ذنبي كلَّهُ، دِقَّهُ وجُلَّهُ، أوَّلَهُ وآخرَهُ، وسرَّهُ وعلانيتَهُ)[٧].

فأنتَ واللهِ خيرُ عبدٍ وعابدٍ، وأكرمُ راكعٍ وساجدٍ، تبتَّلتَ ودعوتَ، وببابِ ربِّكَ حاجاتِكَ أنزلتَ، فقلتَ: (اللهمَّ إنِّي أُنزلُ بكَ حاجتي، وإنْ قصرَ رأيي، وضعفَ عملي، وافتقرتُ إلى رحمتِكَ، فأسألُكَ يا قاضيَ الأمورِ، ويا شافيَ الصدورِ، كما تجيرُ مِنَ البحورِ، أنْ تجيرَني مِنْ عذابِ السَّعيرِ، ومِنْ دعوةِ الثُّبورِ، ومِنْ فتنةِ القبورِ.

اللهمَّ يا ذا الحبلِ الشَّديدِ، والأمرِ الرَّشيدِ، أسألُكَ الأمنَ يومَ الوعيدِ، والجنَّةَ يومَ الخلودِ، مَعَ المقربينَ الشُّهودِ، الرُّكَّعِ السُّجودِ، الموفينَ بالعهودِ، إنَّكَ رحيمٌ ودودٌ، وإنَّكَ تفعلُ ما تريدُ)[٨].

بوركتَ يا سيِّدَ الكائناتِ من داعٍ ومستغفرٍ ومسبِّحٍ، أولستَ القائلَ: (إنَّهُ ليغانُ على قلبي، وإنِّي لأستغفرُ اللهَ في اليومِ مئةَ مرةٍ)[٩].

وأيضاً :(اللهمَّ أنتَ ربِّي. لا إلهَ إلا أنتَ. خلقتَني وأنا عبدُكَ، وأنا على عهدِكَ ووعدِكَ ما استطعتُ، أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ ما صنعتُ، أبوءُ لكَ بنعمتِكَ عليَّ، وأبوءُ بذنبي، فاغفرْ لي فإنَّهُ لا يغفرُ الذُّنوبَ إلا أنتَ).

ثُمَّ وعدتَ أُمَّتَكَ أنَّ مَنْ قالَ هذا الذي أسميتَهُ سيِّدَ الاستغفارِ موقناً فماتَ قبلَ أن يُمسيَ فهو مِنْ أهلِ الجنَّة، ومَنْ قالَها في اللَّيلِ وهو موقنٌ بها فماتَ قبلَ أنْ يصبحَ فهو مِنْ أهلِ الجنَّةِ[١٠].

وتابعتَ دعوتَك أُمَّتكَ لتكثرَ الاستغفارَ، فإنَّهُ عونٌ على الحياةِ، وأنتَ يا سيِّدي تريدُ لأمَّتكَ حياةً كلّها عونٌ وأمانٌ:

(مَنْ لزمَ الاستغفارَ جعلَ اللهُ لهُ مِنْ كلِّ همٍّ فرجاً، ومِنْ كلِّ ضيقٍ مخرجاً، ورزقَهُ مِنْ حيثُ لا يحتسبُ) [١١].

أيُّها المختارُ: ها أنا أختمُ هذهِ الرِّسالةَ قائلاً ومعترفاً بأنَّكَ سيِّدُ المستغفرين، وسيِّدُ الأوَّابين، وسيِّدُ العابدين، وسيِّدُ سيِّدِ الدُّنيا.

يا روحَ رُوحي وروحَ النَّاسِ كلِّهم.

سلامٌ عليكَ في الأوَّلين، وسلامٌ عليكَ في الآخرين

وسلامٌ عليكَ عندَ البعثِ، ويومَ الدِّين.

محمود

الهوامش

(١) الدر المنثور للسيوطي: في تفسير الآية، وعزاه إلى سعيد بن منصور والديلمي وغيرهما.

(٢) أخرجه البخاري: ك/التفسير، ح/٤٥٥٧.

(٣) أخرجه الترمذي: ك/الصلاة، ح/٤٧٣.

(٤) أخرجه الترمذي: ك/الجمعة، ح/٦٠٤.

(٥) أخرجه مسلم: ك/صلاة المسافرين، ح/٧٧٢.

(٦) متفق عليه. البخاري: ك/الدعوات، ح/٥٩٥٨. مسلم: ك/صلاة المسافرين، ح/٧٦٩.

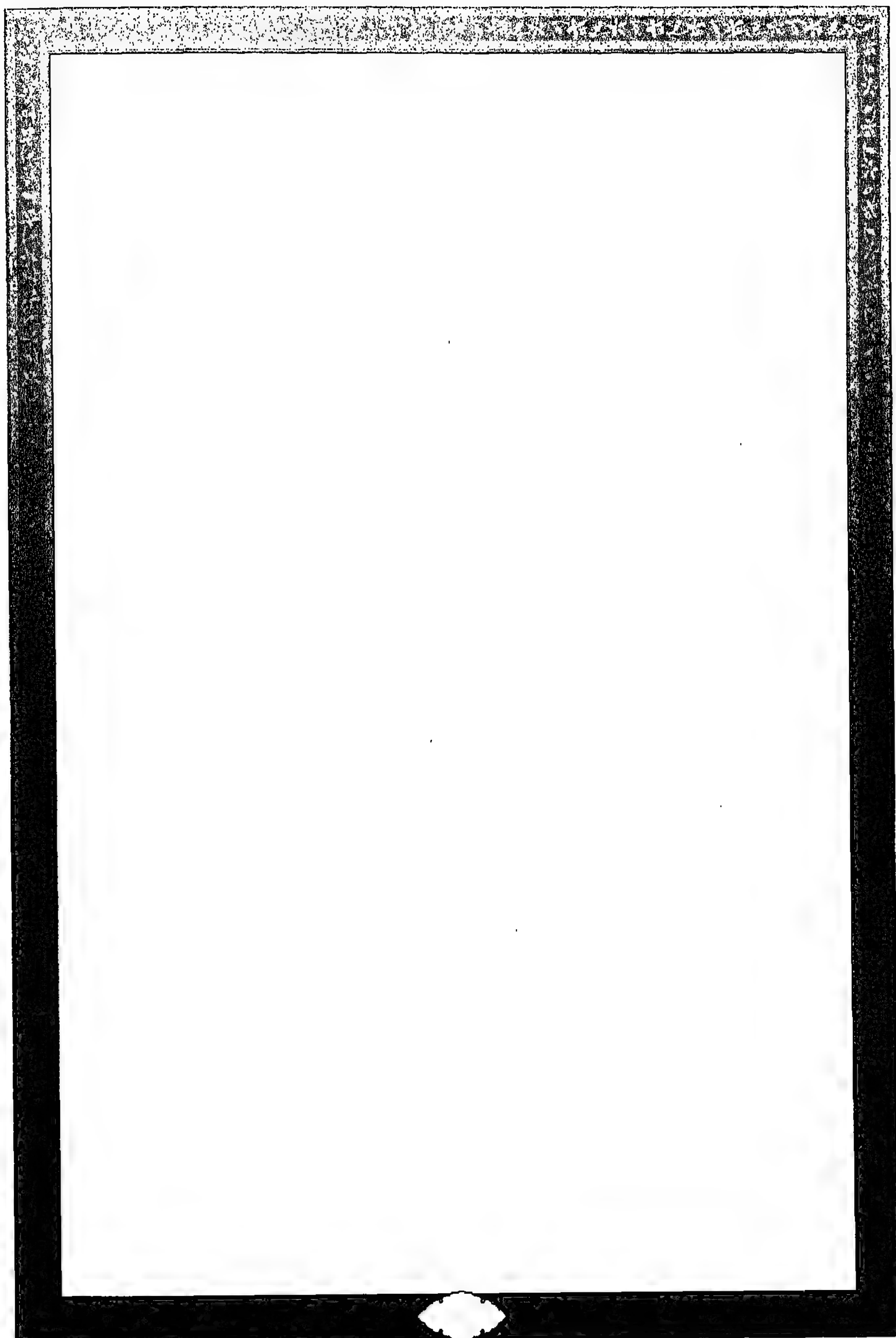
(٧) أخرجه مسلم: ك/الصلاة، ح/٤٨٣.

(٨) أخرجه الترمذي: ك/الدعوات، ح/٣٤١٩.

(٩) أخرجه مسلم: ك/الذكر والدعاء، ح/٢٧٠٢.

(١٠) أخرجه البخاري: ك/الدعوات، ح/٥٩٤٧.

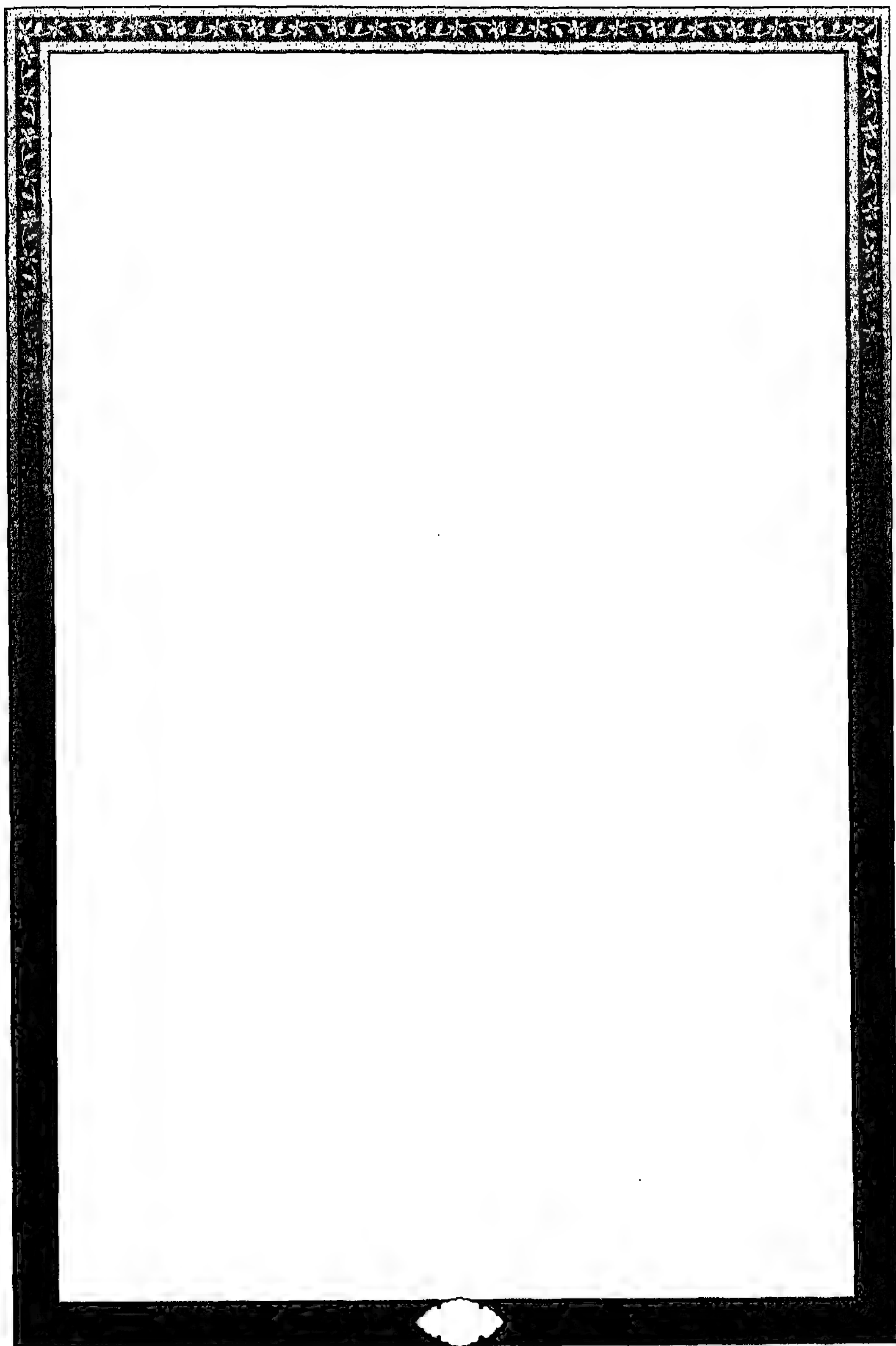
(١١) أخرجه أبو داود: ك/الصلاة، ح/١٥١٨. وابن ماجه: ك/الأدب، ح/٣٨١٩.



الرسالة التاسعة عشرة

سيدي :

أنت من تولى الله تعليمك



أيُّها الحبيبُ أنتَ مَنْ علَّمَكَ ربُّكَ، وأنتَ مَنْ تعلَّمتَ عن ربِّكَ، وإذا تولَّى اللَّهُ تعليمَ إنسان:

﴿ وعلَّمَكَ ما لَمْ تكنْ تَعلمُ وكانَ فضلُ اللهِ عليكَ عظيماً ﴾ النساء/١١٣.

فما أشدَّ ما يعلمُ ! وما أعظمَ علومَهُ التي استقرتْ في صدرِهِ النَّبيلِ الشريفِ.

سيِّدي رسولَ اللهِ:

أنتَ في التَّكوينِ والأسرارِ تفوقُ المجموعَ مَعَاً. حوَى صدرُكَ أكثرَ ممَّا حوتْهُ كلُّ الصُّدورِ، ولو نُثرَ ما في صدرِكَ على السُّطورِ لما بقيَ لسواكَ من سطور.

يحدِّثُنا عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنكَ فيقولُ: «قامَ فينا رسولُ اللهِ ﷺ فأخبرَنا عن بَدءِ الخلقِ، حتَّى دخلَ أهلُ الجنَّةِ منازلَهم، وأهلُ النَّارِ منازلَهم، حَفِظَ ذلكَ مَنْ حفظَ ونسيَهُ مَنْ نسيَهُ» [1].

ويروي لنا حذيفةُ بنُ اليمانِ ﵁ أيضاً فيقولُ: «لقدْ خطَبنا النَّبيُّ ﷺ خُطبةً ما تركَ فيها شيئاً إلى قيامِ السَّاعةِ إلا ذكرَهَ. علمَهَ مَنْ علمَهَ، وجهلَهَ مَنْ جهلَهَ. إنْ كنتُ لأرى الشَّيءَ قد نسيتُهُ فأراه فأذكُرُه، كما يذكرُ الرَّجلُ وجهَ الرَّجلِ إذا غابَ عنهُ ثُمَّ إذا رآهُ عرفَهَ» [٢].

حقاً يا سيِّدي:

فإنَّ علمَ رسولِ اللهِ ليسَ لهُ حدٌّ فيُعربَ عنهُ ناطقٌ بفمِ

ويتابعُ حذيفةُ روايتَهَ عنكَ، عمَّا حدَّثتَهم بهِ فأذهلتَهم، يقولُ: «واللهِ ما أدري أنسيَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ أم تناسَوْا ؟ واللهِ ماتركَ رسولُ اللهِ ﷺ منْ قائدِ فتنةٍ إلى أنْ تنقضيَ الدُّنيا يبلغُ من معَه ثلاثمئةٍ فصاعداً إلا سمَّاهُ لنا رسولُ اللهِ باسمهِ واسمِ أبيهِ واسمِ قبيلتهِ» [٣].

ألا فليفخرِ المسلمونَ بكَ، ولتفخرِ الإنسانيةُ بكَ، يا قائدَ الجميعِ، ويا سيِّدَ الجموعِ.

لقدْ حدَّثنا أبو زيدٍ الأنصاريُّ ﵁ فقالَ: «صلَّى بنا رسولُ اللهِ ﷺ الصبحَ، ثُمَّ صعدَ المنبرَ، فخطبَنا حتَّى حضرتِ الظُّهرُ، ثُمَّ نزلَ فصلَّى الظُّهرَ، ثُمَّ صعدَ المنبرَ فخطبَنا حتَّى حضرتِ العصرُ، ثُمَّ نزلَ فصلَّى العصرَ، ثُمَّ صعدَ المنبرَ، فخطبَنا حتَّى غابتِ الشَّمسُ، فحدَّثنا بما كانَ وبما هو كائنٌ، فأعلَمُنا أحفظُنا» [٤].

ولمْ يكنْ أبو زيدٍ وحدَهُ هو مَنْ سمعَ، وإنَّما انضمَّ إليهِ أيضاً كثيرونَ، وهذا آخرُ يحدِّثنا، وهو أبو سعيدٍ الخدريُّ ﵁ يقولُ: «صلَّى بنا رسولُ اللهِ ﷺ صلاةَ العصرِ، ثُمَّ قامَ خطيباً بعدَ العصرِ إلى مغربِ الشَّمسِ.

حفظَها مَنْ حفظَها، ونسيَها مَنْ نسيَها، وأخبرَ فيها بما هو كائنٌ إلى يومِ القيامة» [٥].

سبحانَ مَنْ علَّمَكَ، يا أيُّها المصطفى.

جلَّ مَنْ أكرمَكَ يا أيُّها المجتبى.

ويتابعُ مَنْ حضرَ ليحكيَ بعضاً مِنْ قصةِ علمِكَ العظيمَ، يا أيُّها العظيمُ.

يقولُ المغيرةُ بنُ شعبةَ: «قامَ فينا رسولُ اللهِ ﷺ مقاماً فأخبرَنا بما يكونُ في أُمَّتِهِ إلى يومِ القيامةِ وعاهُ مَنْ وعاهُ ونسيَهُ مَنْ نسيَهُ» [٦].

وأمَّا أبو ذرٍ رضي الله عنه فيقولُ: «لقدْ تركَنَا رسولُ اللهِ ﷺ وما يحرِّكُ طائرٌ جناحيْهِ في السَّماءِ إلا ذكرَ لنا منهُ علماً» [٧].

علْمُكَ يا سيِّدي أحكامٌ وأخبارٌ ومبادىءُ ومُثُلٌ وقصصٌ وتجاربُ وأنباءٌ واكتشافاتٌ وسننٌ وأحوالٌ.

فأْذَنْ لي يا سيِّدي أنْ أذكرَ هنا خبراً حدَّثَتَ بهِ النَّاسَ يرويه عنكَ حذيفةُ:

(لتقصدنَّكمْ نارٌ هي اليومَ خامدةٌ، في وادٍ يُقالُ لهُ: برهوتُ «بحضرموت» تغشى النَّاسَ، فيها عذابٌ أليمٌ، تدورُ الدُّنيا كلَّها في ثمانيةِ أيامٍ، تطيرُ طيرَ الرِّيحِ والسَّحابِ، حرُّها باللَّيلِ أشدُّ مِنْ حرِّها بالنَّهارِ، ولها بينَ السَّماءِ والأرضِ دويٌّ كدويِّ الرَّعدِ القاصفِ، هي مِنْ رؤوسِ الخلائقِ أدنى مِنَ العرشِ).

قيلَ: يا رسولَ اللهِ: أسليمةٌ يومئذٍ على المؤمنينَ والمؤمناتِ؟

قالَ: فأينَ المؤمنونَ والمؤمناتُ؟! هم يومئذٍ شرٌّ مِنَ الحُمُرِ، يتسافدونَ

كما يتسافدُ البهائمُ وليسَ فيهم رجلٌ يقولُ: مهْ..مهْ) (٨).

فيا لعظمةِ الأخبارِ تُنقلُ صحيحةً عنكَ، ويا لروعةِ الأخلاقِ تُحكى عنكَ، ويا لدقَّةِ العلومِ يفصِّلُها الاختصاصيون في نقلِها عن لسانِكَ الطاهرِ.

سيِّدي:

لا أحيطُ ببعضِ ما لديكَ، مهما كبرتُ، ولا أستطيعُ حكايةَ شيءٍ ممَّا عندَكَ بمثلِ ما هو عندَكَ. ولكنْ حسبي أنَّكَ معلمي وقائدي وسيِّدي. فإنْ لَزمَني أمرٌ سألتُكَ: ﴿فاسألوا أهلَ الذِّكرِ إنْ كنتُم لا تعلمونَ﴾ النحل/٤٣، وأنتَ حقاً سيِّدُ أهلِ الذِّكرِ على الإطلاقِ. يا حبيبَ الخلاَّقِ، وأدامني اللهُ لكَ خادماً وأدامَكَ عليَّ سيِّداً.

سلَّمتُكُمْ رُوحي نَعَمْ هي مِلكُكُمْ   وبملكِكُمْ طُولَ الزَّمانِ تَحكَّموا

محمود

الهوامش

(١) أخرجه البخاري: ك/بدء الخلق، ح/٣٠٢٠.

(٢) أخرجه البخاري: ك/القدر، ح/٦٢٣٠.

(٣) أخرجه أبو داود: ك/الفتن، ح/٤٢٤٣.

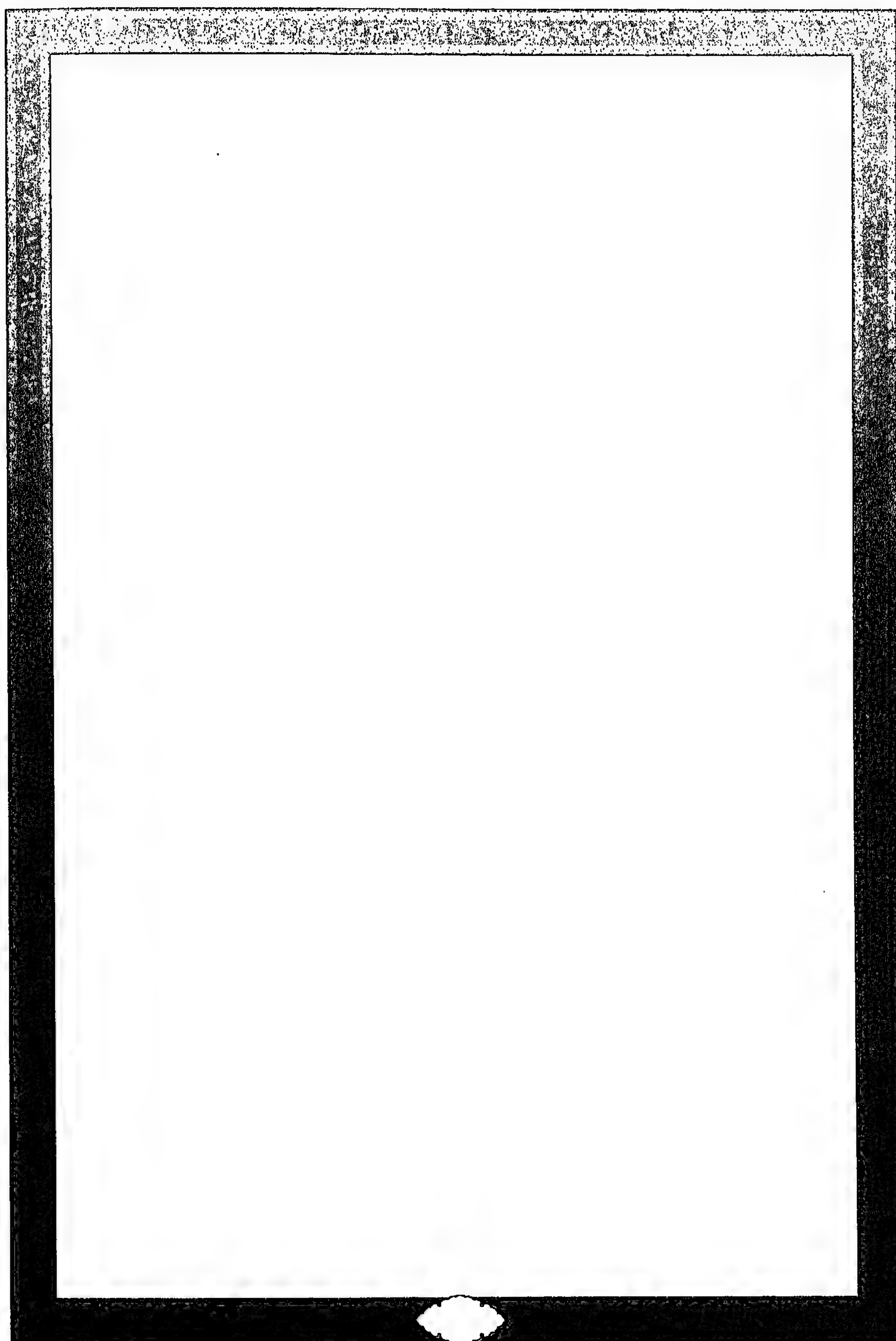
(٤) أخرجه مسلم: ك/الفتن، ح/٢٨٩٢.

(٥) أخرجه أحمد: ح/١١٥٢٤، ج ١٠/١٩١.

(٦) أخرجه أحمد: ح/١٨١٤٠، ج ١٤/١٠٨.

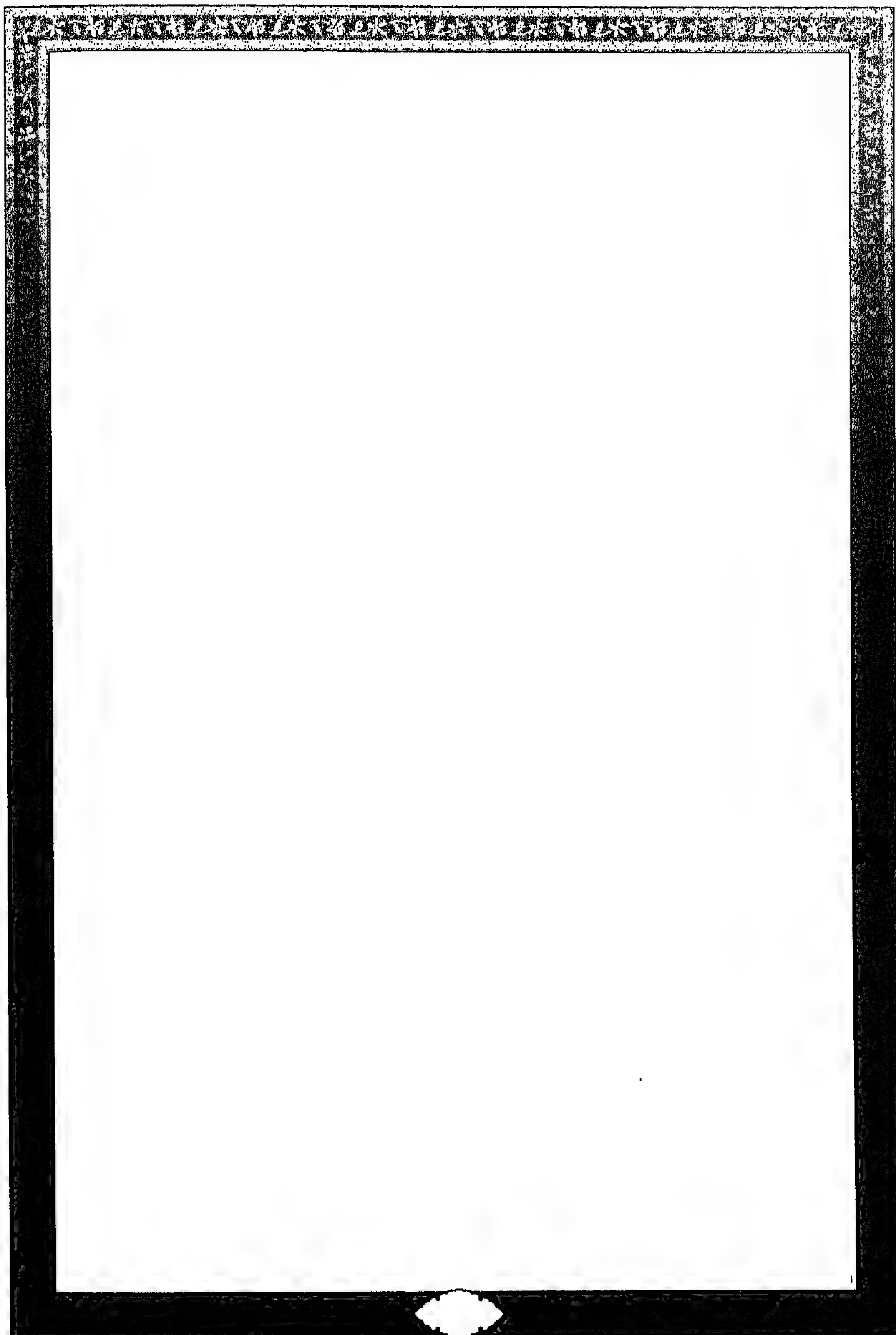
(٧) أخرجه أحمد: ح/٢١٢٥٨، ج ١٥/٥٠٣.

(٨) الإشاعة لأشراط الساعة محمد بن رسول الحسيني، /١٨٠.



الرسالة العشرون

سيدي :
نوالِيكَ ونَنْتمي إليكَ



سيِّدي أبا الزَّهراءِ:

يحلو لبعضِ النَّاسِ أنْ يزيِّنوا لشبابِنا اللاانتماءَ واللاالتزامَ ؛ مدَّعينَ أنَّ الانتماءَ والالتزامَ علامةُ تأخُّرٍ ودليلُ وضعٍ مرفوضٍ لا يتناسبُ والقرنَ العشرين، ذلك أنَّهم - حالَ الظَّنِ بهم أنَّهم يجهلونَ الإسلامَ - لمْ يجدوا انتماءً يتكاملُ بهِ الإنسانُ، والتزاماً يتنامى بهِ أيضاً ذلكَ المخلوقُ العجيبُ المميَّزُ.

وإنْ افترضنَا أنَّهم مطَّلعونَ على ما جاءَ بهِ الإسلامُ قلنا:

إنَّهم عرَفوا فجَحدوا، واستيقنَتْها أنفسُهم، وعاندوا مكابرين. ثُمَّ شوَّهوا وروَّجوا، فهمْ لا يبغونَ لمكانِهمْ تغييراً، ولا لخاصَّةِ مصالحِهم تبديلاً.

وبقاءُ ما كانَ على ما كانَ في وضعٍ أُدرِكَ غلطُهُ أمرٌ يريدُهُ المتسلِّطُ، ولايستطيعُ تحويلَهُ المقهورُ.

سيدّي. في ذكرى مولدِكَ ننادي:

الانتماءُ تحقيقٌ للوجودِ، والالتزامُ تعبيرٌ عنهُ، وليسَ الأمرُ على إطلاقهِ، ما لم يكنِ العقلُ دليلاً، وحبلُ السَّماءِ مَعَ الإنسانِ موصولاً، وها نحنُ نقدِّمُ عباراتنا في ذلك.

اللهُ قصدُنا، وإنَّا منهُ وإليهِ راجعون.

والرَّسولُ ﷺ أسوتُنا. ونحنُ بانتسابِنَا إليهِ وباتِّباعنا له معروفون.

القرآنُ شرعتُنا ومنهاجُنا، وبهديهِ العظيمِ ملتزمون.

الذِّكرُ غذاؤنا، وبهِ للسُّلوكِ والعاطفةِ مُدعِّمون.

الموتُ على الإيمانِ بُغيتُنا، وإنَّا إلى الدَّيانِ يومَ القيامةِ ماضون.

اللهُ قصدُنا:

لأنَّ القرآنَ الكريمَ الذي بلّغتَنا إيَّاهُ يقولُ: ﴿قُلْ إنَّ صَلاتي ونُسُكي ومَحْيَايَ ومَمَاتي للهِ ربِّ العالمين، لا شريكَ لهُ وبذلكَ أُمرتُ وأنا أوَّلُ المسلمين﴾ الأنعام ١٦٢-١٦٣.

ويقول: ﴿يا أيُّها الإنسانُ إنَّكَ كادحٌ إلى ربِّكَ كدحاً فملاقيه﴾ الانشقاق/٦.

والرَّسول ﷺ أسوتنا:

لأنَّكَ الأكملُ في الخُلقِ والخَلقِ، أَوَلستَ الأعبدَ والأعقلَ والأجملَ والأشجعَ، والأحلمَ والأزهدَ والألطفَ؟ وقدْ ذكرْنا دلائلَ مِنْ قبلُ على هذا يا سيِّدَ الكائناتِ في رسائلَ سابقةٍ.

القرآنُ شرعتُنا:

لأنَّكَ بلَّغتَنا قولَ ربِّكَ في القرآنِ نفسِهِ: ﴿الحمدُ للهِ الذي أنزلَ على عبدِهِ الكتابَ ولمْ يجعلْ لهُ عِوجاً قيِّماً﴾ الكهف/١-٢.

وكذلكَ قولَ اللهِ تعالى فيه: ﴿تباركَ الذي نزَّلَ الفرقانَ على عبدِهِ ليكونَ للعالمينَ نذيراً﴾ الفرقان/١.

وأيضاً قولَهُ تعالى :﴿قدْ جاءَكُمْ منَ اللهِ نورٌ وكتابٌ مُبينٌ يهدي بهِ اللهُ مَنْ اتَّبعَ رضوانَهُ سُبلَ السَّلامِ﴾ المائدة/١٥-١٦.

الذِّكرُ غذاؤنا:

لأنَّكَ يا سيِّدي نقلتَ لنا عنْ ربِّكَ جلَّ شأنُهُ قولَهُ: ﴿فاذكروني أذكرْكُمْ﴾ البقرة/١٥٢.

وأوصلتَ إلينا أمرَهُ لنا: ﴿اذكُروا اللهَ ذكراً كثيراً﴾ الأحزاب/٤١.

الموت على الإيمان بغيتنا كذلكَ:

لأنَّكَ أُوحيَ إليكَ قولُ اللهِ تعالى شأنُهُ: ﴿ولا تموتُنَّ إلاَّ وأنتمْ مسلمونَ﴾ آل عمران/١٠٢.

ولأنَّ الأنبياءَ جميعاً تواصوا بذلكَ: ﴿ووصَّى بها إبراهيمُ بنيهِ ويعقوبُ يا بَنيَّ إنَّ اللهَ اصطفى لكمْ الدِّينَ فلا تموتُنَّ إلاَّ وأنتم مسلمونَ﴾ البقرة/١٣٢.

الرَّسول ﷺ أسوتنا، نعمْ وربِّ الكعبةِ، ولَنِعمَ الأسوةُ أنتَ، يا سيِّدَ

السَّادات.

﴿لقدْ جاءَكُمْ رسولٌ مِنْ أنفُسِكُمْ عزيزٌ عليهِ ما عنتُّمْ حريصٌ عليكُمْ بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيمٌ﴾ التوبة/١٢٨.

فما أعظمَ تعظيمَ اللّهِ لك.

نعم ﴿وإنَّكَ لعلى خُلقٍ عظيمٍ﴾ القلم/٤.

نعم ﴿ولسوفَ يعطيكَ ربُّكَ فترضى﴾ الضحى/٥.

نعم ﴿لقدْ كانَ لكمْ في رسولِ اللّهِ أسوةٌ حسنةٌ لمنْ كانَ يرجو اللّهَ واليومَ الآخرَ وذكرَ اللّهَ كثيراً﴾ الأحزاب/٢١.

نعم، وألفُ نعم، يا أيُّها الرَّحمةُ المهداةُ،

يا نبيَّ الرَّحمةِ،

يا نبيَّ الملحمةِ،

يا خاتمَ الرُّسلِ،

يا عظيمَ الأممِ.

نعم:

ياركنَ مُعتَمِدٍ وعِصمةَ لائذٍ	ومَلاذَ مُنتَجِعٍ وجارَ مجَاور
يا مَن تخيَّـرهُ الإله لخَلقه	فحباه بالخُلق الذكيِّ الطاهر
أنتَ النَّبيُّ وخيرُ عُصبة آدم	يا من يجودُ كَفَيض بحرٍ زاخر
ميكال مَعَك وجبرائيل كلاهما	مددٌ لنصرك من عزيز قادر[1]

الرَّسولُ ﷺ عزُّنا. الرَّسولُ ﷺ فخرُنا. الرَّسولُ ﷺ قائدُنا. الرَّسولُ

ﷺ حَبيبُنا . الرَّسولُ ﷺ شفيعُنا . الرَّسولُ ﷺ سيِّدُنا ومولانا . الرَّسولُ ﷺ هادينا .

فلكَ أيُّها الرَّسولُ كلُّ ما لنا وما فينا .

محمود

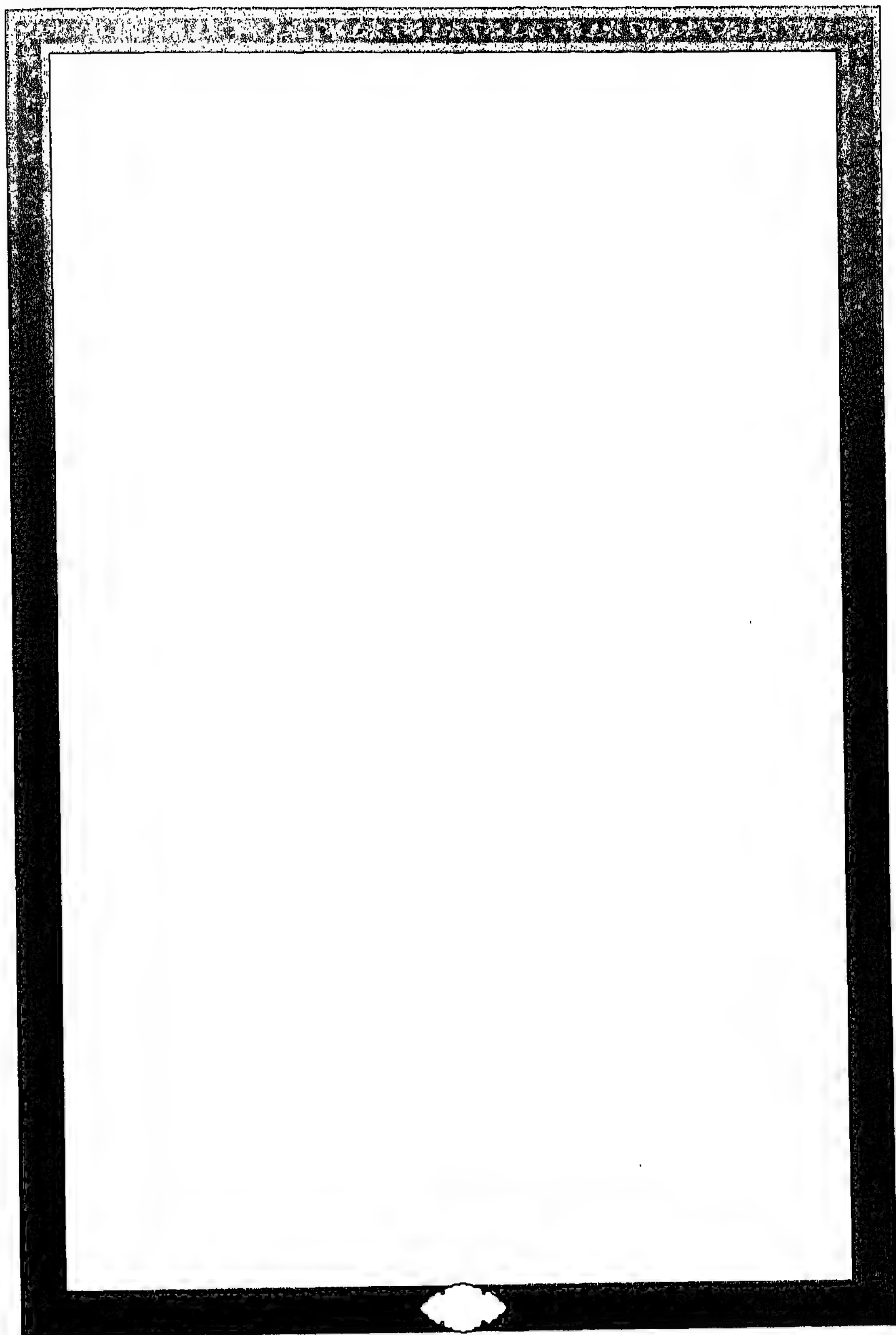
الهوامش

(١) من شعر حسان بن ثابت رضي الله عنه .

الرسالة الحادية والعشرون

سيدي :

هذا عطاء الله بلا حدود وهذا عطاؤك منه ممدود



سيِّدي:

ما أجملَ الحُبَّ رابطةً تجمعُ الإنسانَ بالإنسانِ، في أيِّ مستوىً وموقعٍ كانَ هذا الإنسانُ أوذاك، بلْ وأجملْ بهِ وشيجةً بينَ كلِّ ذراتِ الأكوانِ!

وما أروعَهُ مِنْ اقتباسٍ إذ الحُبُّ يشكِّلُ أسَّ العلاقةِ القائمةِ بينَ العبدِ والدَّيانِ، وحينَ تستقرُ المعادلةُ في الاشتقاقِ على أنَّ العبدَ هو المحبُّ وأنَّ اللّهَ هو المحبوبُ، فعلى العبدِ أنْ يعلمَ بأنَّهُ مسبوقٌ بمعادلةٍ كانَ فيها هو المحبوبَ، وكانَ اللّهُ المحبَّ، ولولا ذلكَ لما تميَّزَ الإنسانُ واصطُفيَ وسُوِّيَ وعُدِلَ.

وإذا كنتَ يا سيِّدي سيِّدَ مَنْ يتخلقُ بأخلاقِ اللّه، وكنتَ في المعادلةِ الأخيرةِ محبوباً، وكنَّا محبِّينَ، فلندركْ أنَّكَ الأسبقُ في حُبِّكَ لنا أولاً، ومحبَّتُكَ هي التي نشَّطتْ حبَّاً لك فينا.

ومَنْ استقرَّ في النِّهايةِ محبوباً فخُلقُهُ العطاءُ، إذ هو مظهرُ تجلي

المحبوبيةِ، أمَّا مَنْ كانَ مُحبَّاً فعلينا الوفاءُ، وهو مَظهرُ تجلِّي المحُبيَّةِ.

فعطاؤكَ يا سيِّدي للإنسانِ كبيرٌ وعظيمٌ، لكلِّ الإنسانِ، ولكلِّ النَّاسِ.

للإنسانِ عقلاً:

إذ وجَّهتَهُ في مسارِهِ الصَّحيحِ الثَّابتِ المناسبِ الملائمِ، فما أمرتَ سيِّدي بأمرٍ قالَ العقلُ ليتَهُ نهى عنهُ، ولا نَهيتَ عن شيءٍ قالَ العقلُ ليتَهُ أمرَ بهِ.

وللإنسانِ قلباً:

إذ ملأتَهُ إيماناً بخالقِهِ فاستقرَّ، ودعوتَهُ إلى الذِّكرِ ليطمئنَ، وناديتَهُ إلى حُبِّ الخيرِ ليكونَ الأوعى.

وللإنسانِ جسماً:

إذ دعوتَ إلى العنايةِ بهِ، ليكونَ قوياً يَحملُ المعانيَ القويةَ.

فيا سيِّدي:

تفصيلُ عطائِكَ للإنسانِ يستلزمُ منَّا كتباً ومجلداتٍ، ولكنِّي أحيلُ بني قومي وأُمَّتي إلى سيرتِكَ ليقرؤوها، ويتدبَّروها، ويعرفوها، ويُقرِئوها ويُعرِّفوا بها، ويقدِّموها إلى الإنسانِ في كلِّ مكانٍ وزمانٍ.

ما كنتُ يا سيِّدي مبالغاً، والمبالغةُ فيكَ تقصيرٌ، وهلْ يُحيطُ الصَّغيرُ بالكبيرِ، وهل يُدركُ القاصرُ الكاملَ.

أعطيتَ ووفيَّتَ، وأديَّتَ وتكرَّمتَ، وما منْ إنسانٍ عاقلٍ إلا ويعلمُ أنَّكَ أعطيتَ، وعطاؤكَ خيرٌ كلُّهُ، وغيرُ منقطعٍ بعدَ انتقالِكَ، فمَنْ صلَّى عليكَ فاللهُ راحمُهُ، ومَنْ اتَّسَى بكَ فاللهُ مُعزُّهُ، فحياتُكَ خيرٌ لنا، ومماتُكَ خيرٌ

لنا؛ تُعرضُ أعمالُنَا عليكَ، فإنْ وجدتَ خيراً حمَدتَ اللهَ، وإنْ وجدتَ غيرَ ذلكَ استغفرتَ اللهَ لنا.

تممّتَ الأخلاقَ، وكنتَ مُجسِّدَها الأمثلَ، ورعيتَ الدُّنيا وأردتَها قسيمةَ الآخرةِ الرَّضيَّةِ.

سيِّدي:

أمَّا في الآخرةِ فعطاؤكَ مستمرٌّ ومتابَعٌ، ويأتي في رأسِ الصَّفحةِ الشَّفاعةُ، فالشفاعةُ عطاءٌ منْ عطاء، وأكرِمْ بهِ منْ عطاء يا سيِّدَ الأولياء.

لقدْ قلتَ حسبَ ما روى عنكَ أصحابُكَ، وسجَّلَهُ علماءُ منْ أمَّتكَ:

(يوضعُ للأنبياءِ منابرُ يجلسونَ عليها، ويبقى منبري لا أجلسُ عليهِ قائماً بين يدَيْ ربِّيْ منتصباً، فيقولُ اللهُ تباركَ وتعالى:

ما تريدُ أنْ أصنعَ بأمَّتِكَ؟ فأقولُ: يا ربِّ عجِّلْ حسابَهُمْ.

فيُدعى بهمْ فيُحاسبونَ؛ فمنهمْ مَنْ يدخلِ الجنَّةَ برحمَتِهِ، ومنهمْ مَنْ يدخلِ الجنَّةَ بشفاعتي، ولا أزالُ أشفعُ حتَّى إنَّ خازنَ النَّارِ ليقولُ:

يا مُحَمَّدُ ما تركتَ لغضبِ ربِّكَ في أُمَّتِكَ منْ نقمةٍ) [1].

وقلتَ: (خُيِّرتُ بينَ أنْ يَدخلَ نصفُ أُمَّتي الجنَّةَ وبينَ الشَّفاعةِ فاخترتُ الشَّفاعةَ، لأنَّها أعمُّ. أترونَها للمتَّقين؟! ولكنَّها للمذنبينَ الخطَّائين) [2].

سيِّدي:

ونحنُ لعطائكَ شاكرون، ونعاهدُكَ على أنْ نكونَ الأوفياءَ المضحِّينَ فصَدْرُنا دون صدرِكَ، ونُحورُنا دونَ نحرِكَ، كما قال أبو طلحة: «واللهِ ما نحبُّ لو أنَّا في بيوتِنا آمنونَ، وأنَّكَ تُشاكُ بشوكةٍ».

فدىً لرسولِ اللهِ أمي وخالتي وعمِّي وخالي ثُمَّ نفسي وماليا

كما قالت السَّيدةُ صفية رضي اللهُ عنها.

أدامَ اللهُ عطاءَكَ يا خيرَ مَنْ أعطى بعدَ اللهِ، وأدامَنا لكَ سيِّدي على أبوابِكَ وأعتابِكَ خَدماً لنعالِكَ.

سرْنَا على شططِ النَّوى بجمالِكم و لنا قلوبٌ تحتَ ظلِّ نعالِكُمْ

كما قال الرواسُ.

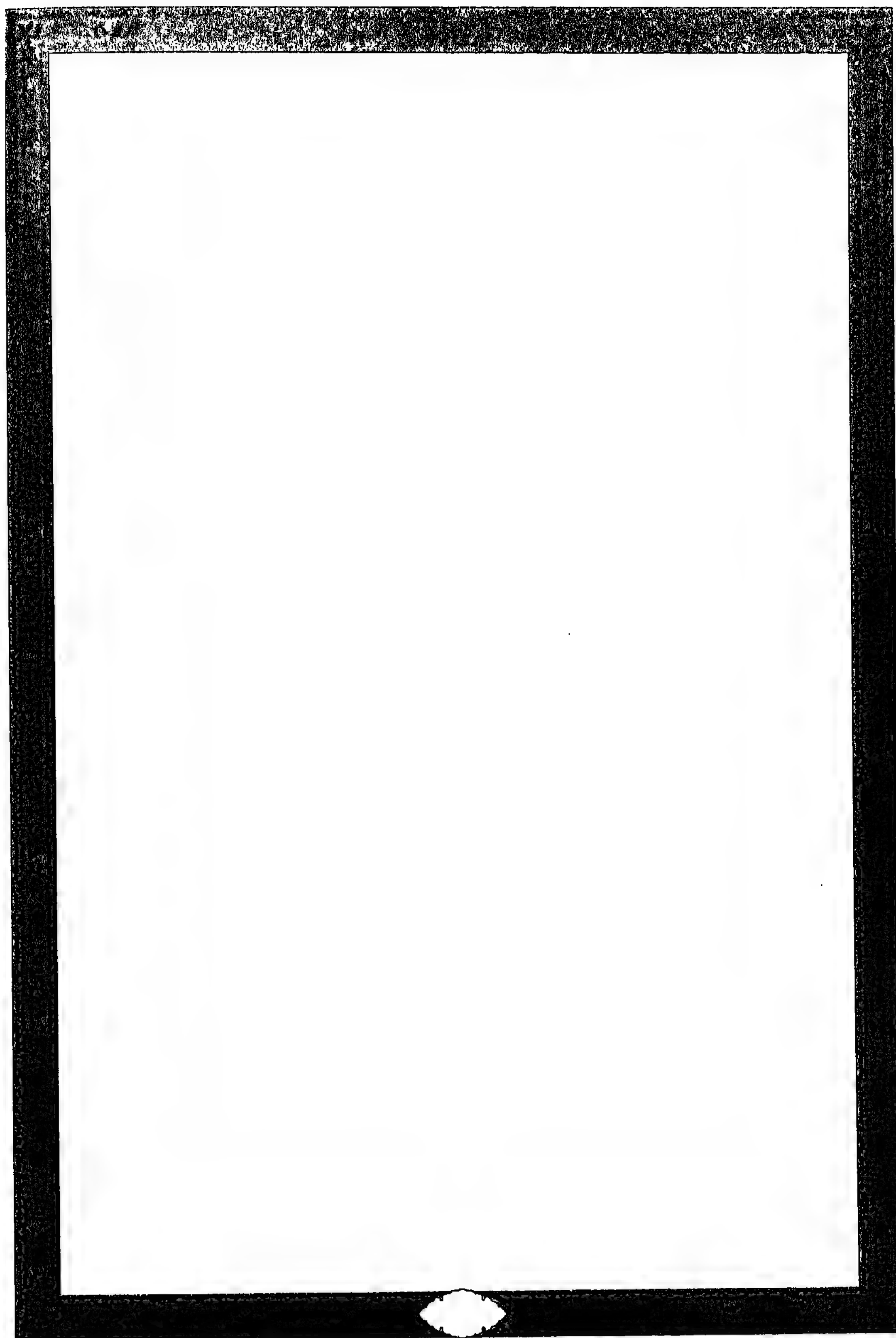
وإنَّكَ يا رسولَ اللهِ على العينِ والرَّأسِ.

محمود

الهوامش

(١) الترغيب والترهيب: وعزاه إلى الطبراني في الكبير والأوسط.

(٢) أخرجه ابن ماجه: ك/الزهد، ح/٥٣٣٧.

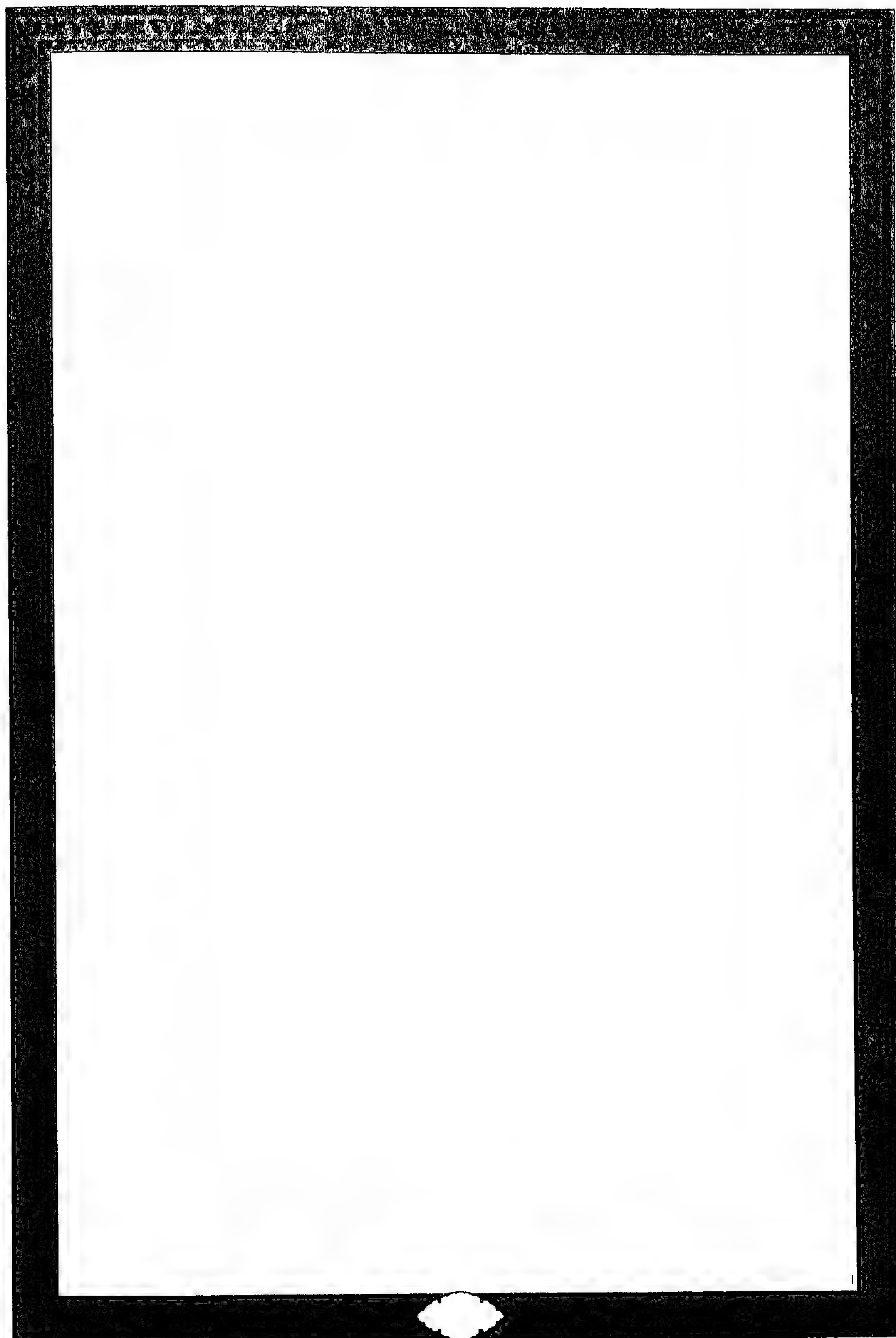


الرسالة الثانية والعشرون

سيدي :

البشارة فيك وبك سابقة، ومعجزة الله لك مؤيدة

ونصر الله لك دائم



سيِّدي أبا الزَّهراءَ. يا سيِّدَ الخَلقِ:

هلْ لي أنْ أحكيَ عنكَ صفاتٍ حاضرةً، وبشاراتٍ سابقةً، ومعجزاتٍ مؤيدةً، ونصراً مِنَ اللهِ دائماً ؟

هلْ لي أنْ أقصَّ عنكَ حولَ هذهِ الأمورِ، والقَصَصُ عنكَ صدقٌ وحقٌّ وعدلٌ ووفاءٌ ؟

إذاً فلأبدأ:

أمَّا الصِّفاتُ الحاضرةُ:

فكثيرةٌ غزيرةٌ عظيمةٌ، لكنَّني هنا أسجِّلُ منها «الصدقَ» الذي وُسمتَ به، وتخلَّقتَ بهِ، ونُوديتَ به، مِنْ قبَلِ مَنْ آمنَ ومَنْ لمْ يؤمنْ، وها هم جميعاً لحظةَ البلاغِ الأولى يُقرُّونَ، وكانَ ذلك يومَ وقفتَ على الصَّفا وقلتَ:

(أرأيتُكمْ لو أخبرتُكمْ أنَّ خيلاً بالوادي تريدُ أن تُغيرَ عليكُمْ أكنتمْ

مصدّقيّ ؟).

قالوا: ما جرّبنا عليكَ كذباً. عندَها قلتَ: (فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد)[1].

أجلْ ما جَرَّبَ عليكَ أحدٌ كذباً، وحاشاكَ، فالصادقُ المصدوقُ أنتَ.

ثُمَّ إنَّ أبا جهلٍ نفسَهُ قالَ مرةً: «إنَّا لا نُكذِّبُكَ، ولكنْ نُكَذِّبُ ما جئتَ به»، فأنزل الله:

﴿ فإنَّهم لا يكذبونَكَ ولكن الظالمينَ بآياتِ اللهِ يجحدونَ ﴾ الأنعام/٣٣[2].

وبعدَ الصِّدقِ يا سيِّدي: أُسجِّلُ تحمُّلَكَ وقيامَكَ بأعباءِ الدَّعوة. فهاهم المجرمونَ السَّبْعَةُ، منهم أبو جهلٍ وعتبةُ وشيبةُ وعقبةُ، كانوا سبعةً في الحِجْرِ، كما تقولُ الروايةُ، فقالَ قائلُهم: أيُّكم يأتي جَزورَ بني فلانٍ فيأتينا بفرثِها فيكفأُهُ على مُحَمَّدٍ ؟ فانطلقَ عقبةُ ففعلَ.

وأقبلتْ فاطمةُ عليها السلام ورفعتْ عن عاتقِهِ، وكنتَ يا سيِّدي تصلِّي، فلمَّا قضيتَ صلاتَكَ لمْ تزدْ على أنْ قلتَ:

(عليكَ بقريشٍ، عليكَ بعتبةَ وعقبةَ وأبي جهلٍ وشيبةَ)[3].

ولسانُ حالِكَ يقولُ لربِّكَ: اللهمَّ إنْ لمْ يكنْ بكَ عليَّ غضبٌ أوسخطٌ فلا أُبالي.

صدقتَ، يا سيِّدي، وتحمَّلتَ، ودعوتَ، وكانَ نتيجةُ ذلكَ نصراً منَ اللهِ وفتحاً، فلكَ منَّا الشُّكرُ العظيمُ على ما بلَّغتَ وما أدَّيتَ، وإنَّا لشاهدونَ على تبليغِكَ الرِّسالةِ، وأدائكَ الأمانةِ.

وأمَّا البشاراتُ السابقةُ:

والتَّوراة شاهدةٌ، والإنجيلُ مصدِّقٌ، والسامافيدا مُقِرَّةٌ، والزندا أفستا معترفةٌ.

أمَّا التوراةُ، فقدْ جاءَ في سفرِ التَّكوينِ منها: «جاءَ الرَّبُّ مِنْ سَيْناء، وأشرقَ لنا مِنْ ساعير، وتلالأ مِنْ جبل فارانَ»، وفارانُ اسمُ مكةَ القديم.

وأمَّا الإنجيلُ، فهذا ما جاءَ في «يوحنا»: «متى جاءَ ذاك روحُ الحقِّ فهو يرشدُكُمْ إلى جميعِ الحقِّ، وهو لا يتكلمُ من نفسه».

وأمَّا السامافيدا، الذي هو مَوْثِقُ الهندوسِ فقدْ جاءَ فيه: «أحمدُ تلقَّى الشَّريعةَ مِنْ ربِّهِ وهيَ مملوءةٌ بالحكمة».

وأمَّا الزندا أفستا، والذي يتَّخذُهُ المجوسُ لهم كتاباً فيقولُ: «إنَّ اللّهَ سيبعثُ رسولاً هذا وصفُهُ: رحمةٌ للعالمين، ويتصدى له عدو اسمُهُ أبو لهبٍ، ويدعو إلى اللهِ الواحدِ».

وأمَّا المعجزاتُ المؤيِّدةُ:

فحدِّثوا عنها يا بني قومي ولا حَرَجَ:

لقدْ نبعَ الماءُ مِنْ أصابعِكَ، فقدْ أُوتيتَ يا سيِّدي يا رسولَ اللهِ بإناء، وأنتَ بالزَّوراءِ، فوضعتَ يدَكَ في الأناءِ، فجعلَ الماءُ ينبعُ مِنْ بينِ أصابعِكَ، فتوضأ القومُ، وقالَ قتادةُ لأنس: كمْ كنتمْ ؟ قالَ: ثلاثمئة.[٤].

وحنَّ الجذعُ إليكَ، ورأى ذلكَ كثيرون، وما أظنَّني بحاجةٍ إلى إعادةِ ذكرِ ذلكَ تفصيلاً.

وأخبرتَ عن الغيبِ، فقدْ حدَّثْتَ الفرسَ واليمنيين بـأنَّ اللّهَ قتلَ ملكَ الفرسِ انتقاماً لرسولِهِ، وحدَّدتَ لهم الليلةَ التي قُتلَ فيها كسرى، وكان هذا سبباً لإسلامِ شعبِ اليمنِ والفرسِ الذين كانوا في اليمنِ.

وسبَّحَ الطَّعامُ بين يديكَ وانشقَ لكَ القمرُ و....، و....، ولا يعلمُ معجزاتكَ كلَّها إلا مَنْ أمدَّكَ وأعطاكَ وأرسلكَ. فتباركَ اللّهُ وصلَّى عليكَ وسلَّمَ.

وأمَّا النصرُ:

فلقدْ خُضتَ يا أيُّها المجاهدُ الأعظمُ غزواتٍ كثيرةً. نصركَ اللّهُ فيها، وجعلَ الغلبةَ لكَ، وحديثُنا عن النَّصرِ حديثٌ عن الحقِّ إذ يعلو، والخيرِ إذ يسمو، والفضيلةِ إذ تسودُ، والأمانةِ إذ تنتشرُ. حديثٌ عن الإيمانِ يظهرُ، والحقيقةُ تتجلي، وقدْ كانَ كلُّ ذلك بفضلِ اللهِ عليكَ:

﴿إذا جاءَ نصرُ اللهِ والفتحُ ورأيتَ النَّاسَ يدخلونَ في دينِ اللهِ أفواجاً فسبِّحْ بحمدِ ربِّكَ واستغفرْهُ إنَّهُ كانَ تواباً﴾ سورة النصر.

عليكَ السلامُ يا خيرَ الأنامِ.

محمود

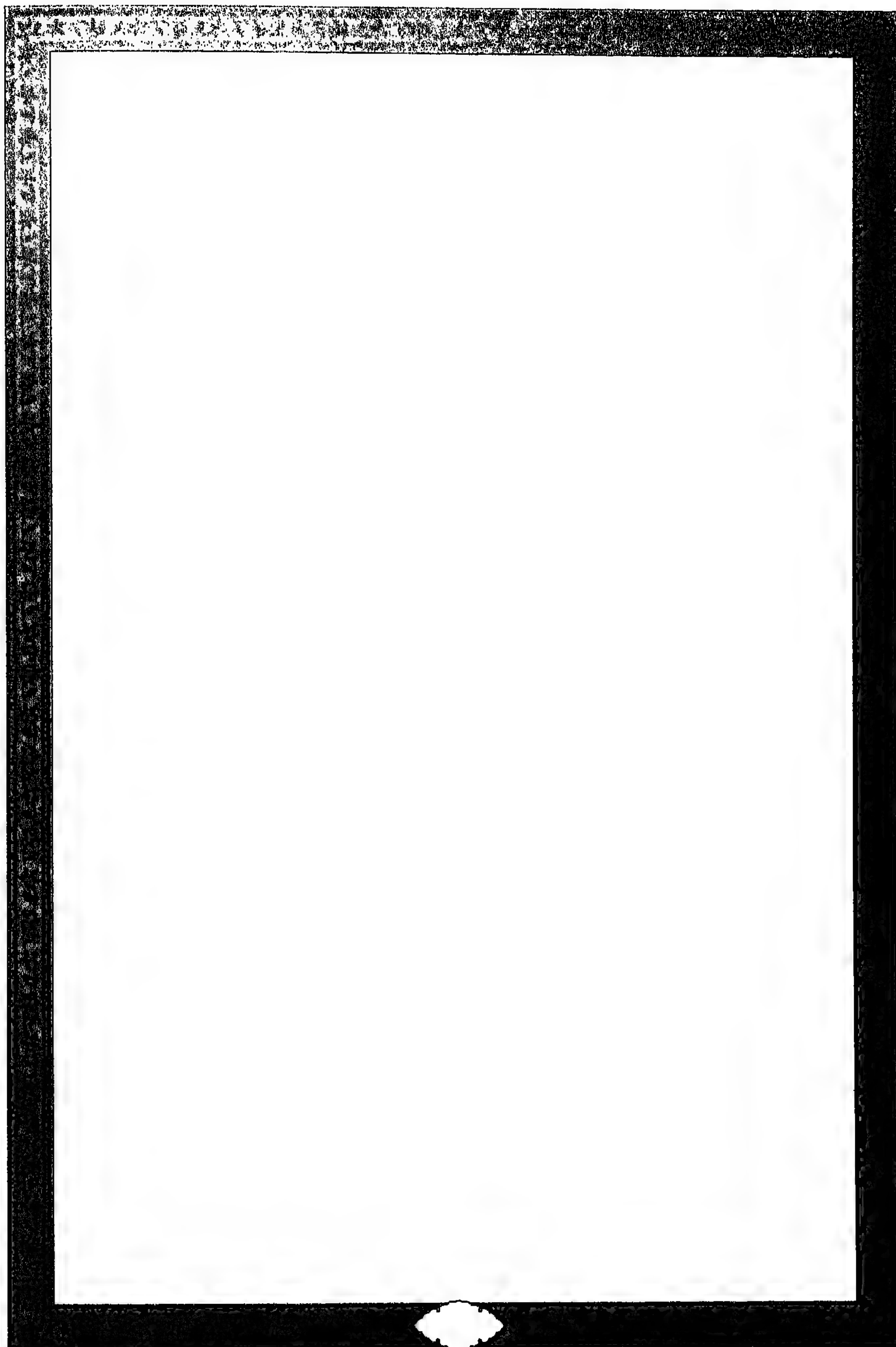
الهوامش

(١) متفق عليه. البخاري: ك/التفسير، ح/٤٤٩٢. مسلم: ك/الإيمان، ح/٢٠٨.

(٢) أخرجه الترمذي: ك/التفسير، ح/٣٠٦٤.

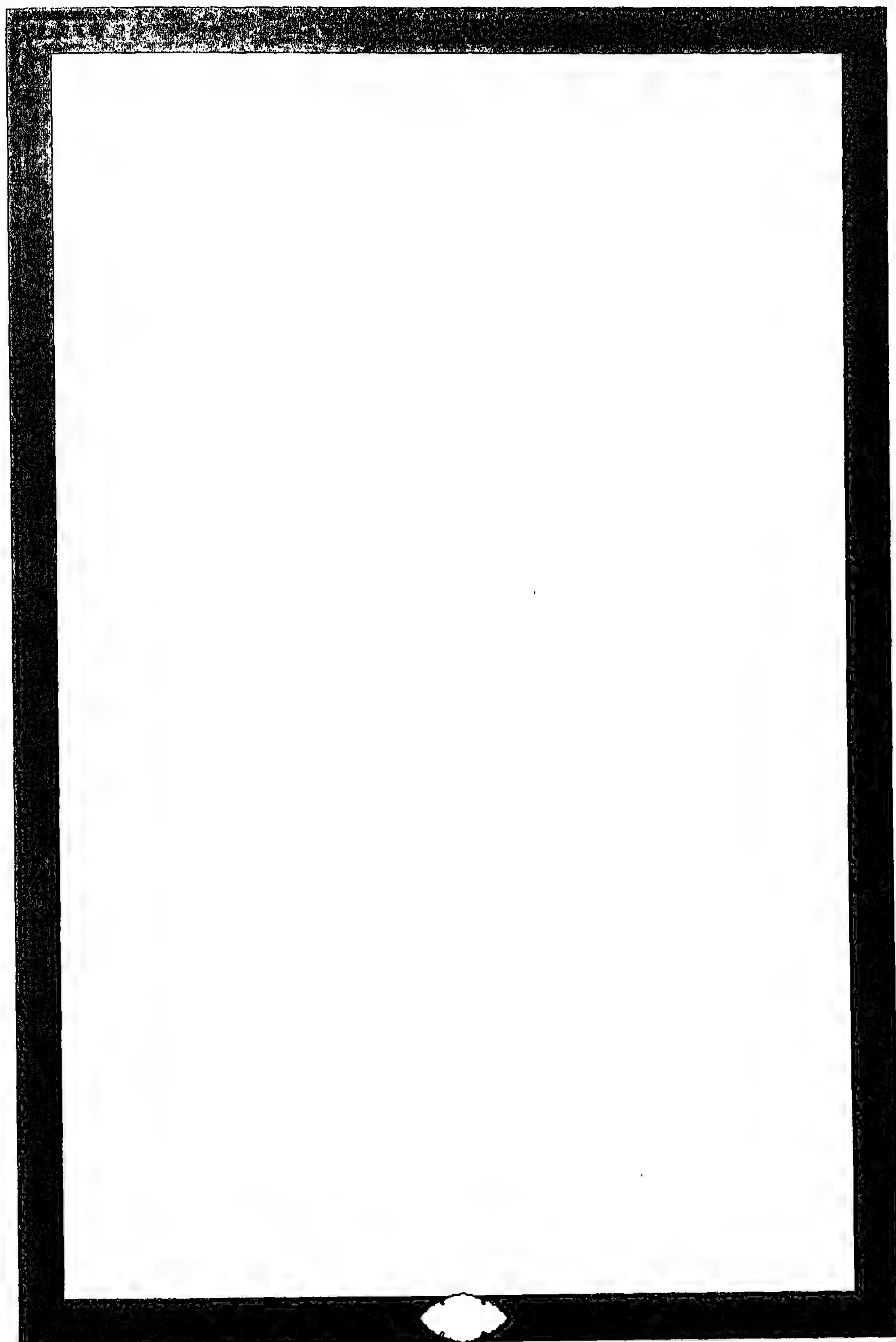
(٣) متفق عليه. البخاري: ك/الوضوء، ح/٢٣٧. مسلم: ك/الجهاد، ح/١٧٩٤.

(٤) أخرجه البخاري: ك/المناقب، ح/٣٣٧٩.



الرسالة الثالثة والعشرون

تعرّف وتشرّف



أيُّها المبعوثُ رحمةً للعالمين:

ها أنا أسعى إلى تقديمِ بطاقةِ تعريف، ولكنّي أدركُ يا سيِّدي أنَّ في تعريفي بكَ تعريفاً بي، فأنا نكرةٌ لا تقبلُ التَّعريفَ في عالَمِ الإنسانِ إلا بالإضافةِ إليكَ، وأنا أعرِّفُ لأُعْرَفَ.

أنا ما مدحتُ مُحَمَّداً بمقالتي   لكنْ مدحتُ مقالتي بمُحَمَّدِ

هكذا قالَ حسّانُ الشِّعرِ، ومِنْ بابٍ أولى أنْ يقولَها المحمودُ بكَ، وكذلكَ يتابعُ فيرجو:

لاتهجروني فإنّي قدْ عُرِفتُ بكمْ   وصِرتُ بين الورى أُدعى بتابِعكمْ

ولنْ تنسى الذَّاكرةُ يا رحمةَ العالمين قصةَ سفينةَ، هذا الرَّجلُ الذي عرَّفَ نفسَهُ بكمْ، فعرفتْهُ المخلوقاتُ، يقولُ:

«ركبتُ البحرَ فانكسرتْ سفينتي التي كنتُ فيها، فركبتُ لوحاً منْ ألواحِهَا، فطرحني اللَّوحُ في أجمةٍ فيها الأسَدُ، فأقبلَ إليَّ يريدُني، فقلتُ: يا أبا الحارثِ أنا مولى رسولِ اللهِ ﷺ. فطأطأ رأسَهُ، وأقبلَ إليَّ فدفعني بمنكبِهِ حتَّى أخرجني منَ الأجمةِ، ووضعني على الطَّريقِ» (١).

نعمْ لقدْ عُرِفَ سفينةُ أمامَ المخلوقاتِ بكمْ فكرَّمَتْهُ، وحقَّاً فما منْ شيءٍ في السَّمواتِ والأرضِ إلا يشهدُ أنَّكَ رسولُ اللهِ، إلا عاصيَ الجنِّ والإنسِ.

وهذا التعرُّفِ الذي أدَّى إلى تعريفٍ، فقدْ ساقني أيضاً سوقاً أحمدَ إلى ساحِ التَّشريفِ، وها أنا أشرُفُ إذ عُرِفتُ بكمْ، وكيفَ لا، وقدْ شرُفتْ بكَ سيِّدي السَّمواتُ والأرضونَ، لأنَّكَ الخيرُ بينَ المخلوقاتِ على إطلاقِها، أوَلستَ القائلَ:

(إنَّ اللهَ خلقَ الخَلقَ فجعلني في خيرةِ خلقهِ وجعلَهم فرقتينِ فجعلني في خيرِ فرقةٍ، وخلقَ القبائلَ فجعلني في خيرِ قبيلةٍ وجعلَهم بيوتاً فجعلني منْ خيرهم بيتاً فأنا خيرُكمْ بيتاً وخيركم نَفْساً) (٢).

أجلْ يا سيِّدي يُشرِّفُني أنْ أعرفَكَ، وكلُّ شرفٍ أحوزُهُ إذ تعرفني، وكلِّي سعادةٌ وسرورٌ حينَ تشفعُ لي، يا أكرمَ شافعٍ، جُدْ برضاكَ، ليهنأ قلبي بطيبِ لقاكَ وعطاكَ.

و إذا سألْتُكَ أنْ أراكَ حقيقةً　　　فاسمحْ ولا تجعلْ جوابيَ لنْ ترى؟

أيُّها الأعظمُ بينَ الخلائقِ:

قلبي يَسعدُ بحبِّكَ، وعقلي يَغنى بقربِكَ، وجسمي ينشطُ بنظرةٍ منكَ،

وأنا هنا وهناك صاحبُ قلبٍ وعقلٍ وجسمٍ مبتهج.

وحقِّ مَنْ أرسلَكَ. أتشرَّفُ إذ أعرفُكَ وأُحبُّكَ وأتَّبعُكَ، وتشرِّفُني وتمنحُني ما لا أستحقُ حينَ تذكرُني وتعرفُني، والفضلُ في كلِّ المعادلاتِ لكَ وإليكَ.

و ممَّا زادني شــــرفاً وعـزاً　　و كدتُ بأخمصي أطأُ الثُّريا

دخولي تحتَ قولِكَ يا عبادي　　و أنْ صيَّرتَ أحمدَ لي نبياً ؛

فاشفعْ لي ياسيِّدَ الشُفعاءِ.

سيِّدي:

عنوانُ بطاقتي ورسالَتي هذه: تعرُّفٌ وتشرُّفٌ. أسألُ ربِّي أنْ يزيدني شرفاً بكَ، ومعرفةً أنالُها بالانتسابِ إليك.

يا سيِّدَ السَّاداتِ يا رسولَ اللهِ إلى العالمين، يا روحَ حقيقةِ الأولياءِ والصَّالحين.

محمود

الهوامش

(١) حياة الصحابة: وعزاه إلى الحاكم، بموافقة الذهبي.

(٢) أخرجه أحمد: ح/١٧٨٨، ج ٤٤٩/١.

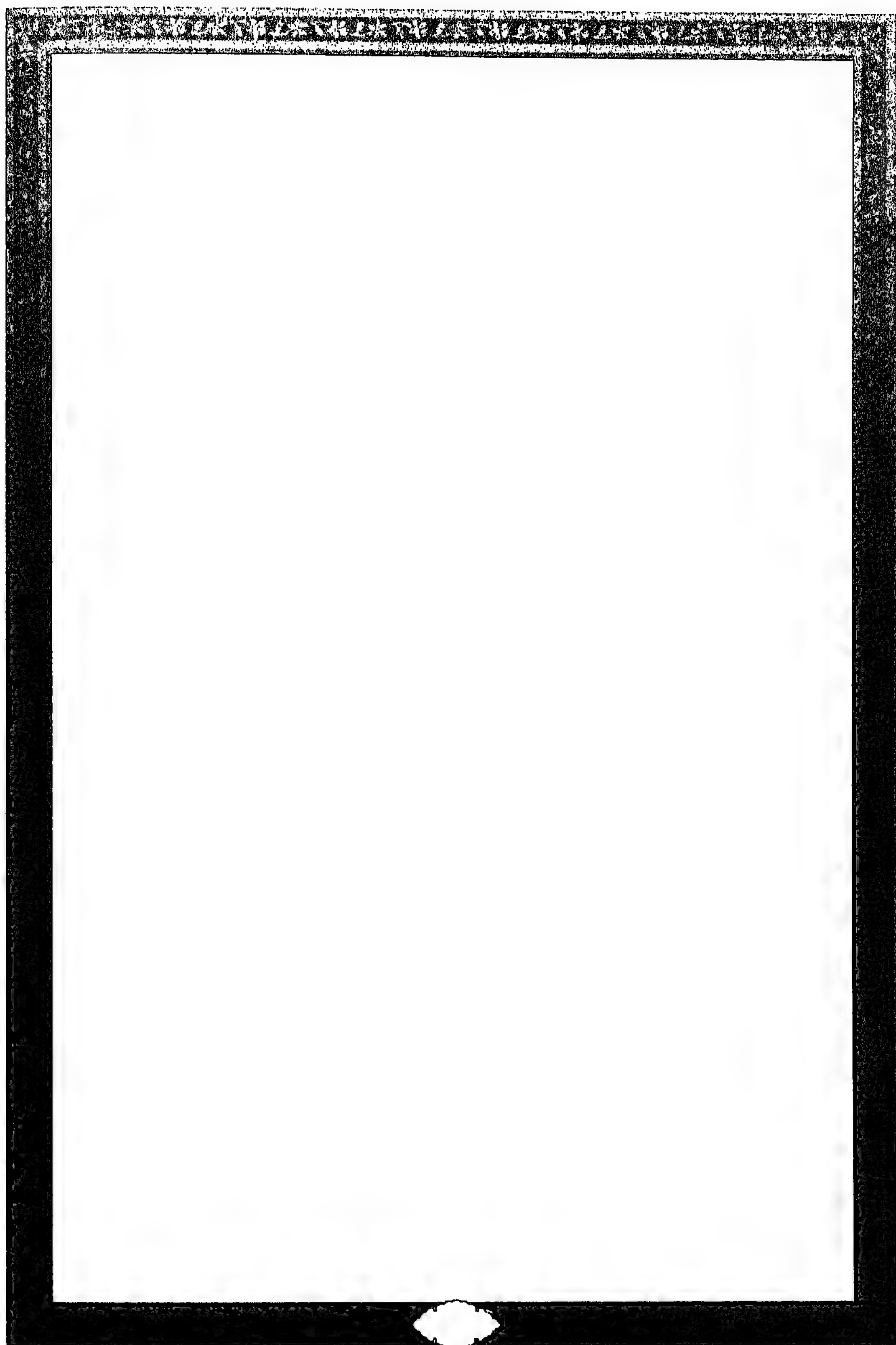
(٣) البيت لعمر بن الفارض رحمه الله.

(٤) الشعر للإمام الشافعي ﷺ.

الرسالة الرابعة والعشرون

سيدي :

كل شيء في الكون يشهد أنك الرسول الحق



أيُّها الحبيبُ العظيمُ:

كلُّ عاقلٍ يشهدُ أنَّكَ رسولُ اللهِ، وكلُّ أحمق ربَّما يستنكفُ، لكنَّكَ للعقلاءِ أُرسلتَ، فحسبُكَ اللهُ، ومَنْ اتَّبعَكَ مِنَ المؤمنين.

وليعلم عاصي الإنسِ والجنِّ الذي يرفضُ ولا يُقرُّ، أنَّ الجماداتِ شهدتْ، شجراً وحجراً وخشباً وجبلاً، فما بالُهُ تخلَّفَ وسبَقَتْهُ ! وتراجع وتقدَّمَتْ عليه !

يروي الدَّارميُّ عن ابنِ عمرَ رضي الله عنه قالَ: «كنَّا في سفرٍ فدنا أعرابيٌّ مِنَ النَّبيِّ ﷺ فقالَ: يا مُحَمَّدُ مَنْ يشهدُ لكَ بأنَّكَ رسولُ اللهِ ؟ فأشارَ النَّبيُّ إلى شجرةٍ وقالَ: (هذه). فأقبلتِ الشَّجرةُ تخدُّ الأرضَ حتَّى قامتْ بينَ يديهِ فشهدتْ»[1].

وكذلكَ الجذعُ، كما روى أصحابُ الكتبِ الصَّحيحةِ، فقدْ سُمِعَ له صوتٌ كصوتِ العِشارِ، وارتجَّ المسجدُ إلى أنْ جاءَ النَّبيُّ ﷺ فوضعَ

يدَهُ عليهِ فسكتَ، وقالَ: (والذي نفسي بيدِهِ لو لمْ ألتزمْهُ لمْ يزلْ هكذا إلى يومِ القيامةِ)[٢].

لقدْ قالَ الحسنُ يوماً: «الخشبةُ تحنُّ شوقاً إلى رسولِ اللهِ لمكانِهِ! فأنتمْ أحقُّ أنْ تشتاقوا إلى لقائِهِ».

ويروي السيد الإمام علي عليه السلام فيقولُ: «كُنَّا بمكةَ مَعَ رسولِ اللهِ ﷺ فخرجَ إلى بعضِ نواحيها، فما استقبلَهُ شجرٌ ولا جبلٌ إلا قالَ لهُ: السَّلامُ عليكَ يا رسولَ اللهِ»[٣].

أبا الزَّهراءِ أيُّها العظيمُ:

لقدْ صعدتَ أُحداً يوماً ومَعَك أبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ رضي الله عنهم، فرجفَ الجبلُ فقلتَ لهُ: (اثبُتْ أُحدُ فإنَّما عليكَ نبيٌّ وصدِّيقٌ وشهيدانِ)[٤].

وهلْ يَنسى الباحثُ عن عظمةِ الرِّجالِ، يا سيِّدي، يومَ دخلتَ حائطاً فجاءَ بعيرٌ فسجدَ لكَ. وكذلكَ يومَ كلَّمَتْكَ ذراعٌ مشويةٌ فقالتْ: إنِّي مسمومةٌ.

ولا غرابةَ فاللهُ القديرُ مَعَك، وعنايتُهُ التَّامةُ تكتنفُكَ، ورعايتُهُ الكبيرةُ دائماً لا تبارحُ ذاتَكَ الشَّريفةَ.

ياأيُّها النَّبيُّ الكريمُ:

أنتَ الرَّسولُ الحقُّ، وأنتَ مُحَمَّدٌ الحقُّ، وأنتَ النَّبيُّ الحقُّ، شهدْنَا بذلكَ قلباً ولساناً، وأقررْنَا حالاً وقالاً.

لو جمعنا الشَّهاداتِ فيكَ، لنَفِدَ البحرُ إذ يكونُ مداداً، وكذلكَ الشَّجرُ إذ تكونُ أقلاماً.

والشَّهاداتُ هذهِ كانتْ قبلاً يومَ لمْ يكنْ شخصُكَ، وكانتْ بعداً حينَ خُلقتَ ووُلدتَ، وتوالتْ سالفاً في العمقِ الممتدِّ أزلاً، ولاحقاً في البعدِ المتَتَابعِ أبداً.

والأهمُّ في كلِّ الشَّهاداتِ شهادةُ الحقِّ الأعلى، الخالقِ الأعظمِ:

﴿ واللهُ يَعْلَمُ إنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ المنافقون/١.

﴿ وما أَرْسَلْنَاكَ إلاّ كافَّةً للنَّاسِ بشيراً ونذيراً ﴾ سبأ/٢٨.

﴿ يا أيُّها المدَّثِّرُ قمْ فأنذرْ وربَّكَ فكبِّرْ ﴾ المدثر/١-٣.

سيِّدي ابا القاسم:

وعَدْتَ مَنْ يشهدُ بأنَّكَ رسولُ اللهِ الشَّفاعةَ، فطوبى لي، وإنِّي لساعةِ اللِّقاءِ تنوِّرُها الشفاعةُ على انتظار.

دمتَ يا أعظمَ الخلقِ لكلِّ النَّاسِ، ويا أعظمَ النَّاسِ، وهنيئاً لنا يومَ تسقينا مِنْ كفِّكَ الأطهرِ، ومن سلسبيلِكَ الكوثرِ يا أيُّها الأكرم.

محمود

الهوامش

(١) أخرجه الدارمي: المقدمة، ح/١٦.

(٢) أخرجه الدارمي: المقدمة، ح/٤١.

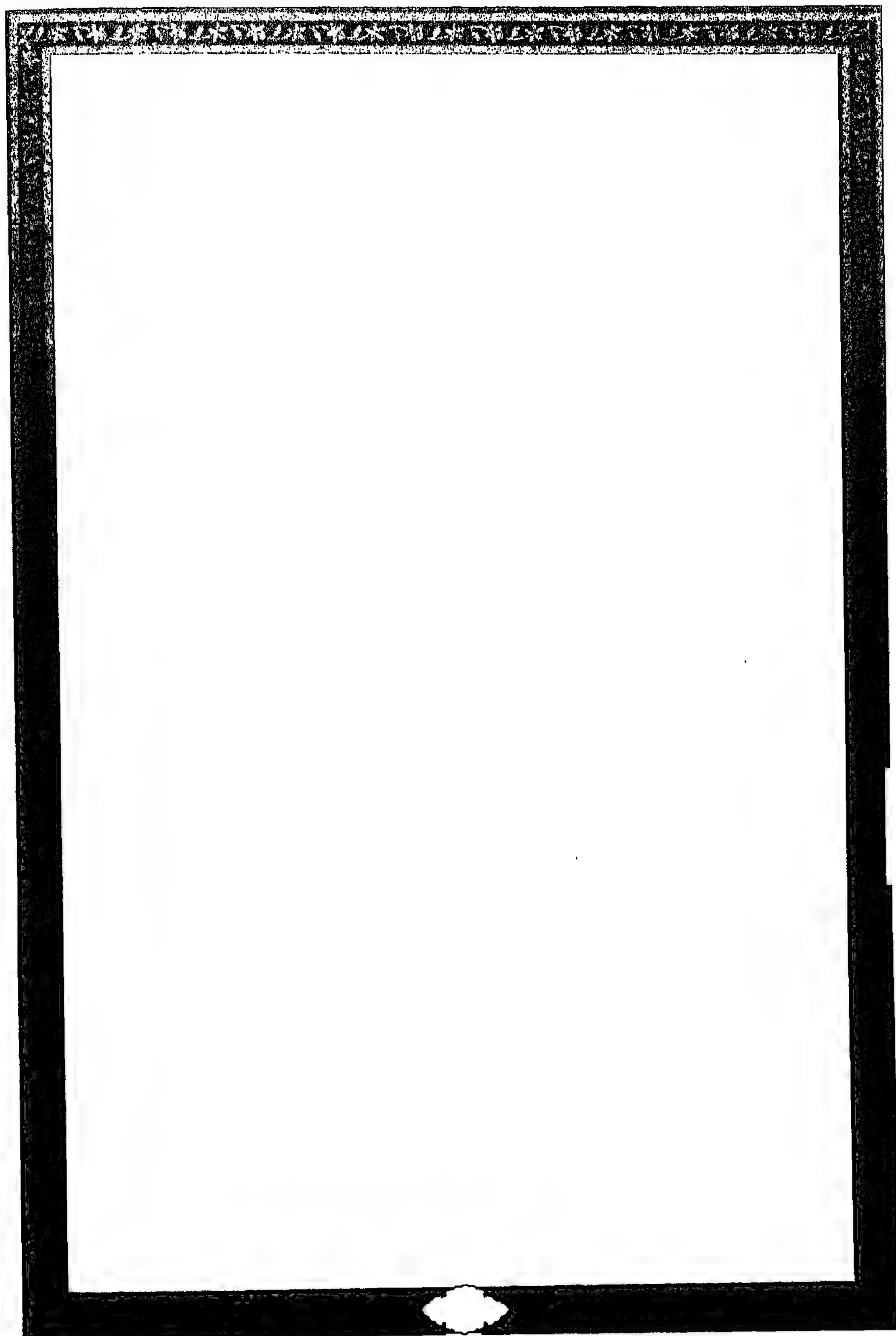
(٣) أخرجه الترمذي: ك/المناقب، ح/٣٦٢٦.

(٤) أخرجه البخاري: ك/الفضائل، ح/٣٤٧٢.

الرسالة الخامسة والعشرون

سيدي :

أنت الزوج الأمثل والأب الأفضل



أيُّها الحبيبُ:

سيِّدي يا مَنْ كنتَ وما زلتَ الأسوةَ والقدوةَ للإنسانِ في كلِّ مجالٍ وميدان.

أنتَ ربُّ أسرةٍ ناجحٍ، وأنتَ قائمٌ بالأمرِ الإلهيِّ خيرَ قيامٍ، طِبتَ حيّاً وطِبتَ ملتحقاً بالرَّفيقِ الأعلى، وطِبتَ شافعاً يومَ القيامةِ، طِبتَ حيثُ كنتَ، وأنتَ في أيِّ مكانٍ بعطاءِ اللهِ وفضلِهِ تكون.

تزوجتَ فرحمتَ مَنْ تزوجتَ، وناديتَ فعدلتَ:

(**خيرُكمْ خيرُكمْ لأهلِهِ وأنا خيرُكمْ لأهلي**)[1]، و (**ما أكرمَ النِّساءَ إلا كريمٌ ولا أهانَهنَّ إلا لئيمٌ**)[2].

وتشهدُ الزَّوجاتُ الفضيلاتُ بذلكَ، فتقولُ إحداهُنَّ، وهي السَّيِّدةُ عائشة رضيَ اللهُ عنها: «كانَ رسولُ اللهِ ﷺ ألينَ النَّاسِ بسَّاماً ضحَّاكاً»[3].

وتتابعُ: «كانَ النَّبيُّ ﷺ يخيطُ ثوبَهُ، ويخصفُ نعلَهُ، ويعملُ ما

يعملُ الرِّجالُ في بيوتِهمْ، ويكونُ في خدمةِ أهلِه»[٤].

لقدْ عاهدتُ نفسيَ، سيِّدي، ألاّ أُحصيَ هنا ما أحفظُ، ولكنِّي سأذكرُ مِنَ المخزونِ العظيمِ أطرافاً، ولعلَّ طرفاً مِنْ هذهِ الأطرافِ يفوقُ مخزونَ التَّاريخِ، وما في جعبتهِ عن هذا الموضوعِ وكلِّ موضوعٍ.

وبعدَ الزَّواجِ كانَ الأولادُ وأولادُهم، وكنتَ الأرحمَ بهمْ، بعدَ اللهِ الرَّحمنِ.

تُوفِّيَ ولدُكَ إبراهيمُ، وكانتْ سنُّهُ صغيرةً، وهو دائماً كبيرٌ لأنَّهُ بضعتُكَ، فبكيتَ وقلتَ رائدَ الكلامِ في المناسباتِ: (إنَّ العينَ لتدمعُ، وإنَّ القلبَ ليحزنُ وإنَّا على فراقِكَ يا إبراهيمُ لمحزونونَ ولا نقولُ إلاَّ ما يُرضي ربَّنَا إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعون)[٥].

يأتيكَ رجلٌ يُدعى الأقرعَ بنَ حابسٍ فيراكَ تُقبِّلُ السبطَ الغاليَ الحسنَ عليه السلام فيقولُ: «يا رسولَ اللهِ إنَّ لي عشرةً مِنَ الولدِ ما قبَّلْتُ واحداً منهم !» فتقولُ لهُ: (وهلْ أملكُ إنْ كانَ اللهُ قدْ نزعَ مِنْ قلبِكَ الرَّحمةَ. مَنْ لا يَرحمْ لا يُرحمْ)[٦].

ويحدِّثُنا عمرُ رضي الله عنه فيقولُ، وقدْ دخلَ عليكَ فرآكَ واضعاً الحسنَ والحسينَ على عاتقيْكَ تقولُ لهما مدلِّلاً مداعباً:

(نِعْمَ الفارسانِ أنتما)[٧].

الرَّحمةُ أنتَ مُجسِّدُها في عالَمِ الخُلقِ، واللهُ مُجسِّدُها فيكَ: ﴿وما أرسلناكَ إلاَّ رحمةً للعالمين﴾ الأنبياء/١٠٧.

وأمَّا قصتُكَ مَعَ أُمامةَ ابنةِ ابنتِكَ، فباديةُ العظمةِ، واضحةُ الرَّوعةِ، بيِّنةُ الأُنسِ، جليّةُ اللُّطفِ، يروي أبو قتادةَ يقولُ: «خرجَ علينا رسولُ اللهِ

ﷺ وأمامةُ بنتُ أبي العاصِ على عاتقِهِ، فصلّى، فإذا ركعَ وضعَهَا، وإذا رفعَ رفعَهَا »[٨].

وموقفُكَ مَعَ الزَّهراءِ سيِّدةِ الدُّنيا مثالٌ للسَّماءِ كما للأرضِ، ناديتَ:

(**فاطمةُ بَضعةٌ منّي. يَريبُني ما يَريبُهَا، ويؤذيني ما يؤذيها**)[٩].

أيُّها الرَّحيمُ الحريصُ علينا ما عَنِتّنَا.

أيُّها الأبُ الأشفقُ والزَّوجُ الأكرم والمعيل الأعظم.

يكفيك ما قدّمتَه يداك في ذا الميدان لتكون عظيماً عاماً. فما بالك وقد قدّمت في كل الميادين عظائم.

ما رأى أنسٌ خادُمك أرحم منك بالعيال، ولن يرى، وما رأيتُ، ولن أرى، وما رأى سواي، ولن يرى.

أيتها الأمم الباحثة عن أنموذج فيما يتعلق بالأسرة، إليكِ رسولَ الله وأسرتَه، مثالاً لا يضاهى، ورمزاً يفوق ما في الدُّنيا من رموز جميعاً

أيتها الأسر الساعيةُ إلى تماسك، الطالبةُ الخيرَ، النابضة في التعرف على أسرة. هذا رسول الله يكفيك ويغنيك.

فيا سيِّدي:

سأبقى أردِّد أمام الأزواج والآباء والأولاد وكلِّ أفراد العائلات: أنت الزوج الأفضل، والأب الأمثل.

وأنت أنت خيرُ مَنْ رعى الأسرة، فبلِّغها رسالة الحنان والأمان والحبِّ والوفاء والعطاء حالاً وقالاً.

الصلاةُ والسَّلام عليك زوجاً وأباً وجداًّ، وعلى آلك الأطهار ما حثَّ

زوجٌ الخطا في التنقيب عن قدوةٍ لا نظير لها.

واقبلني لاثماً عتباتٍ داستها قدماك يا روحي وروح زوجي وأولادي.

محمود

الهوامش

(١) أخرجه الترمذي: ك/المناقب، ح/٣٨٩٥. وابن ماجه: ك/النكاح، ح/١٩٧٧.

(٢) اتحاف السادة المتقين: ج ٥/٣٦٤، وعزاه إلى الطبراني وابن عساكر.

(٣) أخرجه ابن سعد: ج ١/٣٦٥. وابن كثير في الشمائل.

(٤) أخرجه أحمد: ح/٢٦٠٧٢/، ج ١٨/١٦٧.

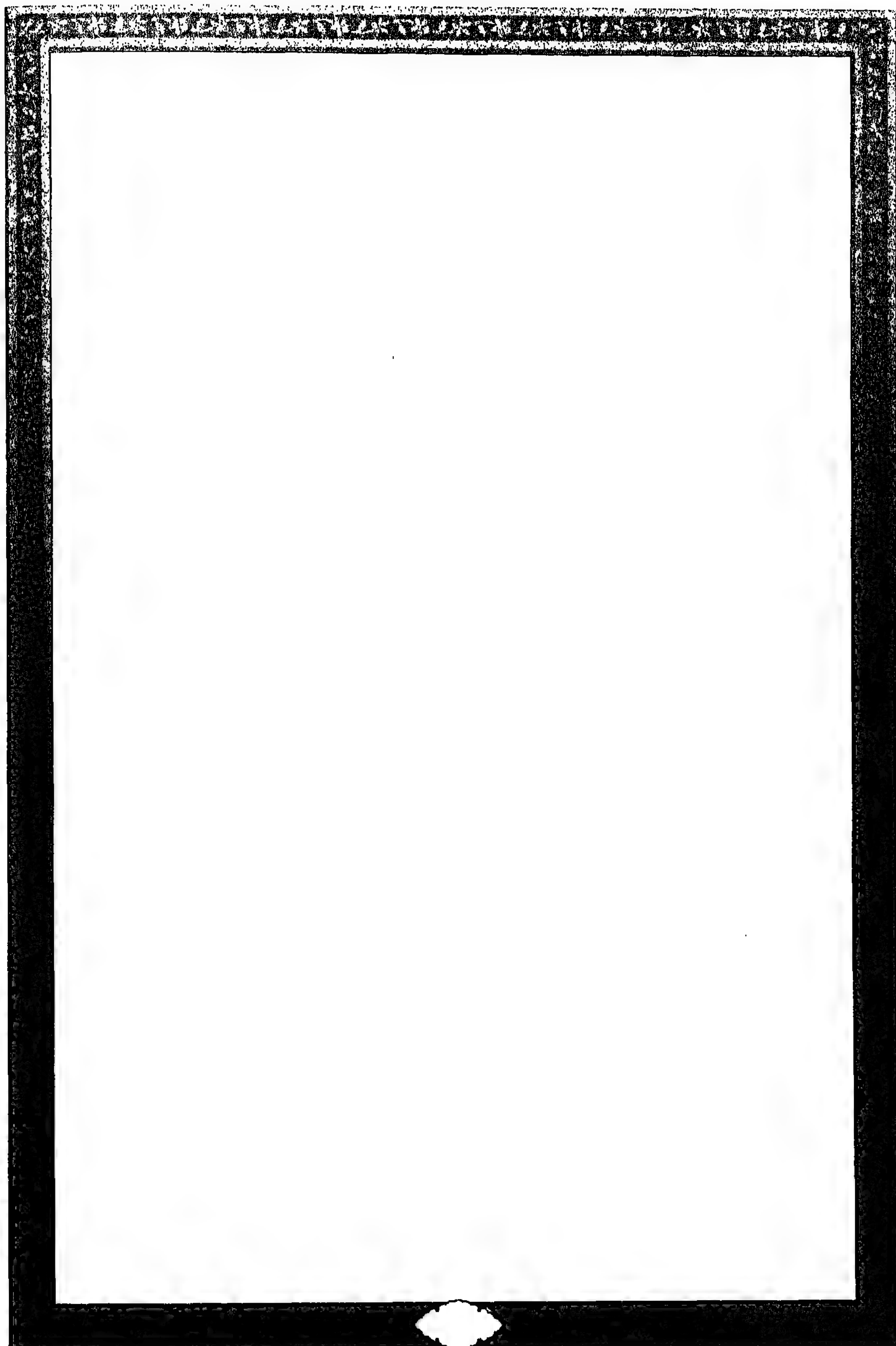
(٥) متفق عليه. البخاري: ك/الجنائز، ح/١٢٤١. مسلم: ك/الفضائل، ح/٢٣١٥.

(٦) أخرجه مسلم: ك/الفضائل، ح/٢٣١٧.

(٧) حياة الصحابة: ج ٣/٢٩٤.

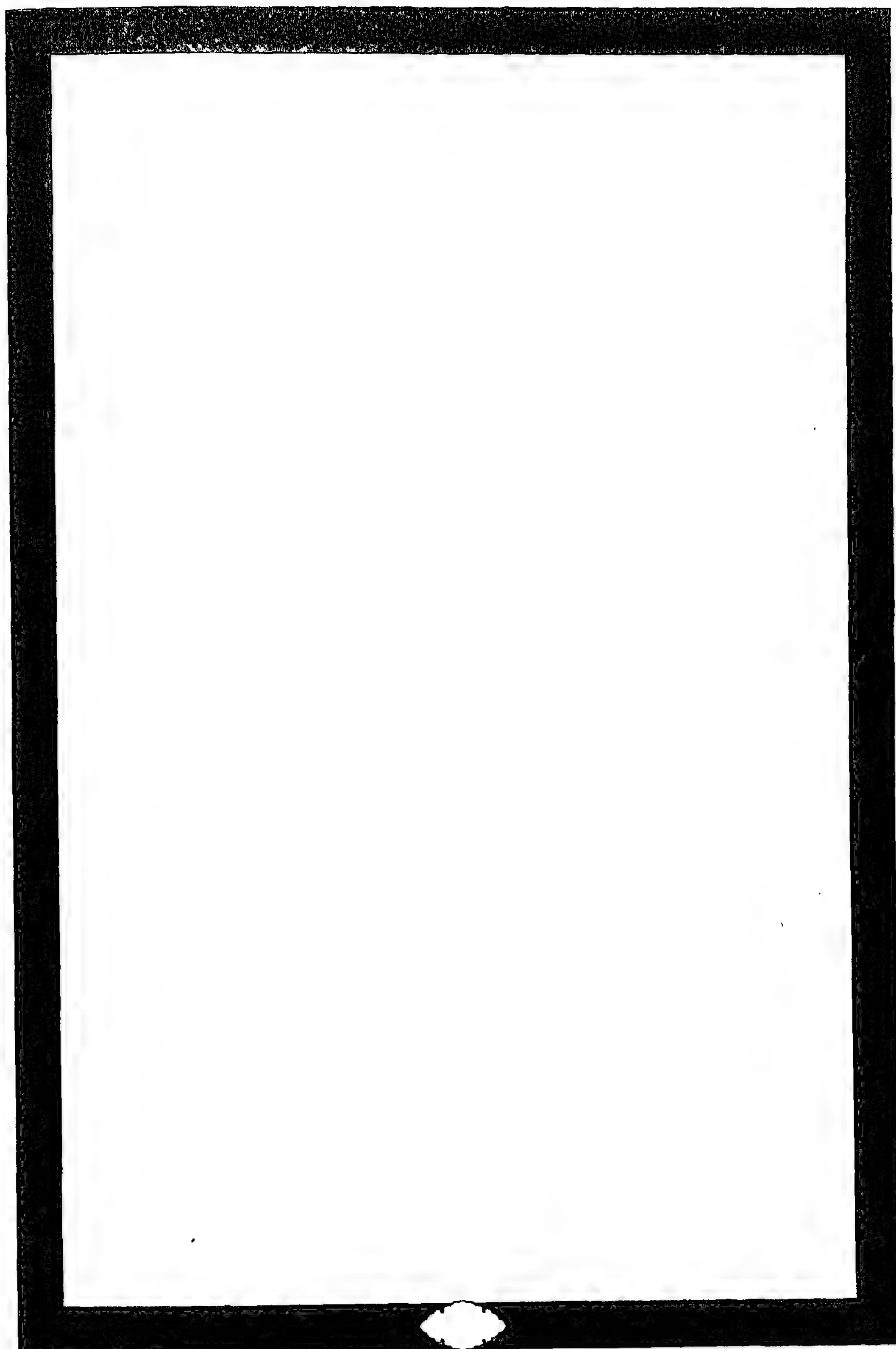
(٨) متفق عليه. البخاري: ك/الأدب، ح/٥٦٥٠. مسلم: ك/المساجد، ح/٥٤٣.

(٩) متفق عليه. البخاري: ك/النكاح، ح/٤٩٣٢. مسلم: ك/الفضائل، ح/٢٤٤٩.



الرسالة السادسة والعشرون

دَعْوَةٌ عَامَّةٌ إِلَى شَخْصِيَّةٍ كَامِلَةٍ



أيُّها الحبيب الغالي، يامَنْ بُعثت رحمةً للعالمين:

سأبقى أردِّد على مسامع الدُّنيا دعوةً عامة إلى شخصيةٍ كاملة تامّة، إليك أنت يا سيِّدي. وهل إلاَّ أنت هو تلك الشخصية.

فيا أيُّها الإنسان الطامحُ إلى رؤيةِ إنسانٍ كامل، ويا أيُّها الإنسان الصَّادق في السَّعي عن إنسانٍ شامل تامٍّ.

إليك رسولَ الله مُحَمَّداً ﷺ، فخُذه واتَّخذه.

أيُّها السِّياسيونَ، أيُّها القادةُ، أيُّها الآباء، أيُّها الأبناء، أيُّها التجَّار، أيُّها المربُّون، أيُّها المؤدِّبون، أيُّها المعلِّمون، أيُّها العابدون، أيُّها الحامدون، أيُّها المنصفون، أيُّها المدرِّسون، أيّها النَّاس:

﴿ قد جاءكم منَ اللهِ نورٌ وكتابٌ مبينٌ يهدي بهِ اللهُ مَن اتَّبعَ رضوانَه سُبُلَ السَّلام ﴾ المائدة/١٦.

حُدِّد المنهاجُ فكان القرآنَ، واصطُفيَ المعيارُ فكنتَ أنت، يا سيِّدي، يا

رسولَ الله.

وَلقيصرَ الرُّوميِّ وقفةُ ذِلَّةٍ | يروي الزمانُ قُبحَها بصِحاح
كسْرَى لقيصرَ قالَها بتلعثمٍ | جاءَ الذي قد قيلَ في الألواح

أولستَ القائلَ يا أبا الزَّهراء: (**أنا خيرُ أصحابِ اليمين، أنا خيرُ السَّابقين، أنا أتقى ولَدِ آدمَ وأكرمُهم على الله، ولا فخر**) [1].

والقائلَ: (**تنامُ عينايَ ولا ينامُ قلبي**) [2].

والقائلَ: (**مَا مِنْ شيءٍ في السَّموات والأرضِ إلا يعلمُ أنّي رسولُ الله إلا عاصيَ الجنِّ والإنس**) [3].

والقائلَ: (**أنا أكرمُ الأوَّلين والآخرين ولا فخر**) [4].

والقائلَ: (**أنا إمامُ النَّبيِّين وخطيبُهم وصاحبُ شفاعتهم**) [5].

والمقولَ فيك: «ما رأيتُ أشجعَ ولا أجودَ ولا أنْجدَ ولا أرضى من رسول الله»، كما ورد عن ابن عمر رضي اللهعنهما.

والمقولَ فيك أيضاً: «ما عند رسول الله ليس عند أحد من البشر»، كما ورد عن أبي بكر رضي الله عنهما.

سيِّدي:

لستَ من أجلِ شريحةٍ محدَّدة، بل من أجل كلِّ الشَّرائح، فأنتَ الكاملُ.

ولستَ القدوةَ في مجالٍ واحد، بل في كلِّ الاتجاهات، فأنت الشَّامل.

ولستَ عاديًّا في كلِّ شريحةٍ وفي كلِّ مجالٍ، بل الأفضلَ والأرقى والأروعَ والأعظمَ؛ فأنت التامُّ.

فيا رجالاً يبحثون ونساءً تبحث:

خيرُكم جميعاً في التزامِ ومتابعةِ شخصيَّةِ الكون، بل شخصيةِ الأكوان؛ في معاهدةِ شخصيَّةِ الزَّمنِ، بل شخصية الأزمان، إنَّه المصطفى مُحَمَّدٌ ﷺ.

فاللَّهُ أرسلَه، وعلى أجملِ وأكملِ حالٍ وكينونةِ كوْنِه، وللعالمين بشيراً ونذيراً اختاره.

اختاروا ما اختارَ اللَّهُ لكم ولا تُنكروا.

والتزمُوا ما دعاكُمُ اللَّهُ إلى التزامه، ومَنْ دعاكُم إلى التزامه.

وقولوا بلسانٍ واحد:

﴿ رَبَّنا آمنَّا بما أنزلتَ واتَّبعنَا الرَّسولَ فاكتُبنا مَعَ الشَّاهدين ﴾ آل عمران/ ٥٣.

أيُّها الحبيبُ سيِّدي:

سلامٌ عليك في كلِّ مكانٍ وكلِّ آنٍ.

وجزاكَ ربِّي خيرَ ما يجزي نبياً ورسولاً وإنساناً

عن أمَّتكَ والإنسانيةِ جمعاء.

يا نور عيني.

محمود

الهوامش

(١) أخرجه الطبراني: في المعجم الكبير، ح/١٢٦٠٥، ج ٨٢/١٢.

(٢) متفق عليه. البخاري: ك/صلاة التراويح، ح/١٩٠٩. مسلم: ك/صلاة المسافرين، ح/٧٣٨.

(٣) أخرجه الدارمي: المقدمة، ح/١٨.

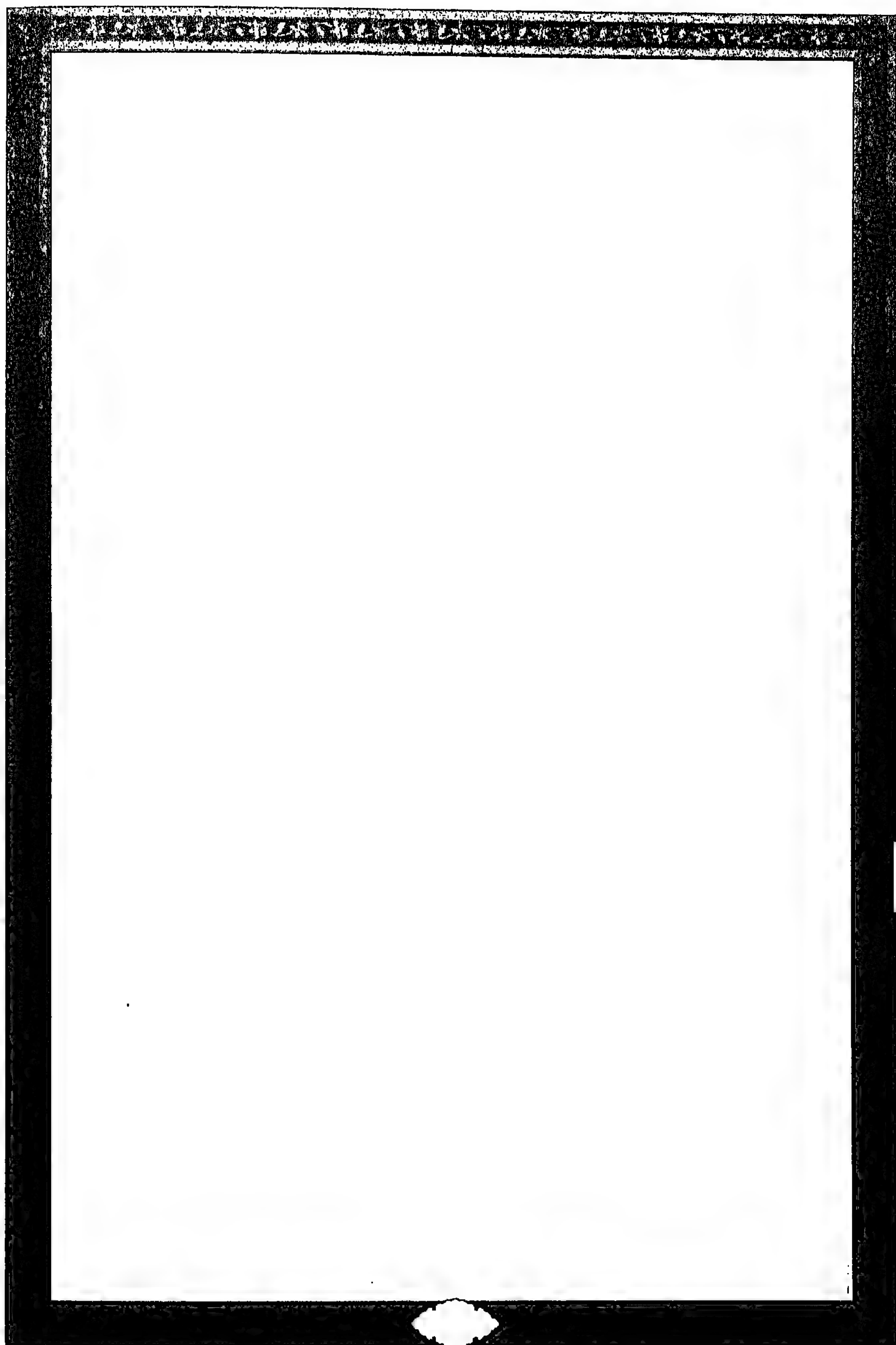
(٤) أخرجه الترمذي: ك/المناقب، ح/٣٦١٦.

(٥) أخرجه الترمذي: ك/المناقب، ح/٣٦١٢.

الرسالة السابعة والعشرون

سيدي :

أنت أسوة فوق القدوة



أيُّها الأسْوةُ الحسَنةُ، وهكذا أرادكَ اللّهُ أن تكون: ﴿لقد كانَ لكمْ في رسولِ اللهِ أسوةٌ حسنةٌ﴾ الأحزاب/٢١.

فالإنسانُ، يا سيِّدَ الرُّسل، بحاجةٍ إلى مُقتَدىً به، يُقنعُ به عقلَه، ويَرسمُ حركةَ الفعلِ للمبدأ الذي يؤمنُ به، كما هو بحاجةٍ أيضاً إلى مُؤْتَسىً به يُطمئن قلبَه بالحبِّ مَعَ القناعة وبعدَها.

والأولُ هو القدوةُ، والثاني هو الأسوةُ.

القدوةُ للاتِّباعِ والطَّاعةِ، والأسوةُ للاتِّباعِ والطاعةِ والحبِّ.

القدوةُ يَقنعُ بها عقلُك، والأسوةُ يَقنعُ بها عقلُك ويتعلَّق قلبُك عبر الحبِّ بها.

فأنت يا سيِّدي أسوةٌ فوق القدوةِ.

كونُك رسولَ اللهِ أقنَعَنا، وكونك منَّا حريصاً علينا رؤوفاً بنا علَّق قلوبَنا بالحبِّ بك.

نعم. أحببناك فوقَ الاتّباع ومَعَه وبه، ولِمَ لا وأنت ﴿ وإنّك لعلى خُلُقٍ عظيم ﴾ القلم/٤، والقلبُ جُبلَ على حبِّ مَنْ له الخُلُقُ الحسنُ سجيةً وطبعاً وفطرةً.

لِمَ لا ؟ وأنتَ الرَّحمةُ، وقلوبُ بني البَشر تعشقُ الرحمة: (إنّي لم أُبعثْ لعّاناً، وإنَّما بُعثت رحمة) [1].

وحُقَّ لك، سيِّدي، أنْ تقولَ لنا: (لا يؤمنُ أحدُكم حتّى أكونَ أحبَّ إليه مِن والدِه وولَدِه ومن النَّاس أجمعين) [2].

ووجَبَ علينا أن نجيبَ: سَنَتَّبعك، سَنطيعك، سنحبُّك.

اتَّبعناك، أطعْنَاك، أحبَبْناك،

اتَّبعناك:

فقد ملأتَ عقولَنا إقناعاً؛ بمنهجكَ الذي أتيتَ به من ربِّك، برسالتك العظيمةِ التي أوحاها إليك خالقُنا، فلا واللهِ ما أمرتَ بأمرٍ قال العقلُ ليتكَ نهيتَ عنه، ولا نَهيتَ عن أمرٍ قال العقلُ ليتك أمرتَ به.

أطعناك:

فها أنتَ تبلِّغنا الأمرَ عن اللهِ: ﴿ قل أطيعوا الله والرّسول ﴾ آل عمران/٣٢، وبلاغُك صادقٌ صادقٌ صادقٌ.

أحببناك:

لأنك فوق ذلك وهذا، تفضَّلتَ علينا بسَبْق الحبِّ والعطاءِ وإرادةِ الخير، والقِصصُ الواردةُ عنك في ذا المجالِ عصيَّةٌ على الحصرِ والقصر.

لقد ودَّعت يوماً الشهيدَ عثمانَ بن مظعون وداعاً جعلَ مَنْ حولكَ

يتمنَّون الشهادةَ من أجلِ هذا الوداعِ، وضعتَ رأسَه في حجرك الميمون وبكيتَ، ومِن دموعك كانت هناك لؤلؤتان على خدِّ عثمان، فيا طوبى لعثمان.

ومَعَ أصحابك يومَ الخندق حفرتَ، ولهم دعوت: (**اللهمَّ لا عيشَ إلا عيشُ الآخرة، فاغفرْ للأنصار والمهاجرة**) [٣]. فأنت، وأيمُ الحقِّ، منَّا.

وكذلك فما أرحمكَ بنا، وما أشدَّ رأفتَك بأمَّتك !

لقد قرأتَ يوماً قولَه تعالى على لسان إبراهيمَ عليه السلام: ﴿**ربِّ إنَّهنَّ أضللنَ كثيراً منَ النَّاسِ فمَن تبعني فإنَّه منِّي ومَنْ عصَاني فإنَّك غفورٌ رحيمٌ**﴾ إبراهيم/٣٦، وتلوتَ قولَه عزَّ شأنُه على لسان عيسى عليه السلام: ﴿**إنْ تُعذِّبهُم فإنَّهم عبادُك وإنْ تغفر لهم فإنَّك أنت العزيزُ الحكيم**﴾ المائدة/١١٨. ثُمَّ بكيت، وجاءك جبريل مرسَلاً من اللهِ فسألَك: ما يبكيك يا مُحَمَّد ؟ فقلت: (أمَّتي). فعادَ جبريلُ لينقلَ الرسالةَ إلى الحيِّ القيوم - وهو يعلمُ - فقال اللهُ: يا جبريلُ اذهبْ إلى مُحَمَّد، وقلْ له: سنرضيك في أمتِّك ولا نسوؤك. [٤]

نعم أحببناك يا سيِّدي لأنك أسوتُنا، والأسوةُ تستلزم من المؤتسي حيالَ المؤتسَى به اتباعاً وطاعةً وحباً.

فلن نعدلَ عنكَ ما حيينا، وبعد إذ يتوفَّانا اللهُ، وحين نقفُ يوم الحشر بين يدي الله.

يا هذه الدُّنيا أصيخي واشهدي إنَّا بغير مُحَمَّد لا نقتدي

ولا نأتسي.

يا أيُّها العظيم: حمداً لله على أنْ كنت لنا هادياً،
وشكراً لله على أنْ كنتَ منا، والمنَّةُ العظمى للهِ علينا أن اصطفاك لنا رحمة.

رحمةُ الله وبركاتُه عليك وعلى آلك. إنَّ ربي حميدٌ مجيدٌ.

محمود

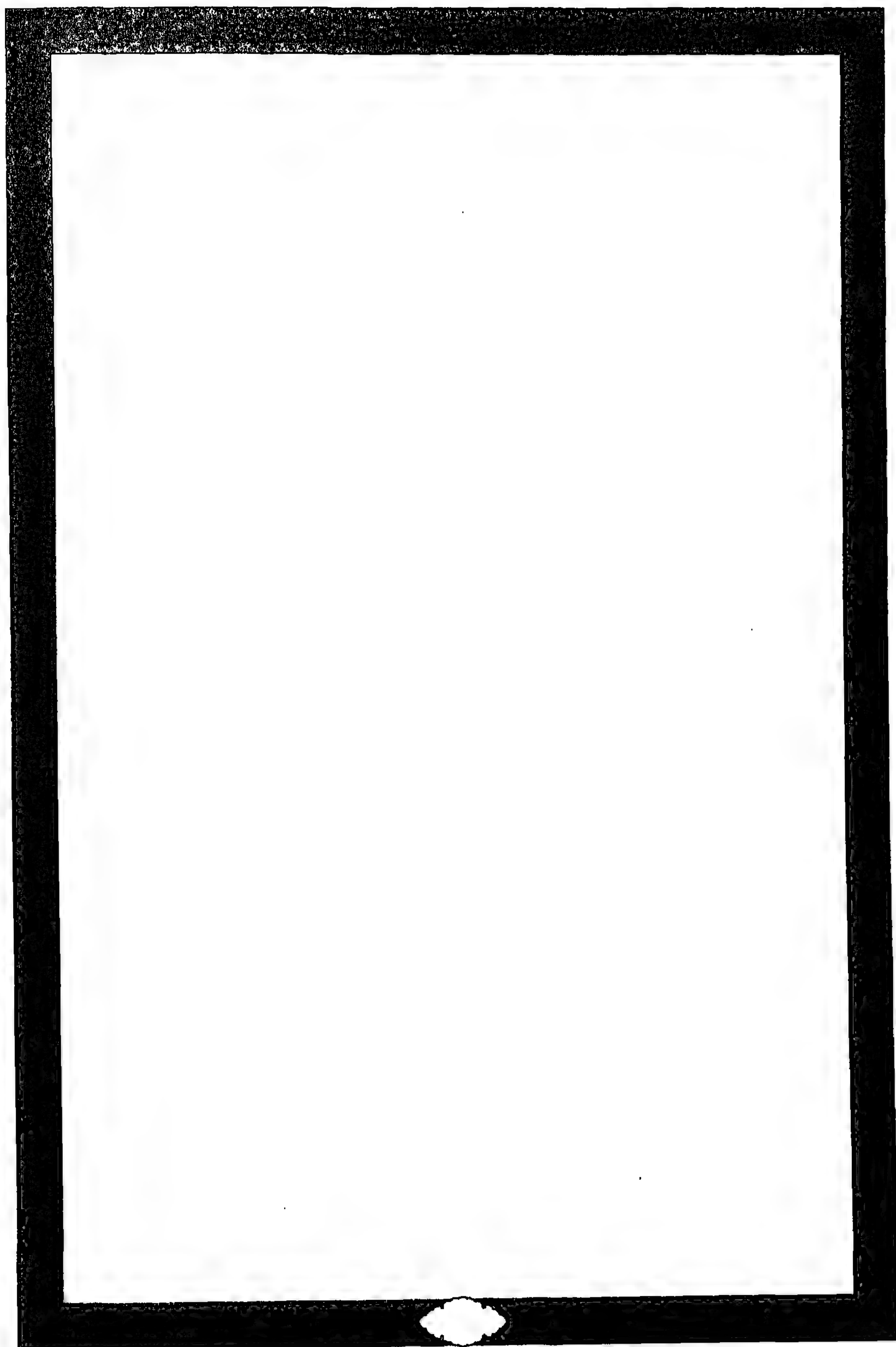
الهوامش

(١) أخرجه مسلم: ك/البر، ح/٢٥٩٩.

(٢) متفق عليه. البخاري: ك/الإيمان، ح/١٥. مسلم: ك/الإيمان، ح/٤٤.

(٣) متفق عليه. البخاري: ك/الإيمان، ح/١٥. مسلم: ك/الإيمان، ح/٤٤.

(٤) أخرجه مسلم: ك/الإيمان، ح/٢٠٢.

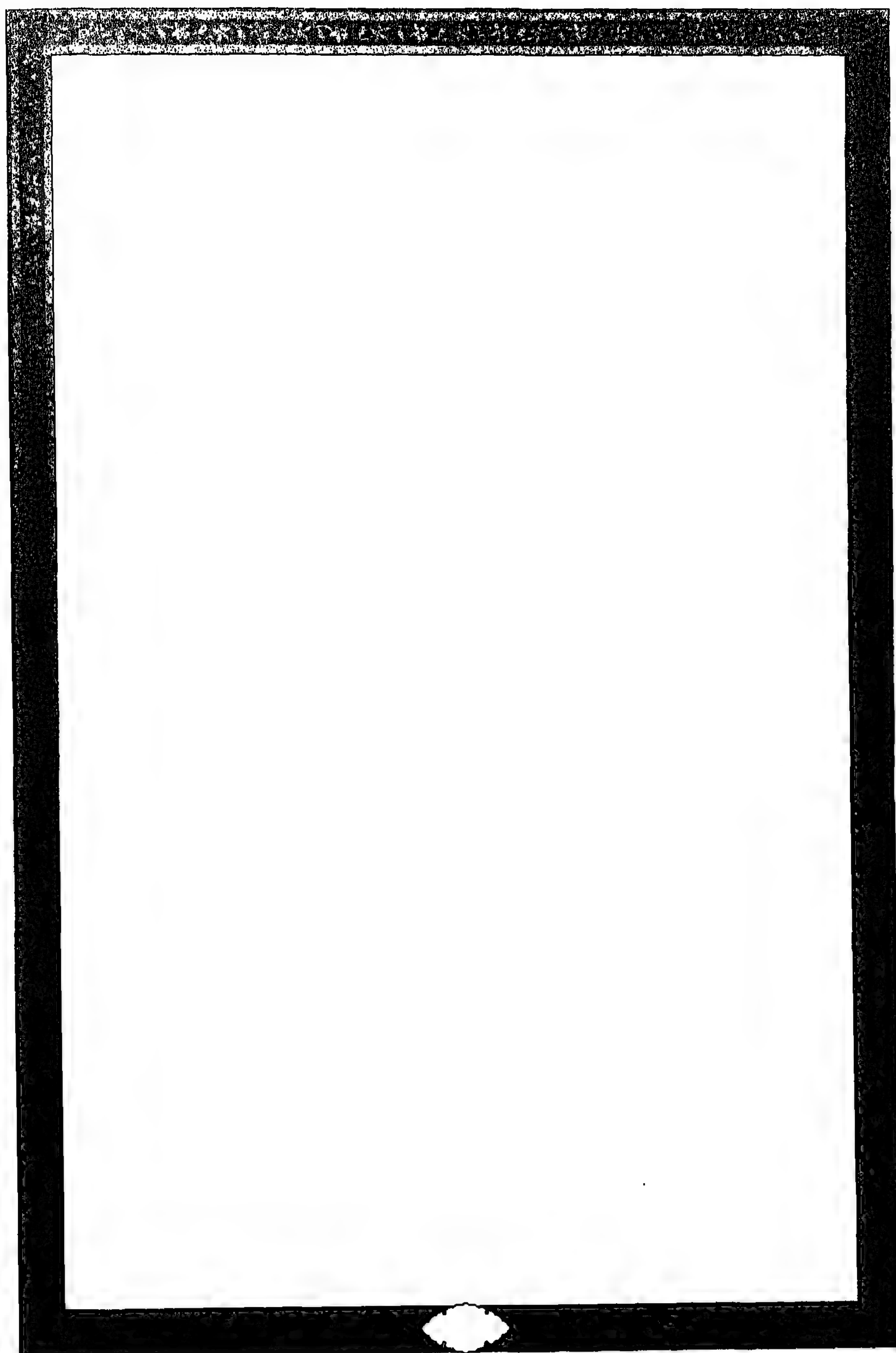


الرسالة الثامنة والعشرون

سيدي :

الصَّلاةُ عليكَ فريضةٌ مُنوِّرةٌ

فهنيئاً لمن استنار



سيِّدي يا قُرَّةَ العينِ:

أليسَ مَنْ أحبَّ أكثَرَ من ذِكرِ مَنْ أحبَّ وما أحبَّ، والصَّلاةُ عليك بعد السَّلامِ برهانُ حبٍّ، ودليلُ ارتباط، وعلامةُ وصال:

﴿ إنَّ اللَّهَ وملائكتَهُ يُصلُّونَ على النَّبيِّ يا أيُّها الذين آمنُوا صلُّوا عَليه وسلِّموا تسليماً ﴾ الأحزاب/٥٦.

فاللَّهُ جلَّ شأنُه يحبُّك، وكذلك ملائكتُه، والخبرُ الصادقُ جاءنا عنهم بأنَّهم يُصلُّون عليك، ودعانا، نحن من آمنَّا بالله، أنْ نقيمَ دليلاً على حُبِّنا إياك بالصَّلاة والسَّلام عليك.

فاللَّهمَّ صلِّ على مَنْ أحببتَ وأرسلتَ واصطفيتَ، وبه الرسالاتِ السماوية خَتمتَ، صلاةً تُرضيكَ وتُرضيه يا خير المصلِّين والمُسَلِّمين على الإطلاق، امتثالاً لأمرك، وإقامةً لفرضٍ منك علينا يا ربَّاه، وتحقيقاً لصلةٍ نافعةٍ معَك يا رسول الله، فأنت القائل:

(إنَّ لله ملائكةً سيَّاحين يُبلغونَني عن أمَّتي السَّلام) [1].

وأنتَ الدَّاعي بقولك:

(حَيثما كُنتم فَصلُّوا عليَّ فإنَّ صلاتَكم تَبلُغني) [2].

وأنتَ الضَّامن بدعوتك:

(مَا مِن أحدٍ سلَّمَ عليَّ إلا ردَّ اللهُ إليَّ روحي حتَّى أردَّ عليه السَّلام) [3].

وقولك: (إنَّ الله وكَّل بقبري ملكاً أعطاه أسماءَ الخلائقِ، فلا يصلِّي عليَّ أحدٌ إلى يوم القيامةِ إلا أبلغني باسمهِ واسم أبيه، هذا فلانٌ ابن فلانٍ صلَّى عليك) [4].

أيُّها الحبيبُ الطبيبُ الشَّفيع الرَّفيع، حَدَّثنا عنك صهرُك الإمامُ عليٌّ عليه السلام: «كلُّ دعاءٍ محجوبٌ حتَّى يُصلَّى على مُحَمَّد ﷺ» [5]، لأنَّك الصِّلَةُ الدَّالَّةُ، والوشيجةُ الخيِّرةُ الواصلةُ، ولأنَّك بابُ الله، فأيُّ أمرىءٍ أتاهُ مِن غيرك لا يدخل.

سيِّدي أبا الزَّهراء:

حياتُك تُنعش مَنْ عاصركَ وعايشَك، أطلقتَ الأرواحَ في سُبُحات السَّعادة، وجعلتَ العقولَ بما طلبتَه منها ذات سيادة، وها أنتَ بعد انتقالكَ تستمرُّ عطاياك وتستمرُّ، فالَهَمُّ لا يَقربُ مَن صلَّى عليك، وله الهناءُ والاستقرارُ وزيادةٌ، فأنتَ قلتَ لهذا الذي سألك: «أرأيتَ إنْ جعلتُ صلاتيَ كلَّها عليك ؟»

(إذاً يكفيك اللهُ ما أهمَّك مِن دنياك وآخرتِك) [1].

أمَّا في الدُّنيا:

فلأنَّه يلقَى الراحةَ في فؤادِه، والسَّدادَ في لسانه، والصَّفاءَ في بصيرته، والرَّشادَ في عقله، وما ذلك عمَّن اتَّصل بك ببعيد، وهل يَطالُ الهمُّ مَنْ تولاك اتِّباعاً، فتولَّيته دعاءً وشفاعةً وأنظاراً.

وأمَّا في الآخرة:

فلأنَّك أخبرتَ فقلتَ: (إنَّ أولى النَّاسِ بي يومَ القيامة أكثرُهم عليَّ صلاةً) (٢).

وبشَّرتَ: (مَنْ صلَّى عليَّ في يومٍ ألفَ مرةٍ لم يَمُتْ حتَّى يرى مقعدَه من الجنَّة) (٣).

وأكَّدتَ: (مَنْ صلَّى عليَّ واحدةً صلَّى اللهُ عليه عَشْراً، ومَن صلَّى عليَّ عشْراً صلَّى اللهُ عليه مئةً، ومَن صلَّى عليَّ مئةً كتبَ اللهُ بين عينيه براءةً منَ النِّفاق، وبراءةً منَ النَّار، وأسكنَه اللهُ يوم القيامة مَعَ الشُّهداء) (٤).

سيِّدي، وأنتَ سيِّدُ السَّادة في عالم البَشرِ:

السَّعادةُ في قُربك، فأنتَ مالكٌ زمامَها، الأوفَى بين النَّاس، والهناءةُ في سرِّك، لأنَّ كلَّ سرِّك من روح الله.

أنت سَنَدي، وأنت مَلاذي، وأنت مَرجعي من أجل إرضاء اللهِ.

أسألكَ بفضلِ الصَّلاة عليكَ الشَّفاعةَ.

وأتوجَّهُ إلى جنابك بأحبِّ المحبوبين عندك.

وأطلبُ القَبولَ ياصاحبَ الوسيلةِ إذ تقومُ السَّاعةُ.

وأقفُ ببابك وأعتابك وأناديك:

ما لي سـوى رُوحي وباذلُ نفسهِ   في حبِّ مَن يهواه ليسَ بمُسرفِ[1]

محمود

الهوامش

(١) أخرجه النسائي: ك/السهو، ح/١٢٨١.

(٢) أخرجه أبو داود: ك/المناسك، ح/٢٠٤٢.

(٣) أخرجه أبو داود: ك/المناسك، ح/٢٠٤١.

(٤) الترغيب والترهيب: وعزاه إلى الطبراني والبزار.

(٥) الترغيب والترهيب: وعزاه إلى الطبراني في الأوسط موقوفاً، ورفعه بعضهم، والموقوف أصح.

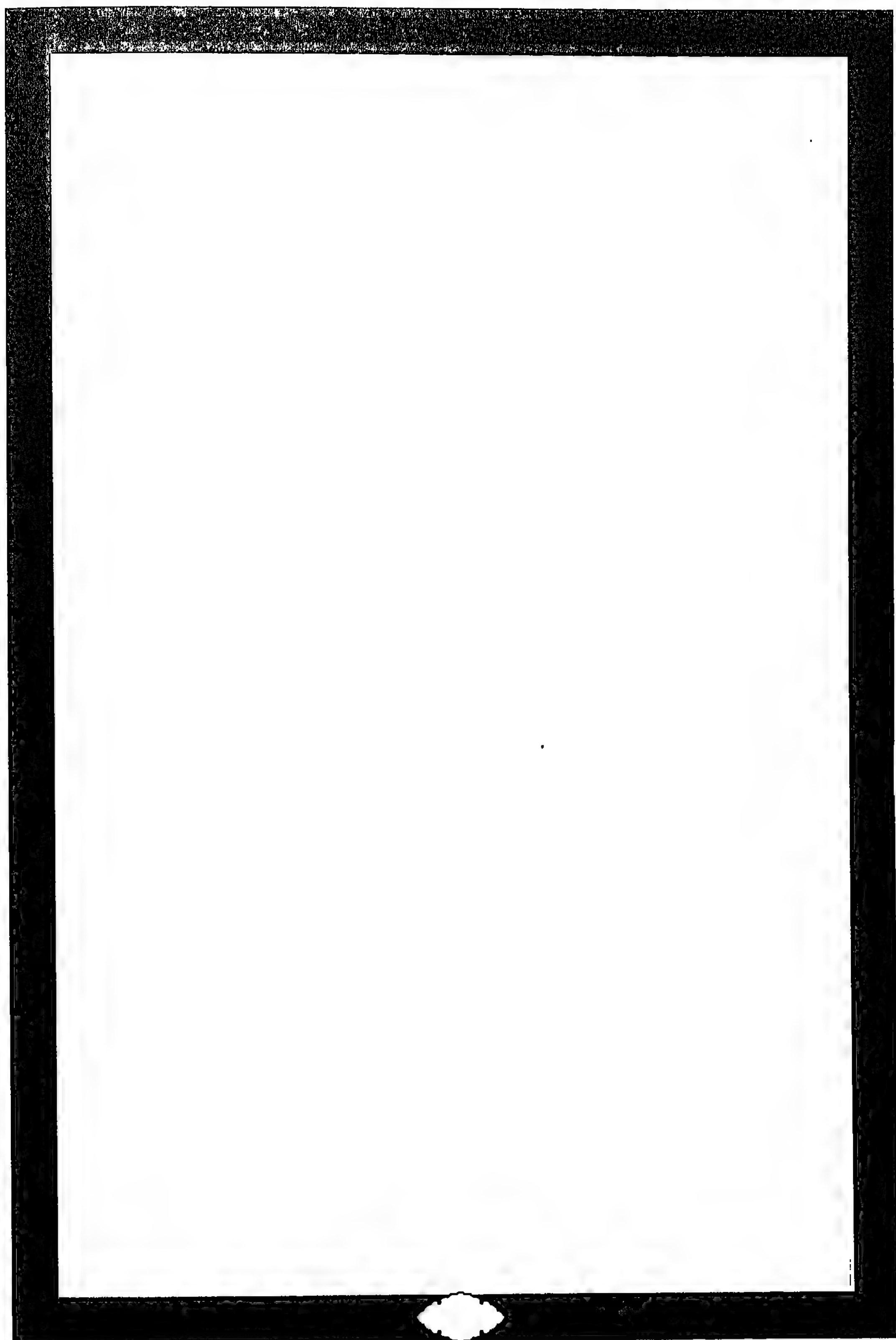
(٦) أخرجه أحمد: ح/٢١١٤٠، ج ٤٥٩/١٥.

(٧) أخرجه الترمذي: ك/الصلاة، ح/٤٨٤.

(٨) الترغيب والترهيب: وعزاه إلى الديلمي.

(٩) أخرج الكلمة الأولى منه مسلم وأبو داود والترمذي،وأخرجه بطوله أحمد، والنسائي في عمل اليوم والليلة، وابن حبان، والحاكم، كما في الترغيب والترهيب.

(١٠) من شعر المحبّ السلطان للعاشقين ابن الفارض.

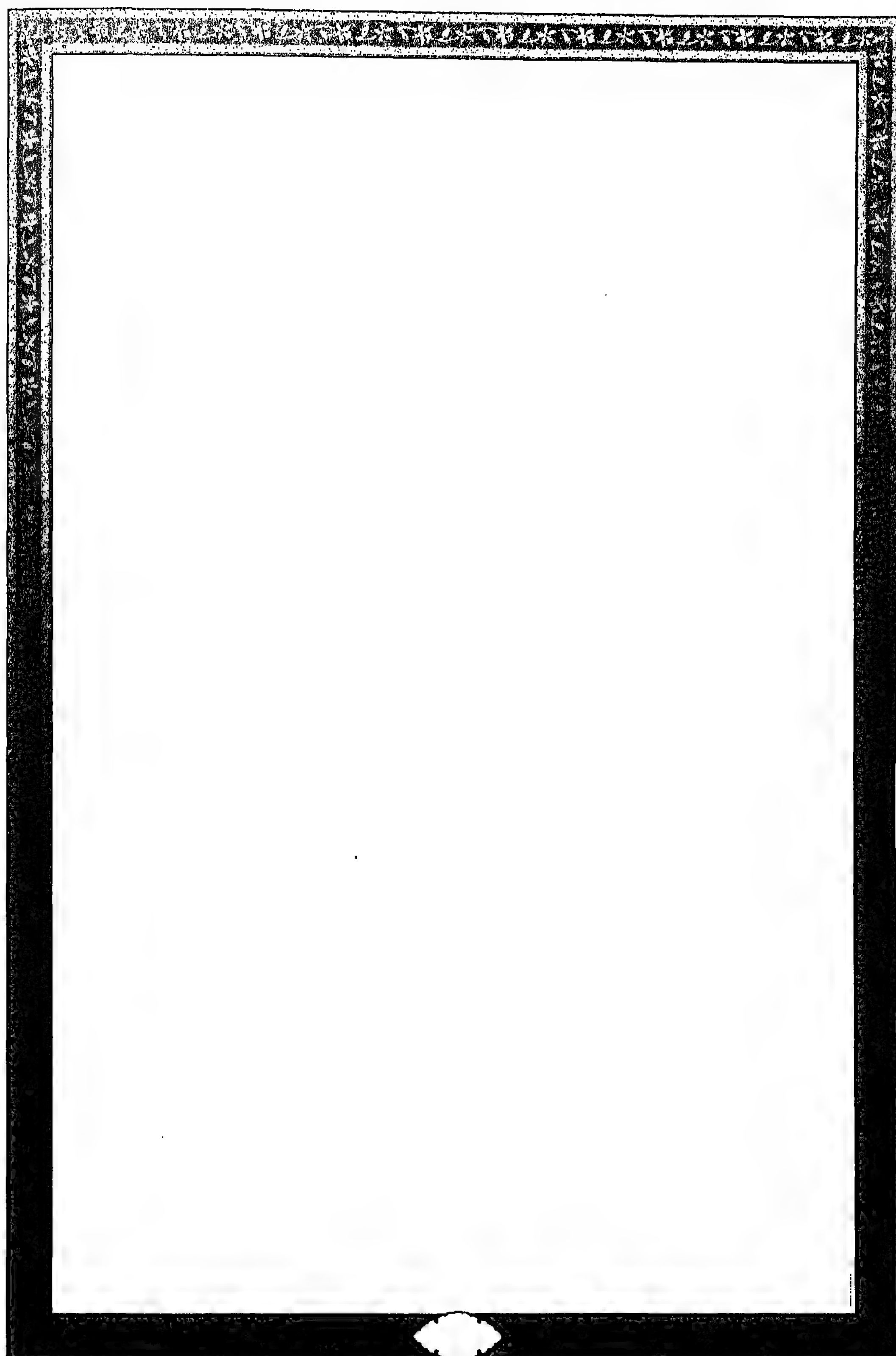


الرسالة التاسعة والعشرون

سيدي :

أنت المعصوم الأكمل

قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر



سيّدي أبا الزّهراء:

ولِمَ لا تكون معصوماً أكملَ، وأنت المعيارُ الحقُّ للكتابِ الحقِّ ؟ تمثّلتَه فكنتَه حركةً رساليةً واعيةً داعيةً هادفةً مُنقذةً، وكان فيك مخزوناً تفجّرَ في القلب والجوارح هدايةً تعلو كلَّ هداية. وهمّاً أذهبتَ نفسَك حسرات لتضعَه نوراً في كلِّ إنسانٍ على وجه البسيطة: ﴿ وما أرسلناكَ إلا رحمةً للعَالمين ﴾ الأنبياء/١٠٧.

عجباً لبعضٍ من أمّتي إذ يأخذُهم الحديثُ عنك على أنّك في حُكم بقيَّة المسلمين، وهُمْ هُمْ أنفسُهم يُدركون ويعلَمون أنَّ تفرّداً اصطفائياً يَحكُمك وحدك دون سواك:

﴿ اللهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالَتَه ﴾ الأنعام/ ١٢٤.

و ﴿ يا أيُّها المزَّمِّلُ قُمِ الليلَ إلا قليلاً نصفَه أوانقُصْ منه قليلاً أوزِدْ عليه ورتِّلِ القرآنَ ترتيلاً، إنَّا سنُلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾ المزمل/١-٥.

و ﴿إنَّا فتحنا لكَ فتحاً مُبيناً ليغفرَ لكَ اللهُ ما تقدَّمَ منْ ذَنبكَ ومَا تأخَّر ويُتمَّ نعمتَهُ عليكَ ويَهْدِيَكَ صراطاً مُستقيماً ويَنْصُركَ اللهُ نَصراً عزيزاً﴾ الفتح/١-٣.

ومنَ الآيةِ هذه في سورة الفتحِ أبدأ رسالتي هذه. فهل يَبغي مَن يُريدُ الحُكمَ عليك بالعصمة المُطلَقة أكثرَ منْ هذا الذي حَدَّثَ به عنك القرآنُ الكريم، فالفتحُ مبينٌ، والمغفرةُ شاملةٌ لما مضَى ولما هو آت، وإذا كان الغُفران سَتراً، وهو للماضي والحاضرِ والمستقبلِ، فَاعْجَبْ لمن يُصرُّ على رؤيةِ المستورِ وكَشْفِه منْ عالمِ البشرِ !

وتمامُ النِّعمةِ إسباغُ فضلٍ لا يبقَى مَعَه خللٌ أوخَطَلٌ، وإلا فما تعني تلك الكلمةُ ﴿ويُتمَّ نعمتَه عليك﴾ إنْ لم يكن هذا الذي قلناه معناها ؟!

وهدايةُ الصراطِ المستقيمِ إضافةٌ أخرى، ودليلٌ مؤكَّد، تَنْضمُّ إلى أدلةِ الاصطفاءِ الرافضةِ لأدنى انزياحٍ عن هذا الصراطِ، ما دامَ الخطابُ على سَبيلِ المنَّةِ والتَّفضُّلِ، منَ اللهِ تعالى لرسولِه ﷺ.

وأمَّا النَّصرُ العزيزُ في الآياتِ الفَتْحيَّةِ فإعلاءٌ مُتفرِّدٌ لا غَلَبَ فيه البتَّة، حسبَ ما تُوحي به دلالاتُ الكلمات.

فأينَ منها تَصوُّرٌ لنَيْلِ غيرِ الحقِّ منَ الحقِّ، تعالى اللهُ عمَّا يُقال في حقِّ مُجتَباه، ممَّا يُعارضُ تَعلُّقَ إرادته في حقِّ مُصطفاه، عُلوّاً كبيراً، يُعلي به شأنَ عبدِه المختارِ صاحبِ الأسرارِ، وسيِّدِ الأبرار.

سيِّدي:

هذه أُولى خَطَواتِ رسالتي هذه للحديث عن عِصمَتِك المطلقة.

وأمَّا الآيةُ الأخرى التي أحكي منها وعنها حكايةَ عصمتكَ المطلقةِ فقوله تعالى:

﴿ومَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ النجم/٣-٤.

وما سوى الهوى الذي تَصَدُّرُ عنه في نُطقك، إنَّما هو التزامٌ كاملٌ بالوحيِ، الذي لا يَنفكُّ عنك دائماً في كلِّ أحوالكَ وأقوالك وحركاتك وسَكَناتك، و﴿هو﴾ تعني أنتَ بُكلِّك، وبكلِّ ما يَصدُر عنك، فأنتَ المعصوم حقاً، عَظُمَتْ مراتبُك ياسيِّدي، لقد قلت مرَّةً لابن عمرو بن العاص حاسماً الأمرَ لصالحِ العصمةِ المطلَقة: (اكتبْ. فَوَالذي بَعثَني بالحقِّ لا يَخرجُ مِنْ هَهنا إلا الحقُّ) [1]. وأشرتَ إلى فَمِكَ الشَّريفِ الطيِّبِ المُطيَّبِ المُطيِّبِ.

أيُّها الحبيبُ العظيمُ:

إذا كان المتشابهُ لا يُقاومُ مُحكَماً في اعتبارِ دلالةِ الثاني، وإذا كان الظَّنِّيُّ يَتوارى أمامَ القطعيِّ لتبقَى دلالةُ الثاني مُعتَمدَةً، فمَا للقومِ لا يُثبِّتون هذا فيما يَخصُّ مسيرتَك العظيمةَ الطاهرة ؟!

ما للقوم يريدونَ اختراقَ المحكَمِ بالمتشابه، والقطعيِّ بالظني ؟! أعني مُحكَمَ العصمةِ بمُتشابهِ الخَطأ، وقطعيَّ الصوابِ الكُلِّيِّ المطلَقِ بظنِّيِّ الخطأ الظاهرِ الذي يَحتَملُ التفسيرَ والتأويلَ والتوضيحَ والإحكام.

إنَّ ما ذكرناه مِنْ آياتٍ تؤكِّدُ عصمتَك المطلقةَ، آياتٌ قطعيَّةُ الثُّبوتِ والدَّلالة على ذلك، وما يأتي به مَنْ يُريدُ خَدْشَ هذه العصمةِ مِنْ قصصٍ أورواياتٍ فهيَ ظنيَّةُ الثُّبوتِ، ظنيَّةُ الدَّلالة على ما أرادوه مِنْ معنى الخطأ

في حقِّ مولايَ سيِّدي رسولِ اللهِ ﷺ، ولا أبغي هنا عرضَ تلك الروايات: فلقد ذُكرتْ في كتبٍ مختلفة، ولكنْ حسبي أنْ يضعَ القارئُ في ذهنِه قواعدَ تصنيفٍ لها متَّفقاً عليها.

وأتابع، سيِّدي، لأقولَ:

كيف يُخطئُ مَن جاءَه الوحيُ يقولُ له مباشرةً: ﴿واصْبِرْ لحُكمِ ربِّكَ فإنَّكَ بأعْيُنِنا﴾ الطور/٤٨ ؟!

وهل هذا المَحُوطُ بعينِ اللهِ: الملحوظُ بها دوماً يغدو عُرضةً للخطأ ؟! إذاً فما معنى المباشرةِ بالخطاب ؟! وما معنى التأكيدِ بـ «أنَّ» المشبَّهة بالفعل ؟! وما معنى الجمعِ في ﴿أعينِنا﴾ ؟!

حاشاكَ سيِّدي أنْ تَخرجَ عن دائرةِ الرَّقابةِ الرَّاعيةِ، لمجرَّدِ فعلَةٍ مُتشابهةٍ صدرتْ عنك، ولا أحدَ يُدرك حقيقتَها إلا اللهَ.

سيِّدي الحبيبُ الحقّ:

ونرفض مَن يُميِّزُ في تصرُّفاتك بينَ تصرفاتٍ تتعلَّقُ بشؤون الدُّنيا، وأخرى ترتبطُ بشؤونِ الدِّين، ليتحدَّثَ عن طُروءِ خطأٍ في الأولى، وعن عصمةٍ في الثانية، وكأنَّه بذلك قد وصلَ إلى تَقعيدٍ ثابتٍ صحيحٍ مُريحٍ على حدِّ زعْمِه !

نعم. نرفضُ هذا التقسيمَ، لنقول:

حاشاك سيِّدي، فأنت خارجَ مِنْطَقةِ الخطأ، مِنْ دون تردُّدٍ، في كلِّ

تصرُّفاتك مِنْ دون أيِّ تمييز، فأنتَ مُحَمَّدٌ المختَار، وأنتَ رسولُ اللهِ المصطفَى، وأنتَ الأكملُ ذاتاً وصفات، في شؤونِ دنياكَ ودينكَ.

هذا أبو بكرٍ الصِّديقُ رَضِيَ الله عنه يوم أُخْبِرَ عن إسراءِ الحبيبِ الأعظمِ يقولُ: «إنْ كانَ قالَها فقدْ صدَقَ». ولمْ يتركْ أيَّ مجالٍ لاحتمالِ خطأ أونسيان أووَهْم، والمهمُّ أنْ تَثْبُتَ نسبةُ الفعلةِ أوالقولِ له، فإنْ صَحَّتْ النِّسْبَةُ فقدْ صدَقَ. فلسانُه حُرٌّ صَدوقٌ، وقلبُه مؤمنٌ مُطمَئنٌّ راضٍ مَرْضِيٌّ.

سيِّدي رسولَ اللهِ أيُّها الحبيب:

إنَّ صاحبَ الاختصاصِ يُسلِّمُ بقولِه المخالِفِ للقاعدةِ على أنَّه رأيٌ ذو اعتبارٍ، ولا يُوسَمُ بالخطأ. فـ «سيبَويه» وإنْ خالفَ القاعدةَ المعروفة في أمرٍ نَحْويٍّ، مخالفتُه هذه رأيٌ وليسَ خطأً، وكذلك «الفراهيديُّ» في علم العروض، فرأيُه في التَّفعيلةِ «زَحافٌ» وليس خَطَلاً.

فما بالُنا لا نسْحَبُ هذا على رسول اللهِ ﷺ لنقولَ عمَّا قاله في تأبيرِ النَّخيل مثلاً: إنَّه رأيٌ معتَبرٌ، ولا يمكن أنْ يكونَ خطأً أبداً. نعم ما بالُنا لا نقولُ هذا، وهذا هو منطقُ العِلمِ.

أيُّها الحبيبُ الشَّفيع:

نحن مَنْ نخطِئُ، وهذا أكيدٌ محقَّقٌ، فلِمَ لا نَنسبُ لأنفسِنا الخطأ حين ننسبُ الخطأ إليك؟ فاحتمالُ الخطأِ فينا ونحن نقولُ عن النَّبيِّ ﷺ إنَّه أخطأ، أقوى مِن احتمالِ خطأِ النَّبيِّ ﷺ.

سيّدي أبا الزّهراء:

لو صدرَ الخطأُ عنك مرةً واحدةً، على سبيلِ الفَرَضِ، لسرَى الشَّكُّ فينا، نحنُ مَنْ نتلقَّى عنك، إلى مرَّات قادمة، وهذا ما يُصيبُ أساسَ الارتباطِ بينَنا وبينك بسُوء، وأساسُ الارتباطِ هذا، ياسيِّدي، تبليغٌ صادقٌ منكَ، ومسيرةٌ محكَمةٌ واعيةٌ عظيمةٌ تَخُطُّها أنت، واستجابةٌ منَّا لا تردُّدَ فيها، ولاشكَّ، ولا ريبَ.

قال تعالى: ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنوا اسْتجيبُوا للهِ وللرَّسولِ إذا دَعاكُم لما يُحْيِيكُمْ ﴾ الأنفال/ ٢٤.

وقال تعالى: ﴿ فلا وربِّكَ لا يؤمنونَ حتَّى يُحكِّموكَ فيما شَجَرَ بينَهم ثُمَّ لا يَجدُوا في أنفسِهم حرَجاً مِمَّا قَضيتَ ويُسلِّموا تسليماً ﴾ النساء/ ٦٥.

أيُّها المعصومُ الأكملُ:

أدَّبكَ ربُّكَ فأحْسَنَ تأديبَك، وكوَّنك فأعْظَمَ تكوينَك، فكنتَ العبدَ الشَّكورَ، ولم تكن العبدَ ذا الذَّنبِ المغفور، لأنَّك المعيارُ، والمعيارُ لا يُصيبُه خَلَلٌ، استغفرتَ لِتَرقَى، وتُبْتَ لتزدادَ قُرْباً، وكلُّ أمرٍ صدرَ عنكَ فَنِعِمَّا هو، في أيِّ صورةٍ ظَهَرَ، وعلى أيِّ وجهٍ بَرَزَ، وعبْرَ أيِّ قناةٍ تَبدَّى.

سيّدي:

مُتشابِه القرآنِ ليسَ خطأً، وكذلك المتشابه مِنْ أفعالك، وفي القرآنِ أمرَنا بردِّ المتشابه إلى المحكَمِ، وإلا فنحن زائغون، وكذلك فيما يَخُصُّ

مسيرتك؛ فلنردَّ متشابهَ الخطأِ الظاهرِ إلى محكمِ العصمةِ الواضحةِ المفسِّرةِ، لأنَّك والقرآنَ وجهان لحقيقةٍ واحدة، أوَليسَ قد قيل فيك: «كان خُلُقُه القرآنُ»، كما صحَّ عن السَّيِّدةِ عائشةَ رضي اللهُ عنها.

فيا نورَ العيونِ، بل يانورَ البصائرِ، هيهاتَ أنْ يعتريَ السِّراجَ المنيرَ أدنى انطفاءٍ، أوأنْ يُصيبَ الوابلَ الطيِّبَ المتدفِّقَ شيءٌ من الانكفاء.

صلواتُ اللهِ وسلاماتُه عليكَ ياسيِّدَ الرُّسلِ، وسيِّدَ الأصفياءِ،
وخاتَمَ الأنبياءِ، يومَ وُلدتَ، ويومَ بُعثتَ، ويومَ هاجرتَ،
وإذ استقمتَ، وكلُّ أيَّامك كذلك، ويومَ لنا تَشفعُ،
وعند اللهِ في أعلى الدرجـــــاتِ تُرفَعُ،
وسلامٌ على إخوانك الأنبياءِ والمرسلين،
وآلِ بيتك الأطهارِ الأشرافِ الأبرارِ
أُولي السِّرِّ المَكين.

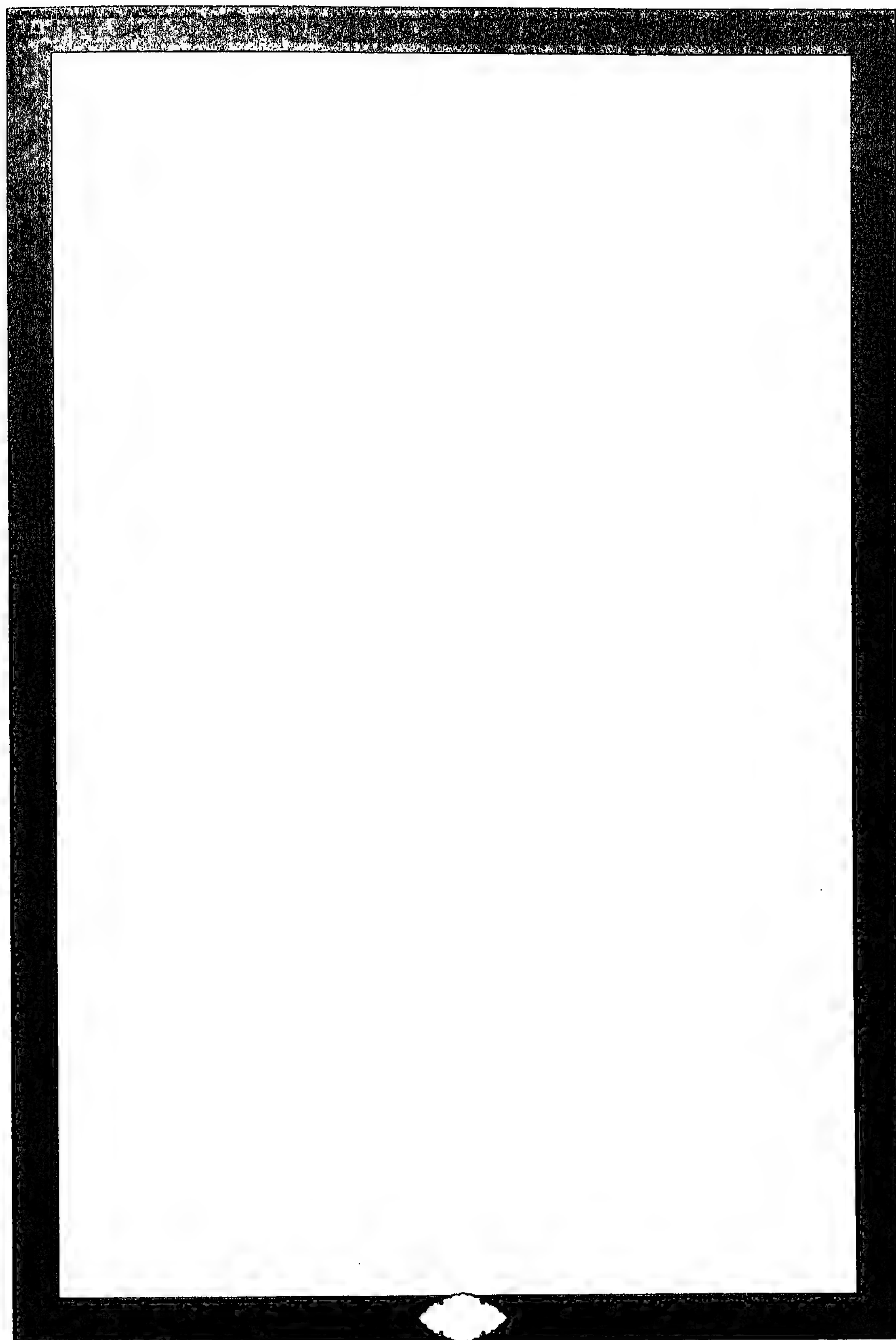
محمود

الهوامش

(١) أخرجه أحمد: ح/٦٨٠٢، ج ٢١٥/٦.

الرسالة الثلاثون

نفحات الرؤى والزيارات لسيد السادات



نَفْحَةُ الرَّوضَةِ

ياصاحبَ الرَّوضِ والرَّوضة:

وما كانت الرَّوضةُ لولا رَوْضُك، و ما كانَ الكونُ لولا أريجُك وعبيرُك، فأنتَ الخُلاصةُ النافحةُ تكويناً، ومَنْ حولك، وما حولك المنفوحُ بك تكليفاً.

سرُّ الله فيك لا يعلمُه إلا هو، وسرُّه فيك علَّمك إياه، فكان فضلُه عليك عظيماً، ومَنْ عُلِّم السِّرَّ اصْطُفي واستُخلِص، ومَنْ حُرِمَه، فليحمدِ اللهَ، وليُسلِّم لمن عُلِّمَه.

فإنْ لم ترَ الهلال فسلِّم لأناسٍ رأوْه بالأبصار

و مَن جهدَ في التعرُّفِ على مالم يُمنَحه ضاقَ صدرُه، وأضحَى ضيِّقاً حرجاً كأنَّما يصَّعَّد في السَّماء من دون معراج، وشتَّان بين مَنْ عُرِج به فشُرِحَ صدرُه، وبين مَن اصَّعَّد متكلِّفاً، فضاقَ صدرُه.

ياصاحبَ سرِّ الروضةِ، إذ كان فيها روضُك:

رضينا بالسِّرِّ المستودَع فيك، وسلَّمنا لمن أودَعه، ومادامتْ مساحةُ الروضةِ في المدينة المنورة محدودةً بمنبرٍ وبيت، فإنَّها للدنيا رمزٌ وإشارةٌ، وأعظمُ اتِّباعٍ فَهْمُ إشارة أهل السِّرِّ، فما البيتُ إلا أنتَ، وما آله إلاك، وما المنبرُ إلا شرعتك، والجنَّةُ كلُّ الجنةِ في تبليغ شرعك، يُنقَل عنك بأمانةٍ، ويُحفظُ بحبٍّ، ويُبلَّغ

بصدقٍ.

فلا واللهِ مانال جنَّةَ الخلدِ مَن أعرضَ عن إشارةِ جنَّةِ الرَّوضة، ولا تحقَّق بالعزِّ مَن لم يفهمْ عنك مانقلتَه عن ربِّ البيتِ بأمانة، وحفظتَه بحبٍّ، وبلَّغتَه بصدقٍ، فكان عهداً على مَن أرسلك ألا يقبلَ يومَ القيامةِ سواه: ﴿ ومَنْ يَبتغِ غيرَ الإسلامِ ديناً فلنْ يُقبَلَ منْه وهوَ في الآخرةِ منَ الخاسرينْ ﴾ آل عمران/٨٥.

يا أيُّها المختارُ في السِّرِّ لتكونَ سيِّدَ الإعلان:

حَكَّمتُك فيما شَجَر بيني وبين نفسي، ورضيتُ ولم أجدْ حَرَجاً، وسلَّمتُ تسليماً، قناعةً لا تغيِّرها الملمَّاتُ بعونِ اللهِ، وحبَّاً لا تزعزعه كلُّ الاضطرابات بلُطفِ اللهِ، وهيهاتَ أنْ يُوقِفَ المنعمُ استمرارَ عطاءٍ، وحاشاه أنْ يرفعَ عني ثوبَ سَترٍ كسانيَاهُ بمحضِ الامتنانِ ومطلَقِ الوفاء.

فأنا ياسيِّدَ الروضِ أينما كان، والروضةِ حيث وُجدتْ، رهينُ نعماءِ المولى وعطائه، وأسيرُ دعوتك ودعائك، وكلُّ سعادتي في رقِّي لربِّي، وأَسْري لك، وجميع فرحتي في استتارةِ سرِّي ببعضٍ بعضِ أنوارِ سرِّك، وهنيئاً لمن استُرقَّ فرضي بالاسترقاق؛ إذ أعزَّه، ولمن أُسِرَ ففرحَ بالأسر؛ إذ أطلقَه.

سيِّدي أبا الزَّهراء، والزَّهراءُ أفضلُ مَن في الروضةِ غرْساً، طابَ البيتُ ومَنْ فيه، وهي البَضْعَةُ، وجلَّ ربُّه إذ اصطفاه مَعَ سكَّانِه، وهم الصفوةُ، ورحمةُ اللهِ لنا إذ ننادي في آذانِ الدُّنيا:

اللهُ ربُّنا، وأنتَ نبيُّنا، وآلُ بيتك خيرُ أسوةٍ بعدَك لنا، على ذلك نلقى اللهَ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون مِنْ أهلِ اللهِ، إنَّه السِّرُّ في الأولى والآخرة، واللهُ يعلم السرَّ وأخفَى، وطوبى لمن كانَ ما أخفاهُ أصلحَ ممَّا أظهرَه.

نَفحةُ القُبَّةِ الخضراءِ في الحجِّ

أيَّتها القُبةُ الخضراءُ، أنتِ بديلُ الغمامةِ البيضاءِ، وإنْ شئتِ قولي أنتِ هي في عالمِ الجنسِ والوَحدةِ، وحقيقةِ المسمَّيَات دون الأسماءِ.

اصْطُفيتِ فكنتِ المهوَى، واجْتُبيتِ فكنتِ موضوعَ المُغَنَّى.

شوَّقوني لرؤياكِ وهم يُنشدون، وهيَّجوني للِقاكِ وهم يُغنُّون، فجئتُكِ أحملُ في الضُّلوعِ لهفةً، وفي الجوانحِ حُرقةً، وحين نظرتُكِ عَذرتُ المبالغين، ورحمتُ الوالهين، وناديتُ في سرِّي، وما أدراكَ ماسرِّي:

نعم، كلُّ ما حولَ الحبيبِ حبيبٌ، وحبُّ القريبِ منْ حبِّ الحبيبِ، وأشياءُ الحبيبِ تغلو، ومُختصَّاتُ الحبيبِ تعلو، ومَنْ ينسَى حبَّ يعقوبَ لقميصِ يوسفَ ؟!

ومَنْ الذي لايذكرُ ما أحدَثه القميصُ من خيرٍ على عَيْنَيْ يعقوب ؟!

أيَّتها القبة:

أنتِ بعضُ ما يذكِّر بحبيبي، فأنتِ حبيبي، وغدوتِ عنوانَ مسجدِ حبيبي، فأنتِ عنواني، فراسلوني ياأحبَّائي عليها، فأنا أفتِّش كلَّ يوم عمَّا جاءَ منها، وعنها، وإليها.

نفحةُ الزِّيارةِ والرَّوضةِ في الحجِّ

الصَّلاة والسَّلام عليكَ يا حبيبي يا رسولَ اللهِ، الصَّلاة والسَّلام عليك يا أيُّها المبعوثُ رحمةً للعالمين، الصَّلاة والسَّلامُ عليك، أيُّها الحقُّ في رسالتك، الحقُّ في نُبوَّتك، الحقُّ في اصطفائك واجتبائك.

أرسلك ربِّي للناس بشيراً ونذيراً، فهيَّأكَ وكوَّنكَ وأعدَّكَ، فلقد قال جلَّ شأنُه: ﴿ وما أرسلناكَ إلا كافَّةً للناسِ بشيراً ونذيراً ﴾ سبأ/٢٨.

وقال عزَّ مِنْ قائل: ﴿ اللهُ أعلمُ حيثُ يَجعلُ رسالتَه ﴾ الأنعام/١٢٤.

وقال: ﴿ وعلَّمكَ ما لم تكنْ تَعلمُ وكانَ فضلُ اللهِ عليك عظيماً ﴾ النساء/١١٣.

فاللهُ العظيمُ في ذاتِه وصفاتِه منحكَ فضلاً عظيماً، ومدحَك بالخُلقِ العظيمِ، وهذه واحدةٌ من مجموعة مكْرُمات.

ثُمَّ بعدَها فاللهُ الكبيرُ الواسعُ أرسلكَ للنَّاسِ كافَّةً عامَّةً، دون استثناءٍ، وجعلك شهيداً: ﴿ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ النساء/٤١، وهذه ثانية.

والإسلامُ، الذي هو معنى الرِّسالات السَّابقةِ ومضمونُها، في رسالتك: ظاهرٌ وباطنٌ، شكلٌ ومضمونٌ، مبنىً ومعنىً، إبراهيمُ عليه الصَّلاة والسَّلام أسلمَ، وكذلك مَنْ بعدَه منَ الأنبياء، إذ أوصاهم بالإسلام: ﴿ فله أسلمُوا ﴾ الحج/٣٤.

أمَّا أنت فالإسلامُ حقيقةٌ قائمةٌ فيك تكويناً لاتحتاجُ إلى تكليفٍ، وهل يُكلَّف

الشهيدُ بما يُكلَّف به من يَشْهَدُ عليهم، وإنما يُشْهَد له بتحقُّقه فيه أصالةً ليُصارَ إلى اتّباعِه والقياسِ على منواله.

سيِّدي رسولَ الله:

من أماكنَ مختلفةٍ يُتَوجَّه إلى جنابك، فالأبيضُ والأحمرُ والأصفرُ يأتون، والحبُّ مِلءُ القلوبِ، والعيونُ مغرورقةٌ بدموعٍ تعبِّرُ عن مكنونِ تعلُّقٍ وتودُّدٍ وتحبُّبٍ، والجوارحُ تسعى لتُفصح بحركاتِها عمًّا دبَّ فيها من وصالٍ نحوك، وشوقٍ إلى لقاك، تبحثُ عن كلمةٍ تضعُها أمامَ جنابك الشَّريفِ، فتجدُ كلَّ الكلمات قواصر، ولا تُلفي بعد سعيِ الصِّدقِ إلا ما قالَه ربُّك الأكرمُ فيك، فذاك الألْيقُ بجنابك، والأوفى بحقِّك، ثمَّ ماقلتَه أنت عن ذاتك، فهو الألصَقُ بحقيقتك، والأمثَلُ في إظهار مكانتك.

فمِنْ: ﴿ مُحَمَّدٌ رسولُ الله ﴾ الفتح/٢٩.

إلى: ﴿ ومَا أرسلناكَ إلا رحمةً للعالمين ﴾ الأنبياء/١٠٧.

إلى: ﴿ وإنَّك لعلَى خُلقٍ عظيم ﴾ القلم/٤.

إلى قولِك: (أنا مُحَمَّدٌ، وأنا أحمدُ، وأنا الماحي، وأنا الحاشر) [١].

وقولِك: (أنا أولُ مَنْ يُحرِّكُ حِلَقَ الجنَّةِ بيده) [٢].

إلى صلواتك على ذاتك، وتعليمِك إياها أمَّتَك.

وإذا ما أرادوا فيضاً مِنْ لغتهم وكلماتهم، لم يجدوا مفرداتٍ إلا مِنْ تلك المصادر التي قالها ربُّك الأعلى، وقلتَها في حديثك الأجلَى، وإذا كنتُ واحداً من هؤلاء يا سيِّدي، يا أيُّها الرحمةُ المهداة، فما أحراني أن أُركِّب صلاةً مِنْ كلماتِ الحقِّ جَلَّتْ قدرتُه، وعباراتِ ثغرك الوضَّاء عَظُم قدرُك، فهل تسمحُ يا

سيِّدي أن أقولَها لك، وأنت الحريصُ علينا، الرحيمُ بنا، فعساها هذه الصَّلاةُ أن تُدَّخرَ في سِجلِّ كتابي، لتأتيَ على السيئةِ فتقضيَ عليها بغفرانِ ربِّي، ثُمَّ بشفاعتك، وعلى الحسنة لتجعلَها محلَّ تجلٍّ للقَبول منْ خالقِك، وموضعَ عنايةٍ لطيفة منِ جانبك يا سيِّدَ الكائنات:

اللهمَّ أنت اصطفيتَ مُحَمَّداً واجتبيتَه، وأرسلتَه وأمَّنته على شريعتك إلى النَّاس إلى يومِ القيامة، فبحقِّ الاصطفاءِ الذي هو فعلُك، والاجتباءِ الذي إليك وحدَك دون سواك، صلِّ عليه صلاةَ رحيمٍ بذاته على رحيمٍ بفضلك عليه.

وصلاةَ مُرسِلٍ عليمٍ على رسول مُعلَّم منك ما لم يكنْ يعلمُ.

وصلاةَ قيُّومِ السَّموات والأرض على قائمٍ بالأمر.

وصلاةَ رؤوفٍ بذاته على رؤوفٍ بنعمتك عليه.

وصلاةَ شَهيدٍ على شاهد.

وصلاةَ آمرٍ وناهٍ على بشيرٍ ونذير.

وصلاةَ ذي الجلالِ والإكرام على صاحب الشفاعةِ والنوال.

وسلِّمْ عليه سَلامَ عَلاَّمِ الغيوبِ على من هو النقطةُ في عالم الشُّهودِ.

وعلى آلهِ نجومِ سماءِ مَظهرك الأجلى، ومعادنِ الفضلِ في خَلقك الأسمى.

وصحبِه المختارين له قَبلاً.

وتقبَّل منْ عبدك «محمود» جهدَه في الفهم الذي تُثيبُ عليه، والْحِقه برحمتك في سجلِّ مَنْ بالأصل رُحِمُوا، وبالفرعيَّةِ اتَّسموا، فأنتَ الملجأ والموئلُ، ولاحولَ ولاقوة إلابك.

نَفْحَةٌ طَيبةٌ في العُمْرة

يا رسولَ اللهِ ها أنا بين يديك، وفي روضِك حَططتُ، وإنِّي على ثقةٍ بربِّي أنَّ الذي أكرمني بدخولِ بعضِ الجنَّةِ في الدنيا، كما أخبرتَ، لن يحرمني في الآخرةِ كلِّها وأصلِها، وحاشا ربِّي يُذيقُ ويَمنع.

أمامَ مُصلَّاك أرنو إلى أيَّامٍ هي الروائزُ لبقيةِ الأيَّام، وذكرتُ يوم قلتَ لمن حولك: (**إنِّي لأرى مِنْ خلفي كما أرى مِنْ امامي، وما يَخفى عليَّ ركوعُكم ولا سجودكم**)[٢]، وما أظنُّ اطلاعَ اللهِ لك مقصوراً على مَنْ خَلفَك في تلك اللحظة، إذ المطلقُ يُعطي ويمنحُ دون حدودِ زمانٍ وحواجزِ مكان، فهل رأيتَني ياحبيبَ الحقِّ خلفَك أركعُ وأسجدُ؟ مناي ذلك، ومبتغاي أنْ تذكرني على لسانِك الأشرفِ في حضرةِ مَنْ أكرمَ بك الأرضَ والسَّماءَ والحجرَ والشَّجرَ والإنسانَ والجانَّ، ورحمَ بإرسالك العالمينَ.

يا نورَ البصرِ ومجلى البصائر، أسألك الشفاعةَ، وأنا أعلم أنِّي عن طَلَبِ ذلك قاصرٌ، ولكنَّ الكريمَ على احتمال الضعيفِ قادرٌ، وَسِعَ قلبُك الأطهرُ نوراً يكفي لكلِّ أفراد الأمَّة مادمتَ قائماً فيهم، وهذا ما أخبرَ به العليمُ الآمر:

﴿ وماكانَ اللهُ ليُعذِّبَهمْ وأنتَ فيهم، وما كان اللهُ معذِّبَهم وهم يستغفرون ﴾، بعد قوله الصادر: ﴿ واعلموا أنَّ فيكم رسولَ اللهِ ﴾.

وهيهاتَ أن يُدركَ حقيقتَك في هذه وتلك إنسانٌ هو أدنى منك، وهل يُحيط المنصور بالناصر ؟!

عزَّت مراتبُك، وإنِّي بأهداب أهدابِها، وأطرافِ أطرافِها، إنْ أكرمتَني بالتعلُّق بها كنتُ الفائز، ولن أُدّعى بالخاسر.

عليك سلاماتُ ربِّي وصلواتُه يا رسولَ الظواهر والسَّرائر، ما قال مسلمٌ في صباحه ومسائه: اللهُ أكبر، وبثَّ إيمانَه في كلِّ ما صدرَ عنه منْ عبائر.

محمود

نَفْحَةٌ في الرَّوضَةِ

سيِّدي رسولَ الله، أيُّها الصَّادق المصدوق:

مِنْ ضياءِ نوركَ أقتبسُ، ومِنْ فَيضِ عطائك أستقي، ومِنْ قسَماتِ جبينكَ أستنيرُ، ومِنْ خيرٍ عميمٍ سكنَ إهابكَ أنهَلُ، لأكونَ بالإنسانيةِ جديراً، فلا واللهِ ما اتَّسمَ بلمحاتِ فضيلةٍ، ولاتحقَّقَ بمعالم حقٍّ مَنْ عَدَل عنك، ونأى عن بابك وجانبَ رحابَك.

كلُّ الإنسان إنْ لم تكن له هادياً ضالٌ، وكلُّ الصفات إنْ لم تختمْها بنَداك جرداءُ، وكلُّ المعاني إنْ حادتْ عن مَسْرِبكَ تاهتْ في بيداءِ اللغو المقفرة، فإنْ أتيتُك اليومَ - وقلبي لاينفكُّ عن الإتيانِ إليك كلَّ يوم - فلِعَرضِ شكوى أرفعُها منِّي عليّ:

ظلمتُ نفسي ظلماً كثيراً، وشَقيتُ بذنوبي شقاءً كبيراً، وقصَّرتُ في حملِ الأمانةِ أيَّما تقصير، ولم أبلغ منها حتَّى النذرَ اليسير، تشعبتْ مسالكُ الشَّهوات، وجفَّتْ فيَّ منابعُ الخيرات، وتعدَّدت طرائقُ الهوى، وروحي هَدَّتْها عواصفُ النَّوى، فأنت بابُ الله للمستغفرين، وأنتَ أنتَ الحريصُ على المسلمين وغير المسلمين، وأنتَ الرؤوفُ الرحيمُ بالمؤمنين، فاقْبَلْ بحقٍّ شفاعتك شكواي، واستغفرْ لي ما قد حملتُ من الأوزار عندَ الله، يا نورَ سرِّي وسلواي، فالفَمُ فيك معطَّر،

والقلبُ أنقَى مِنْ كلِّ نقيٍ وأطهر، والروحُ نفخَها الحقُّ فيك عصمةٌ لاتعرفُ الزللَ ولاتتكدر.

أستودعُك يا حبيب الحقِّ آلامي، ولي كاملُ الرجاءِ بربي أن يُحقِّق بصَلاتي عليك آمالي.

الصَّلاةُ والسَّلامُ والأمان يا بهجة الحياة عليك، والخيرُ ساقه اللهُ حباً إليك.

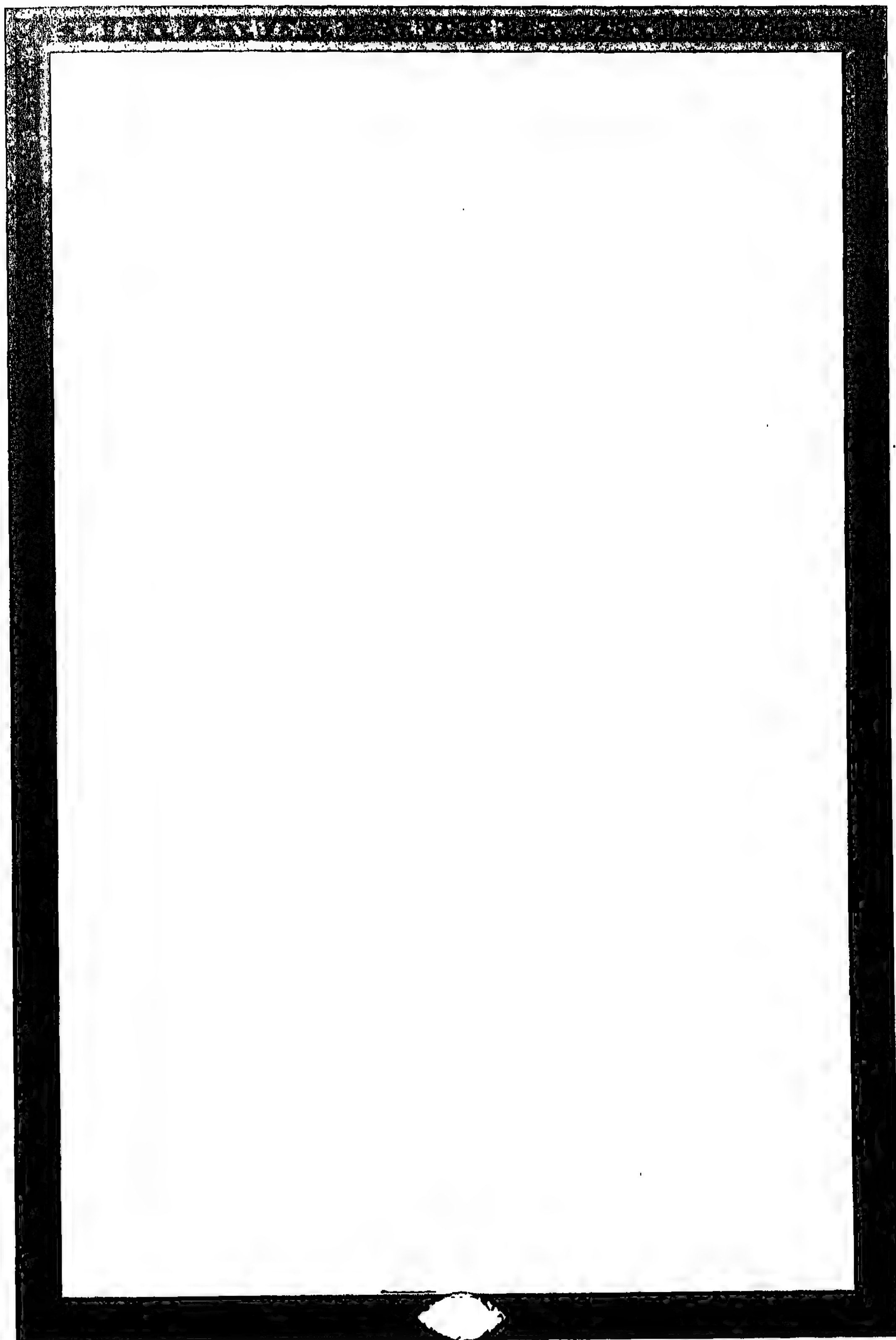
محمود

الهوامش

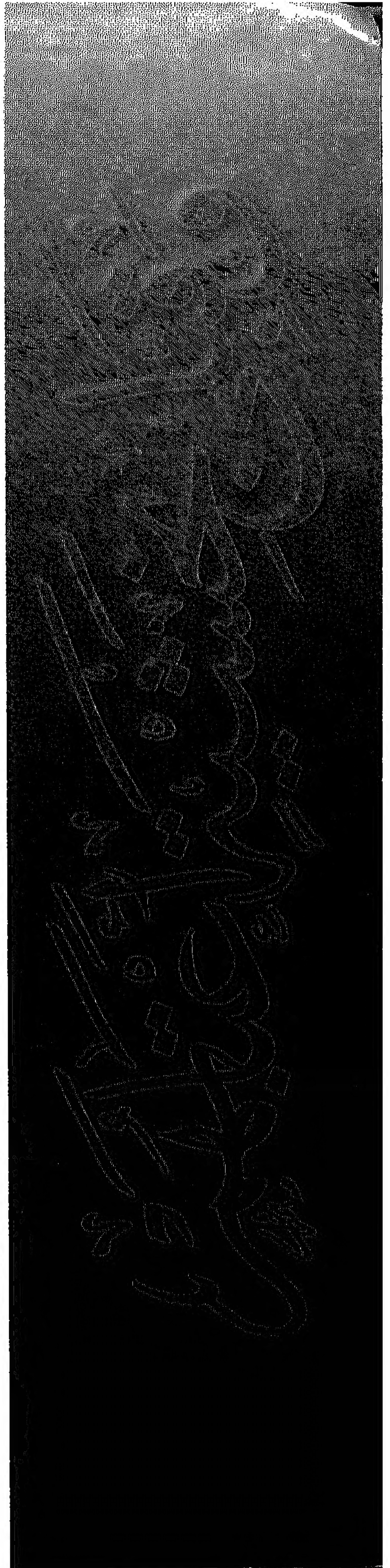
(١) متفق عليه. البخاري: ك/التفسير، ح/٣٧٢. مسلم: ك/الفضائل، ح/٢٣٥٤.

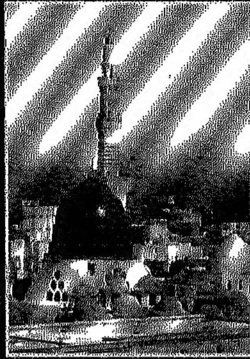
(٢) أخرجه الترمذي: ك/المناقب، ح/٣٦١٦.

(٣) مسلم: ك/الصلاة، ح/٤٢٤.



الفهرس





وهذه الرسائل

كلمات تقبسُ نورها من المعصوم الأكمل، وتجد هداها عند من هو الأسوة فوق القدوة، لطفه فاق كلَّ لطف، وقوته دونها قوى كلّ الرجال.

أدّبه ربّه فأحسن تأديبه وأرسله للناس رحمة مهداة، فكان بتعليم الله واصطفائه الشخصية الكاملة التامة. فهو المعيار المعصوم، وهو مطمح سعي الإنسان. فهل يستطيع القلب ألا يحب؟

والكاتب بعدُ عُرف بمن أحب، وصار به يُدعى، فهنيئاً لمن استنار.

